

كوكب القردة

تأليف : بيير بول

ترجمة : هشام ممدوح طه

كوكب القردة

تأليف

بيير بول

ترجمة

هشام ممدوح طه

دار الهلال

هذه هي الترجمة الكاملة لنص رواية Planet of the Apes
المترجم من الفرنسية إلى الإنجليزية وترجمه Xan Fielding
وكان عنوان الرواية بالفرنسية هو La Planete des Singes

تو ضيح لابد منه

اخترت عنوان «كوكب القردة» لهذه الرواية بدلاً من «كوكب القرود» لأن التركيز الأساسى فى أحداث الرواية يقع على القرود التى لاذيل لها وهى ما يسميها العالم البريطانى الشهير تشارلز داروين القردة العليا لأنها فى رأيه أعلى فى سلم الترقى حيث أنها أقرب فى مشيتها إلى الانتصاب.

الغلاف تصميم الفنان:
محمد أبوطالب

الجـزء الأول

(١)

كان جن وفيليس يقضيان أجازة رائعة فى الفضاء، فى أبعد مكان ممكن عن أى نجوم مأهولة.

فى تلك الأيام، أضحت رحلات ما بين الكواكب واقعا يوميا، كما صار السفر ما بين الكواكب أمرا معتادا.

وتنقل الصواريخ السياح إلى مواقع عجيبة فى كوكب الشعرى أورجال المال إلى بورصتى الأسهم الشهيرتين فى كوكبى 'حارس السماء' و'الدّبران'. لكن جن وفيليس، وهما رفيقان وفر الثراء لهما من أسباب الدعة ما وفر، امتازا فى محيطهما بالأصالة وحفنة ذرات من الشاعرية. كانا يجوبان الكون جريا وراء المتعة - باستخدام الشراع.

اتخذت سفينتهما هيئة كرة ذات ظرف - وهوالشراع - والذى اتسم بالرهافة والخفة على نحومعجز مما أهله للحركة فى الفضاء مدفوعا بالضغط الناجم عن الإشعاع الضوئى. وإذا ما تركت هذه الآلة وهى فى جوار نجم، لأجهزتها وحالتها على هذا النحو، (ومع احتفاظها بمسافة تبعدها بما يكفى عن النجم لئلا يؤثر فيها مجال جاذبيته) فإنها على الدوام تتحرك فى اتجاه خط مستقيم فى عكس اتجاه النجم؛ لكن بما أن النظام النجمى الذى يعيش فيه جن وفيليس يحتوى على ثلاث شموس تدور نسبيا بالقرب من بعضها البعض، فإن مركبتهما تستقبل إشعاعات ضوئية على ثلاثة محاور مختلفة. ولذا فقد تفتق ذهن 'جن' عن أسلوب

بالغ الحذق فى قيادة السفينة وهو وضع سلسلة من الستائر الحاجبة مصفوفة داخل الشراع بحيث يستطيع وقتما شاء أن يبسطها أويطويها. وبالتالى فإنه يتحكم فى تغيير تأثير الضغط الضوئى عن طريق تعديل الطاقة المنعكسة على قطاعات معينة فى السفينة. وعلاوة على ذلك، يمكن إرخاء أو طى هذا الظرف المرن حسب رغبة الملاح. ونتيجة لذلك فعندما يرغب 'جن' فى زيادة السرعة، فإنه يفرد الشراع لأقصى حد ممكن. ويمتص الشراع بسطحه الهائل حينئذ نفحات الأشعة وتنطلق السفينة كمقذوف بسرعة مهولة فى الفضاء، وهو ما يشعر رفيقته فيليس بالدوار. كما كانت تتغلب الدوخة عليه هوالآخر، وفى هذه الحالة يتعلقان ببعضهما البعض على نحو عاطفى ويحدقان فى الأغوار السحيقة والبعيدة التى دفعتهما إليها السفينة. وعلى الجانب الآخر عندما يرغبان فى خفض السرعة، يضغط 'جن' على زر فينكمش الشراع حتى يصبح كرة تكفى لاحتوائهما سويا فى وضع شديد الالتصاق. ويصبح أثر الضوء تافها، وتتقلص هذه الفقاعة المتناهية فى الصغر حتى تعتمد على قصورها الذاتى فقط، وتبدو وكأنها بلا حركة وكأنها معلّقة فى الفراغ بخيط غير مرئى. ويقضى الرفيقان ساعات طويلة ملؤها النشوة فى هذا الكون المختزل، المنصوب على قامتهما وحدهما ومن أجلهما فقط. ويحلو لجن' أن يشبهه بسفينة شراعية ساكنة وفيليس بفقاعة هواء ينفثها عنكبوت البحر.

كان «جن» على علم بحيل أخرى، تعتبر قمة فى فن الإبحار بين الملاحين الكونيين: على سبيل المثال، الاستفادة من ظلال الكواكب وأقمار محددة تابعة لها فى تحويل المسار. ونقل هذه المهارة إلى فيليس، التى صارت الآن تضارعه البراعة بل وتفوقه جرأة فى كثير من الأحيان. وعندما تمسك بذراع الدفة كانت تطلق فى بعض الأحيان جميع مدافع الشراع دفعة واحدة والتى تجرفهما حتى أطراف النظام النجمى، غير عابئة بالعاصفة المغناطيسية الناجمة عن ذلك، والتى تبدأ بدورها فى إبطال مفعول أشعات الضوء وتهز قاربهما الصغير كأنه قوقعة حيوان

رخوى. وفى مناسبتين أو ثلاث من هذا النوع، كان "جن" يصحوعلى بداية عاصفة ويصارع فيليس على انتزاع ذراع الدفة منها بهدف التعجيل فى البحث عن ملجأ بأسرع وقت ممكن ويبدأ فى تشغيل الصاروخ الاحتياطى، الذى تعاهدا على عدم استخدامه إلا فى حالة الخطر الداهم.

وذات يوم استلقى "جن" وفيليس جنبا إلى جنب فى وسط مركبتهما الفضائية دون أن يعبئا بالعالم كله، رغبة فى الاستفادة من أجازتهما للحد الأقصى عبر تعريض جسديهما لأشعة الشموس الثلاث. أغمض "جن" عينيه لم يفكر سوى فى حبه لفيليس بينما استرخت فيليس تماما على جنبها، وهى تحدق فى كون بالغ الضخامة ودعت نفسها لأن يسكرها إحساسا كونيا بالفراغ مثلما اعتادت أن تفعل فتنام. وفجأة أفاقت من غشيتها وقطبت حاجبيها واعتدلت فى جلستها عندما لمع وميض غير معتاد عبر هذا الفراغ. وانتظرت ثوانى قليلة ورأت وميضا آخر مثل انعكاس شعاع على جسم لامع. ما كان الإحساس الكونى الذى اكتسبته عبر تلك الرحلات ليخدعها. إضافة إلى أن "جن" أيدها عندما لفتت انتباهه وكان من غير المتخيل أن يقع فى مثل هذا الخطأ: جسم يتلألأ فى الضوء سابحا عبر الفضاء، على مسافة عجزا عن تحديدها. التقط "جن" النظارة المعظمة وصوبها نحو الجسم الغامض بينما مالت فيليس على ذراعه.

قال "إنه ليس بالجسم الكبير . يبدو أنه مصنوع من الزجاج . . . كلا، دعينى أنظر. إنه يقترب. إنه يمضى على نحو أسرع منا. إنه يشبه ..." وسيطرت على عينيه الحيرة. وأدلى النظارة المعظمة التى انتزعتها فيليس فى الحال.

"إنها زجاجة، يا محبوبى".

"زجاجة!"

ونظرت إليها بدورها.

" نعم، إنها زجاجة. يمكنني أن أراها بوضوح كامل. إنها مصنوعة من زجاج فاتح اللون وبها سدادة؛ يمكنني أن أرى ختم الإحكام. يوجد بداخلها شيء أبيض يشبه ورقة - واضح أنها رسالة. لابد يا 'جن' من أن نمسك بها!"

شاركها 'جن' الرأى وشرع على الفور فى عمل بعض المناورات البارعة لوضع الكرة فى مسار الجسم العجيب. وسرعان ما وفق فى مهمته وأخذ يخفض من سرعته ليعطى هذا الجسم فرصة اللحاق به. وفى غضون ذلك، ارتدت "فيليس" بزة الغوص فى الفضاء وخرجت من الشراع عن طريق باب مسحور مزدوج.

لم تكن المرة الأولى التى يعثران فيها على أجسام غريبة. فلم يتوقف استخدام ملعقة الالتقاط الخاصة بالمركبة. وكانا وهما يسبحان فى الفضاء على سرعة منخفضة، وفى بعض الأحيان، فى حالة سكون تام، يستمتعان بالمفاجآت ويجريان استكشافات اقتصرت على الرحالة الذين يركبون الصواريخ. وجمعت فيليس فى شبكتها بقايا كواكب مدمرة، شظايا نيازك أتت من أعماق الكون وقطع من أقمار صناعية أطلقت فى الفضاء فى بداية عصر غزو الفضاء. كانت جد فخورة بمجموعتها؛ لكن هذه هى المرة الأولى التى يعثران فيها على زجاجة، وعلى زجاجة بداخلها رسالة - ساورها يقين من وجود الرسالة. صار جسدها يهتز من رأسها حتى أخمص قدميها من نفاد الصبر، وتومىء مثل عنكبوت نفد منه الخيط الذى ينسجه وهى تصيح منفجرة فى رفيقها فى تليفون داخلى"أبطىء يا 'جن' . . . كلا أسرع قليلا من هذا وإلا ستفوتنا فرصة الإمساك بها. . . انتبه إلى الميمنة . . .

الآن اجذبها بقوة إلى الميسرة . . . اثبت مكانك. . . أمسكت بها !"

وأطلقت صيحة انتصار وجاءت إلى الداخل تحمل غنيمتها.

كانت زجاجة كبيرة وعنقها محكم الغلق بعناية. وبدت لفافة ورق فى داخلها.

وقالت 'فيليس' متوسلة وهى تدق بكعبها: "اكسرها يا 'جن' أسرع !"

وبدأ 'جن' الأقل نفادا فى الصبر فى تقطيع السدادة المشمعة بأسلوب منهجى لكن عندما انفتحت الزجاجة على هذا النحو رأى أن لفافة الورق ملتصقة تماما ولا يمكن زحزحتها. وفى هذه الحالة أذعن لتوسلات رفيقته وحطم الزجاجة بمطرقة. وانبسطت اللفافة من تلقاء نفسها. تكونت من عدد كبير من الرقائق الرفيعة جدا تغطيها كتابة صغيرة. كتبت الرسالة بلغة أهل الأرض والتى يجيدها 'جن' إجادة تامة بعد أن تلقى جزءا من تعليمه على هذا الكوكب.

ومع هذا، خالجه شعور بعدم الارتياح ومنعه من الشروع فى قراءة وثيقة فى أيديهم بهذه الطريقة غير اللائقة؛ لكن حالة التشوق الطاغى على فيليس حسم الأمر بالنسبة له. ولم تكن 'فيليس' على معرفة وثيقة بلغة أهل الأرض وتحتاج إلى معاونته.

"أرجوك يا 'جن' !"

قلص 'جن' حجم الكرة لتسبح فى تراخ فى الفضاء، وتأكد من عدم وجود عائق أمامهما، ثم استلقى بجانب رفيقته وبدأ فى قراءة المخطوطة.

(٢)

إننى أعهد بهذه المخطوطة إلى الفضاء، ليس بغرض إنقاذ نفسى، ولكن بهدف المساعدة، ربما لتفادى وقوع هذه الكارثة المروعة التى تهدد الجنس البشرى. ليرحمنا الرب!.

هتفت فيليس وهى تضغط فى تعجب على الكلمة الثانية "الجنس البشرى ؟"

وقال "جن" مؤكدا "هذا ما هو مذكور هنا. لا تبدأى فى مقاطعتى". واستمر فى قراءته.

بالنسبة لى، أنا أوليس ميرو انطلقت ثانية مع أسرتى فى السفينة الفضائية. بمقدورنا الاستمرار على هذا المنوال لعدة سنوات قادمة. نحن نزرع الخضراوات والفاكهة على متن السفينة ولدينا حظيرة دواجن.

نحن لا نفتقر إلى شىء. ربما سنعثر فى يوم ما على كوكب صديق. إنى لا أجرؤ على الإفصاح عن هذا الأمل. لكن فيما يلى وصف صادق لمغامرتى.

فى سنة ٢٥٠٠ التى انطلقت فيها مع رفيقين آخرين على متن سفينة كونية بغرض الوصول إلى المنطقة التى يهيمن عليها النجم العملاق المهول "منكب الجوزاء".

كان مشروعا طموحا، بل الأكثر طموحا فى تاريخ كوكب الأرض. ويبعد منكب الجوزاء - أو كما يطلق عليه رواد الفضاء عندنا "ألفا أوريونيس" - حوالى ثلاثمائة سنة ضوئية عن كوكبنا. ويعد هذا النجم مدهشا من عدة جوانب. أولا حجمه: يبلغ

قطره ما بين ثلاثة وأربعة أمثال حجم شمسنا؛ بمعنى آخر لو أن مركزه وضع فى نفس مركز الشمس لامتد هذا الوحش ليشمل مدار كوكب المريخ. ثانيا توهجه: أنه نجم من المرتبة الأولى، فهوالأكثر توهجا فى مجموعة نجوم سديم الجبار التى يمكن أن ترى على الأرض بالعين المجردة برغم بعد المسافة. ثالثا طبيعة إشعاعاته: تنبعث منها أضواء حمراء وبرتقالية، مما ينجم عنه أثر بالغ الروعة. وأخيرا إنه جرم سماوى ذو بريق متغير : أى إن درجة توهجه تتغير مع الفصول بسبب التغيرات التى تطرأ على قطره فمنكب الجوزاء نجم ينبض.

لماذا بعد أن استكشف نظامنا الشمسى، وأصبحت كل الكواكب مأهولة، لماذا جرى اختيار هذا النجم البعيد كهدف لأولى الرحلات بين النجوم ؟ نما إلى علمنا أن البروفيسور 'أنتل' هو الذى اتخذ هذا القرار. ويعد البروفيسور المنظم الرئيسى وراء هذا المشروع ومموله حيث خصص له كامل ثروته الضخمة وهو أيضا رئيس بعثتنا وهو الذى صمم بنفسه السفينة الفضائية التى ستحملنا وأشرف على بنائها.

وأخبرنى بسبب اختياره خلال الرحلة.

قال "يا عزيزى أوليس، لن يكون الوصول إلى منكب الجوزاء أكثر مشقة وسيستغرق وقتا بالكاد أطول فى الوصول إليه مقارنة بالوصول إلى أى نجم أكثر قربا منه إلينا مثل 'بروكسيما سنطوريس' ".

وعند هذه النقطة رأيت أنه من المناسب أن اعترض وألفت انتباهه إلى بعض البيانات الفلكية التى جرى التحقق منها مؤخرا:

"سيستغرق وقتا بالكاد يكون أطول! إن 'بروكسيما سنطوريس ' يبعد عنا أربع سنوات ضوئية فقط بينما منكب الجوزاء...".

يبعد ثلاثمائة، إننى على وعى تام بهذا. لكننا لن نستغرق بالكاد أكثر من

عامين فى الوصول إليه بينما كنا سنحتاج لنفس المدة الزمنية تقريبا للوصول إلى منطقة "بروكسيما سنطوريس". أنت لا تصدق هذا الأمر لأنك معتاد على قفزات البراغيث على كواكبنا، والتى من المسموح فيها الابتداء بسرعة عالية لأنها لا تستمر إلا لبضع ثوان، وتكون سرعة الانطلاق الأكثر اقتصادا للوقود منخفضة بصورة لا تذكر ولا تقارن بسرعتنا. . . يبدو أنه حان الوقت لأطلعك على بعض التفاصيل حول كيفية عمل سفينتنا. بفضل صواريخها الفائقة، التى كان لى شرف تصميمها، يمكن لهذه المركبة أن تصل إلى أعلى سرعة يمكن تخيلها فى الكون بالنسبة إلى جسم مادى - أى سرعة الضوء ناقص إبسايلون".

"ناقص إبسايلون ؟"

"أعنى أنه يمكن الاقتراب منها بدرجة متناهية فى الصغر : أى بدرجة ألف مليون، إذا كنت ترغب فى أن أذكرها على هذا النحو".

قلت "حسنا، يمكننى أن أفهمها بهذه الطريقة".

"ما يتعين عليك أيضا أن تفهمه هو أننا ونحن نتحرك بهذه السرعة، فإن زمننا يتباعد بشكل واضح عن الزمن على الأرض، هذا التباعد يتعاظم كلما ازدادت سرعتنا. ففى هذه اللحظة، منذ أن بدأنا حديثنا، عشنا دقائق معدودة يقابلها انقضاء عدة أشهر على كوكبنا. وعند بلوغنا السرعة القصوى، سيتوقف بنا الزمن تقريبا، ولكننا بالطبع لن نحس بذلك. إن مرور بضع دقائق بالنسبة لك ولى، بضع خفقات قلب، سيتواكب مع مضى سنوات عدة على الأرض".

"يمكننى أيضا أن أفهم ذلك. فى الواقع، ويعد هذا هو السبب الكامن وراء بلوغنا مقصدنا قبل أن نموت. ولكن فى هذه الحالة لماذا تستغرق الرحلة عامين ؟ لماذا لا تستغرق بضعة أيام أوبضع ساعات فقط ؟"

"كنت على وشك الوصول إلى هذه النقطة، لأنه ببساطة لكى نصل للمرحلة

التى يتوقف فيها الزمن تقريبا، مع الوضع فى الاعتبار معدل التسارع الذى تتحمله أجسادنا، سنحتاج إلى حوالى عام. كما أننا سنحتاج إلى عام آخر لخفض سرعتنا. والآن أفهمت خطة سفرنا ؟

اثنا عشر شهرا من التسارع؛ اثنا عشر شهرا لخفض السرعة؛ وما بين الاثنين، بضع ساعات سنغطى خلالها الجزء الأساسى من الرحلة. وفى الوقت ذاته، ستدرك لماذا لا يكاد يستغرق السفر فترة أطول من الزمن فى السفر إلى منكب الجوزاء عن السفر إلى بروكسيما كانتاوريس. فى الحالة اللاحقة، سيتعين علينا أن نمر بعام التسارع وعام إنقاص السرعة اللذين لا يمكن الإفلات منهما وربما يكون الفارق بين الاثنين بضع دقائق بدلا من بضع ساعات. ولا يعد مثل هذا الفارق شيئا ذا بال. وبما أننى أتقدم فى العمر ومن المرجح أننى لن أستطيع أبدا اجتياز هذا الحاجز مرة أخرى، فقد آثرت من البداية اختيار هدف عند نقطة بعيدة للغاية، على أمل العثور على عالم جد مختلف عن عالمنا".

كانت مثل هذه الأحاديث تستغرق أوقات فراغنا على متن السفينة وفى الوقت ذاته جعلتنى أقدر براعة البروفيسور أنتل المدهشة أكثر من ذى قبل. لا يوجد مجال لم يطرقه، وصرت مرتاحا لأن يكون شخصا مثله على رأس مشروع على هذا الجانب من الخطورة. ومثلما توقع فإن الرحلة استغرقت حوالى عامين من زمننا والتى يكون قد انقضى خلالها ثلاثة قرون ونصف على الأرض. كانت هذه العقبة الخفية الوحيدة بشأن اختيار هدف يبعد كل هذه المسافة: هو إنه إذا ما عدنا يوما ما إلى الأرض فسنجد كوكبنا قد كبر عنا بما يتراوح بين سبعمائة وثمانمائة عام. ولكننا لا نبالى، بل إننى أشعر أن إمكانية هروب البروفيسور من معاصريه يعد دافعا إضافيا بالنسبة له. فكثيرا ما اعترف بأنه مل رفاقه من البشر . . .

هتفت فيليس مرة أخرى "البشر !"

قال "جن" مؤكدا" نعم البشر . هذا ما تقوله الرسالة".

لم تقع حادثة خطيرة أثناء السفر. كنا قد انطلقنا من القمر وسرعان ما اختفت الأرض والكواكب المجاورة. ورأينا الشمس تتقلص تدريجيا حتى صارت مجرد لون برتقالي في السماء ثم لون بنفسجي محمر داكن وأخيرا نقطة من الضوء بدون أبعاد، نجم متواضع لا يستطيع أحد سوى البروفيسور تمييزه عن ملايين النجوم الأخرى في المجرة.

ها نحن عشنا بلا شمس ولكن لم يسوء حالنا نتيجة لذلك لأن السفينة جهزت بمصادر ضوء بديلة. كما لم نشعر بالملل. فالتحدث مع البروفيسور ممتع؛ واكتسبت معارف خلال هذين العامين أكبر من مجموع خبراتي السابقة. وتعلمت أيضا كل ما يحتاجه المرء لتوجيه المركبة الفضائية. واتضح سهولة الأمر إلى حد كبير: كل ما هناك أن تصدر أوامرك لأجهزة إليكترونية تتولى كافة العمليات الحسابية وتبادر فورا إلى تنفيذ المناورات.

شكلت حديقتنا عامل إلهاء مقبول حيث شغلت حيزا معتبرا على متن السفينة. وقد خطط البروفيسور أنتل المهتم بعلم النبات والزراعة إلى جانب اهتمامات أخرى، للاستفادة من الرحلة في إجراء بعض تجارب معينة على نمو النبات في الفضاء. وخصصت مقصورة مكعبة يبلغ طول أضلاعها ثلاثين مترا كقطعة أرض. وجرى الاستفادة من حجم المقصورة إلى أقصى حد وذلك بفضل استخدام الصواني. كما بثت الحياة من جديد في التربة بواسطة أسمدة كيماوية ولم ينقض سوى شهرين منذ انطلاقنا حتى متعنا أنظارنا بما تنتجه قطعة الأرض من الخضراوات كافة، مما وفر لنا غذاء صحيا. ولم ينس البر وفيسور بهجة النفوس وتمثل ذلك في جزء خصصه للزهور والذى تعهده بالرعاية والحب. وكما جلب هذا البروفيسور غريب الأطوار معه بعض الطيور والفراشات بل وقرد صغير من فصيلة الشمبانزي والذى عمدناه باسم "هكتور" والذى كان يسلينا بحيله.

من المؤكد أن العلامة أنتل إن لم يكن كارها للجنس البشرى إلا أن البشر

ليسوا داخل دائرة اهتمامه . ودائما ما يعلن أنه لا يعوّل كثيرا عليهم ومن المحتمل أن يفسر هذا . . .

وقاطعت فيليس الحديث من جديد وهى مبهوتة "كاره للبشر ؟ الجنس البشرى؟"

قال "جن" "إذا ظللت تقاطعيننى كل ثانية فإننا لن نصل أبدا إلى النهاية. افعلى مثلى: حاولى أن تفهمى".

وعدته "فيليس" أن تصمت حتى نهاية القراءة وأوفت بوعدها. ومن المحتمل أن يفسر هذا لماذا جمع فى السفينة - التى كانت كبيرة بما يكفى لإقامة عدة عائلات - أنواع من الخضراوات لا حصر لها وبعض الحيوانات، فى الوقت الذى قصر فيه عدد الركاب على ثلاثة: هو نفسه وتلميذه "آرتور لوفان"، وهو طبيب ينتظره مستقبل باهر وأنا أوليس ميرو، صحفى مغمور قابل البروفيسور نتيجة لرغبة فى إجراء حوار معه. واقترح أن يأخذنى معه بعد أن علم أننى بلا أسرة وأجيد لعب الشطرنج بمستو معقول. وتعد هذه فرصة رائعة بالنسبة لصحفى شاب، فحتى لو أدى إلى عدم نشر قصتى لمدة ثمانمائة عام، ربما لهذا السبب نفسه ما سيضفى عليها قيمة فريدة. وقبلت الاقتراح وكلى حماس.

لم تحدث أى انتكاسة خلال الرحلة. كان الشىء المزعج الوحيد من الناحية البدنية هو شعور بالثقل خلال عام التسارع وكذلك خلال عام الإقلال من السرعة. كان يتعين علينا أن نؤقلم أنفسنا على الشعور بإن أجسامنا تزن أكثر بمقدار مرة ونصف المرة عن أوزاننا على الأرض، وهى ظاهرة مرهقة بعض الشىء بخاصة فى البداية ولكن سرعان ما تناسينا الأمر برمته. وما بين هاتين الفترتين، انعدمت الجاذبية تماما مع كل الحوادث الشاذة التى تنجم عن تلك الظاهرة؛ لكن هذا لم يستغرق سوى ساعات قليلة لم نصب خلاله بأى سوء.

وذات يوم، بعد تخطينا هذا المعبر الطويل، مررنا بتجربة مبهرة ألا وهى رؤية النجم منكب الجوزاء وهو يظهر فى السماء بشكل جديد.

(٣)

إن الشعور بالرهبة الناجمة عن مثل هذا المنظر لا يمكن وصفه: نجم كان بالأمس ذرة لامعة من بين عدد لا يحصى من الذرات المجهولة فى القبة السماوية، يبدأ فى البروز شيئا فشيئا وسط خلفية سوداء، ثم يتخذ بعدا فى الفضاء حيث يظهر كثمرة البندق ثم يتضخم حجمه وفى الوقت نفسه يتضح لونه أكثر ليشبه البرتقالة، وأخيرا يتخذ وضعه فى الكون بنفس القطر تقريبا مثل نجمنا المألوف لنا فى وقت النهار.

وها هى قد ولدت لنا شمس جديدة، شمس تميل إلى الإحمرار مثل شمسنا عند المغيب، وبدأنا بالفعل نحس بجاذبيتها ودفئها.

وعند هذه النقطة انخفضت سرعتنا بدرجة كبيرة جدا ومع هذا أخذنا فى الاقتراب من منكب الجوزاء حتى بدا لنا أن قطره تجاوز كل الأجرام السماوية التى رأيناها حتى هذه اللحظة، مما كان له عظيم الأثر فى نفوسنا. أصدر أنتل بعض أوامر إلى الروبوتات وبدأنا نميل نحو مركز جاذبية هذا العملاق المهول، ثم أخرج العالم أجهزته الفلكية وأخذ يسجل ملاحظاته.

لم يمض وقت طويل على اكتشافه أربعة كواكب استطاع تحديد أبعادها بسرعة ومعها المسافات التى تبعدها عن النجم المركز. ويوجد كوكب يقع بين كوكبين بعيدين عن منكب الجوزاء يتخذ مسارا مواز لنفس مسارنا. وتماثل حجمه وحجم الأرض من حيث احتواء غلافه الجوى على الأكسجين والنيتروجين ويدور حول منكب الجوزاء على مسافة تساوى ثلاثين مثل المسافة بين الأرض والشمس

وتستقبل أشعة تطابق التي يستقبلها كوكبنا نظرا لحجم هذا العملاق المهول المصحوبة بدرجة حرارته المنخفضة. وقررنا أن نجعله هدفنا الأول. وبعد إصدار أوامر جديدة للروبوتات، وضعت سفينتنا على عجل في مدار هذا الكوكب ثم شرعنا بعد إغلاق المحركات في ملاحظة هذا العالم الجديد على مهل. وأوضح لنا التليسكوب المحيطات والقارات على سطح هذا الكوكب.

لم تكن السفينة مجهزة للهبوط لكن جرى التهيؤ لهذا الظرف حيث زودت بثلاثة صواريخ صغيرة والتى أطلقنا عليها زوارق سريعة، وانطلقنا فى واحد منها آخذين معنا بعض أجهزة قياس وهكتور الشمبانزى الذى ارتدى مثلنا بزة غوص وجرى تدريبه على استخدامها، وبالنسبة إلى سفينتنا، تركناها ببساطة لتدور حول الكوكب، ويعتبر تركها على هذا النحو أكثر أمانا من رسو سفينة ألقت مرساتها أمام رصيف ميناء حيث كنا نعلم أنها لن تنجرف قيد أنملة عن مدارها.

لم تكن السفينة مجهزة للهبوط لكن جرى التهيؤ لهذا الظرف حيث زودت بثلاثة صواريخ صغيرة والتى أطلقنا عليها زوارق سريعة. وانطلقنا فى واحد منها آخذين معنا بعض أجهزة قياس وهكتور الشمبانزى الذى ارتدى مثلنا بزة غوص وجرى تدريبه على استخدامها. وبالنسبة إلى سفينتنا، تركناها ببساطة لتدور حول الكوكب. ويعتبر تركها على هذا النحو أكثر أمانا من رسو سفينة ألقت مرساتها أمام رصيف ميناء حيث كنا نعلم أنها لن تنجرف قيد أنملة عن مدارها.

تيسر أمر هبوطنا على مثل هذا الكوكب باستخدام الزورق الذى أقلنا. وبمجرد اختراقنا الطبقات الكثيفة من الغلاف الجوى، جمع البروفيسور أنتل عينات من الهواء الخارجى وحللها. ووجد أنها مطابقة لتكوين الهواء على الأرض على نفس الارتفاع. بالكاد توفر لى وقت لتأمل هذه المصادفة المعجزة، لأننا اقتربنا من سطح الكوكب بسرعة كبيرة؛ كنا على ارتفاع خمسين ميلا أو نحو ذلك. وبما أن الروبوتات تولت تنفيذ كل المناورات اللازمة لم يكن لدىّ شيء لأفعله سوى إلصاق وجهى بكوة الزورق ومشاهدة هذا العالم المجهول ينهض لملاقاتى وعقلى يترنح من نشوة الاكتشاف.

عكس الكوكب تشابها غريبا مع الأرض، واتضح هذا الانطباع مع مرور كل ثانية. أمكننى الآن أن أميز بين الحدود الخارجية للقارات بعينى المجردة. شابت الغلاف الجوى على صفاءه خضرة شاحبة تتحول من وقت لآخر إلى اللون الأصفر، يشبه سماءنا فى إقليم 'بروفانس' عند الغروب. ولون المحيط أزرق فاتح مشوب أيضا بخضرة. اختلف شكل الساحل كلية عن أى شىء رأيته فى بلادى، ومع هذا فإن عينىّ المحمومتين، اللتين تعودتا على عقد الكثير من المقارنات، أصرتا فى جنون على تمييز أوجه التشابه حتى فى مثل هذه الحالة. لكن إلى هنا واختفت أوجه الشبه، لم تكن تضاريس هذا الكوكب تشبه لا العالم القديم ولا العالم الجديد فى شىء.

لا شىء ؟ دعك من هذا! فعلى النقيض من ذلك قد توفر العنصر الجوهرى! كان الكوكب مأهولا.

حلقّنا فوق بلدة: بلدة كبيرة، طرقها تلمع تحفها الأشجار وتسير عبرها المركبات. تسنى لدى وقت كى أتبين النمط العام للعمارة: شوارع عريضة وبيوت بيضاء مصفوفة فى خطوط طويلة.

لكننا قد قررنا أن نهبط فى نقطة بعيدة جدا عما كنا نراه. ومررنا أثناء طيراننا أولا على حقول مزروعة ثم فوق غابة كثيفة خمرية اللون أعادت إلى ذاكرتنا الأدغال الاستوائية. أصبحنا نطير الآن على ارتفاع منخفض جدا. ولمحنا منطقة واسعة خالية من الأشجار على قمة هضبة، ومحاطة بأرض غير مستوية. قرر قائدنا أن نحاول الهبوط هناك وأصدر تعليماته النهائية للروبوتات بذلك. وبدأت منظومة الصواريخ الكابحة فى العمل. حلقنا بدون حركة للحظة أواثنتين فوق المنطقة الخلاء، مثل نورس لمح سمكة.

ثم، وبعد أن انقضى عامان على مغادرتنا الأرض، هبطنا فى خفة بدون هزة واحدة وسط الهضبة على عشب أخضر ذكرنى بمروجنا فى منطقة 'نورماندى'.

(٤)

ساد الصمت والسكون بيننا مدة طويلة عقب هبوطنا على أرض هذا الكوكب. ربما يبدو سلوكنا مدهشا، ولكننا شعرنا بالحاجة إلى استعادة حواسنا وتركيز طاقتنا. لقد أطلقنا لنخوض مغامرة أعجب ألف مرة من مغامرة الملاحين الأرضيين الأوائل وكنا نعد أنفسنا لمواجهة غرائب السفر ما بين النجوم التى ألهبت خيال أجيال من الشعراء.

أما الآن، وبمناسبة الحديث عن الغرائب، فإن هبوطنا حدث بدون أى عثرة على عشب كوكب احتوى، مثل كوكبنا، على محيطات وجبال وغابات وحقول مزروعة وبلدات وبالتأكيد سكان. ومع هذا لابد أن نكون بعيدين عن المناطق المتحضرة، إذا ما وضعنا فى الاعتبار مساحات الأدغال الممتدة التى حلقنا فوقها قبل هبوطنا.

وأفقنا فى نهاية الأمر من حلم اليقظة. وفتحنا فى حذر كوة واحدة فى زورقنا بعد أن ارتدينا بزات الغوص. لم يصدر الهواء هسيسا. تطابق الضغط خارج الزورق وداخله. وأحاطت الغابة بالمنطقة الخالية مثل أسوار حصن. لم يصدر صوت أو حركة تبدد السكون. كانت درجة الحرارة مرتفعة ولكن محتملة حيث بلغت ٧٧ درجة فهرنهايت.

تسلقنا خارجين من الزورق يرافقنا هكتور. وأصر البروفيسور أنتل ابتداء على تحليل الغلاف الجوى بوسيلة أكثر تحديدا. كانت النتيجة مشجعة: احتوى الهواء على نفس مكوناته على الأرض مع بعض اختلافات فى نسب الغازات النادرة. كان الهواء صالحا للتنفس بكل تأكيد. ومع هذا فلكى نكون متأكدين تماما، جربناه على الشمبانزى. وبدا القرد سعيدا للغاية بعد أن خلعنا من عليه

البزة ولا أثر عليه لأى ضيق. كما بدا مبتهجا أيما ابتهاج بعد أن وجد نفسه حرا وعلى أرض. وأخذ يثب ويقفز مرحا ثم فر إلى الغابة واعتلى شجرة واستمر فى قفزاته من فرع لآخر. وأخذ يبعد أكثر فأكثر وفى النهاية اختفى، متجاهلا إيماءاتنا وصيحاتنا.

وتمكنا من التحدث فى يسر بعد أن خلعنا بزاتنا. وأجفلنا لدى سماع أصواتنا وغامرنا ونحن مخلوعو الفؤاد بأن نخطو خطوة أواثنتين مع عدم الابتعاد كثيرا عن زورقنا.

لم يكن هناك مجال للشك فى أننا هبطنا على كوكب توأم لكوكب الأرض. كانت هناك حياة. وفى واقع الأمر، كان عالم الخضرة مورق شديد الإيراق: بعض الأشجار بلغت مائة وخمسين قدما طولا.

وكشفت مملكة الحيوان عن نفسها فى صورة طيور سوداء ضخمة تحوم فى السماء كالعقبان وأخرى أصغر تشبه الببغاوات الصغيرة تطارد بعضها وهى تزقزق بصوت حاد. وعرفنا مما رأيناه قبل هبوطنا أن الحضارة قائمة أيضا. وشكلت كائنات عاقلة - لم نجسر على أن نسميها بالبشر بعد - سطح الكوكب. ومع هذا فإن الغابة التى تحيط بنا من كل جانب بدت غير مأهولة. ولم يكن هذا بالشىء المدهش؛ فإذا ما هبطنا بشكل عشوائى فى بقعة ما فى الأدغال الآسيوية، كان سيساورنا نفس انطباع العزلة.

قبل أن نخطو المزيد من الخطى، شعرنا بفكرة إطلاق اسم على هذا الكوكب تلح علينا. وعمدّناه باسم "سورور * بسبب تشابهه مع كوكب الأرض.

ودخلنا الغابة بعد أن قررنا القيام بعملية استطلاع أولية بدون إبطاء، واتبعنا خلالها ما يشبه طريقا طبيعيا. وتسلحنا أنا وآرتور لوفان ببنادق آلية أما البروفيسور فكان يتهكم على استخدام الأسلحة المادية.

وشعرنا بخفة فى أقدامنا ونحن نسير فى رشاقة: ليس معنى ذلك أن وزننا كان أخف مما كان عليه على الأرض - ومرة أخرى اكتمل التشابه - لكن الفارق

* سورور كلمة لاتينية تعنى أخت

يكمن فى أن قوة الجاذبية على السفينة كانت تدفعنا إلى التعثر مثل عنزات صغيرة.

سرنا فى طابور وأخذنا ننادى كل حين على هكتور، لكن دون جدوى، وفجأة توقف لوفان الذى تولى قيادتنا وأومأ إلينا أن نرهف السمع. ما كان ممكنا سماعه هو همس يشبه خرير الماء من على مسافة بعيدة وأخذنا نمضى فى هذا الاتجاه وأصبح الصوت أكثر وضوحا.

كان مسقطا مائيا، هزنا جميعا جماله عندما وصلنا إليه وهوعبارة عن تيار صاف مثل سيول الجبال عندنا، يتعرج فوق رؤوسنا، باسطا صفحته على حافة أعلى من مستوى الأرض، ثم يسقط عند أقدامنا من على ارتفاع عدة أمتار فيما يشبه بحيرة، على شكل مسبح تحفه صخور اختلطت برمال عكس سطحها ضوء منكب الجوزاء الذى أضحى فى ذروته عندئذ.

وشكّل منظر المياه إغراء بحيث سيطر علينا أنا ولوفان نفس الهاجس فى ظل اشتداد درجة الحرارة الآن. خلعنا ملابسنا واستعددنا للغوص فى البحيرة. لكن البروفيسور أنتل نصحنا بالتحلى بقدر أكبر من الحصافة عند ارتياد نظام منكب الجوزاء للمرة الأولى. ربما لا يكون هذا السائل ماء بالمرة ومن المحتمل أن يكون خطيرا للغاية. وذهب إلى حافة الماء وانحنى واختبره ثم وضع، فى حذر، اصبعه. وأخيرا اغترف بعضا منه فى راحة يده وشمها وبلل طرف لسانه وتمتم "إنه لا يمكن إلا أن يكون ماء".

وانحنى ثانية ليغمر يده فى البحيرة عندما رأيناه يتصلب فجأة. وصدرت عنه إيماءة تنم عن اندهاش كبير وأشار نحو شيء استطاع تبينه فى الرمل. وأشهد أن ما رأيته لحظتها يعد أعنف شعور خالجنى فى حياتى. هناك تحت أشعة منكب الجوزاء الحارقة، التى ملأت السماء فوق رؤوسنا مثل منطاد أحمر بالغ الضخامة، ظهرت أمامنا جميعا أثر قدم بشرية محددة بشكل بديع على قطعة من الرمل الرطب.

(٥)

أعلن آرتور لوفان "إنه أثر قدم امرأة".

لم تدهشني البتة هذه الملاحظة القاطعة، التي صدرت من صوت مخنوق. فقد وافقت رأيي. اتسم أثر القدم بنحافة وروعة وجمال متفرد وهزني هذا جميعا من الأعماق. ولم يكن هناك شك في آدمية هذه القدم. ربما كانت تخص مراهقة أو رجلا ضئيلا، لكن على الأرجح – وتمنيت ذلك من صميم فؤادي – أنها لامرأة.

وتمتم البروفيسور أنتل "إذن إن كوكب 'سورور' يسكنه البشر".

لاحت لمحة من خيبة الأمل في صوته وجعلتني في هذه اللحظة أكثر ميلا للابتعاد عنه. هز كتفيه في إيماءة كانت من لزماته وانضم إلينا في فحص الرمل المحيط بالبحيرة. اكتشفنا آثار أقدام أخرى من الواضح أنها لنفس الكائن. ولفت لوفان، الذي ابتعد عن حافة الماء، انتباهنا إلى أثر آخر موجود على الرمال الجافة. كان الأثر ذاته رطبا.

هتف الشاب قائلا "كانت هنا منذ أقل خمس دقائق تسبح وفرت عندما سمعت خطو أقدامنا".

دار المعنى الضمني لحديثنا حول إمرأة. وخيم علينا الصمت وأخذنا نمسح الغابة بأبصارنا ولكن بدون سماع أدنى صوت حتى انكسار فرع شجرة.

قال البروفيسور وهويهز كتفيه مرة أخرى "نحن لدينا الوقت كل الوقت، لكن إذا كان شخص آدمي قد سبح هنا، فنحن بلا شك نستطيع أن نفعل مثله بدون التعرض للخطر".

وبلا مزيد من الجدل خلع العالم العلامة ملابسه واندفع بجسمه النحيل ليغطس في البحيرة. وجعلتنا متعة السباحة في هذا الماء البارد والمنعش بعد رحلة طويلة، ننسى تقريبا أحدث اكتشافاتنا. كان لوفان هو الوحيد بيننا الذى بدا منهكا وغارقا فى أفكاره. أوشكت على التفوه بتعليق ساخر على التعبير الكئيب الذى ارتسم على وجهه عندما رأيت المرأة فوق رؤوسنا وهى جاثمة على نتوء صخرى يسقط منه الشلال الصغير .

لا يمكننى أن أنسى الانطباع الذى خلفه ظهورها علىّ. حبست أنفاسى أمام الجمال الآخاذ لهذا الكائن الآتى من 'سورور' والتى كشفت لنا عن نفسها وهى تقطر رذاذ الماء وتنير جسدها أشعة منكب الجوزاء المحمرة بلون الدم. كانت امرأة – بل فتاة صغيرة، إن لم تكن إلهة. وأكدت على الفور أنوثتها فى جرأة فى ضوء هذه الشمس اللعينة وهى تقف عارية تماما بدون أى حلى عدا شعرها الذى انسدل على كتفيها.

صحيح، أننا حرمنا مما يمكن مقارنته بهذا على مدى أكثر من عامين، لكن لم يكن لدى أحد منا ميل للوقوع كضحية لسراب. كان واضحا للعيان أن المرأة، التى وقفت ساكنة على النتوء كتمثال على قاعدة، تمتلك أكثر الأجساد اكتمالا من خلال تصور أهل الأرض. وانحبست أنفاسنا أنا ولوفان، وأخذ الانبهار انتصبت واقفة وهى تميل للأمام ونهداها يندفعان نحونا، وذراعاها مرفوعتان قليلا للوراء على هيئة غوّاص يهم بالغطس، كانت تراقبنا وتماثلت درجة دهشتها مع دهشتنا. بعد أن ظللت أحملق فيها فترة طويلة، انبهرت للحد الذى سلبنى القدرة على التمييز بين أى ملمح معين من ملامحها: جسدها بكامله أنامنى نوما مغناطيسيا. وبدأت بعد مضى عدة دقائق أدرك أنها تنتمى إلى الجنس الأبيض، وأن جلدها استحال ذهبيا وليس برونزيا، وأنها طويلة فى غير إفراط، ونحيفة فى رشاقة. ثم لاحظت، وكأننى فى حلم، وجها ذى نقاء فريد. وأخيرا، نظرت فى عينيها.

وأصبحت بعد ذلك أكثر يقظة، وصار انتباهى أكثر حدة، وتصلبت حيث أن تعبيرها حمل عنصرا جديدا. واستطعت من خلالها أن أميز بوضوح سمة الغرابة والغموض التى يتوقعها كل منا عند وصوله لعالم بعيد كل البعد عن عالمنا. لكننى عجزت عن تحليل أو تعريف طبيعة هذا الغرابة. فقط شعرت بوجود اختلاف جوهرى بين أبناء الجنس البشرى. لم يكن مصدر الاختلاف فى لون العينين: كانتا رماديتين ذواتى بريق ليس من المعتاد وجوده بيننا، لكن ومع هذا ليس غير معروف. ويرجع مصدر خروجهما عن الشائع فيما يبثانه، كأنه نوع من الفراغ، غياب التعبير، ذكرنى بفتاة بائسة عرفتها ذات يوم. لكن كلا! لم يكن جنونا من المستحيل أن يكون جنونا.

وعندما رأت أنها أصبحت محط فضولنا - أولأكون أكثر دقة، عندما التقت عينى بعينها - بدا وكأنها قد تلقت صدمة وفى إيماءة مفاجئة، أزاحت ناظريها عنى بشكل آلى كأنها حيوان أصابه الفزع. لم يكن الدافع وراء رد فعلها ناجما عن شعور بالخجل من أنها تخضع لفحص دقيق. وخامرنى شعور بأنه من قبيل المبالغة افتراض أنها قادرة على أن يخالجها هذا الشعور. لا يعدو الأمر فى بساطة عن أن نظرتها لم ترغب أو لم تقدر على احتمال نظرتى. وبدأت تراقبنا الآن، بعد أن أشاحت بوجهها، بطرف خفى.

وتمتم لوفان قائلا "كما أخبرتكم إنها فتاة".

قالها وصوته تخنقه المشاعر أقرب إلى الهمس لكن الفتاة سمعته وأحدث صوته تأثيرا غريبا عليها.

تراجعت ولكن بشكل خاطف إلى الدرجة التى جعلتنى أقارن حركتها بحركة حيوان مذعور تسمّر قبل أن يولى الأدبار. ومع هذا توقفت بعد أن تراجعت للوراء خطوتين وأخفت الصخور معظم جسدها. لم أستطع أن أتبين سوى قمة رأسها وعين ثبتتها علينا.

لم نجسر على أن نحرك عضلة واحدة، تعذبنا مخاوف من أن تندفع بعيدا عنا. وبدأ سلوكنا يطمئنها.

وبعد لحظة خطت ثانية نحو الحافة. لكن لوفان الشاب صار منتشيا إلى الحد الذى عجز معه أن يمسك لسانه.

وبدأ حديثه قائلا "لم يحدث فى حياتى ... "

وتوقف بعد أن أدرك عدم كياسته فقد تراجعت مثلما حدث من قبل، وكأن الصوت البشرى يفزعها.

ووجهنا البرفيسور أنتل إلى التزام الصمت وأخذ يطرطش حواليه فى الماء ولم يعر الفتاة أى اهتمام.

وتبنينا نفس الحيلة والتى أثمرت تماما، فلم تتقدم نحونا فحسب إنما سرعان ما أظهرت اهتماما منظورا بحركاتنا، اهتمام عبر عن نفسه بأسلوب غير مألوف، مما أثار المزيد من الفضول. هل قدر لك أن تراقب جروا هيابا على الشاطىء بينما صاحبه يسبح ؟ إنه يتوق إلى الانضمام إليه فى الماء ولكن لا يجسر. يقطع ثلاث خطوات فى هذا الاتجاه ثم ثلاث فى اتجاه آخر، يمشى بعيدا، يهرول راجعا، يهز رأسه ثم يخدش الأرض بيده. وجاء سلوك الفتاة مطابقا لما ذكرت.

وفجأة سمعنا الفتاة لكن الأصوات التى صدرت منها لم تكن إلا لتؤكد الانطباع بحيوانيتها الذى خلّفه فى البدء سلوكها. ووقفت فى ذلك الحين عند أقصى طرف مجثمها وكأنها على وشك أن ترمى بنفسها فى البحيرة. وقطعت نوع الرقصة التى كانت تؤديها. وفغرت فاها بينما أرقبها من جانب لم تلحظنى منه. ظننت أنها ستتكلم، ستطلق صرخة. وتوقعت صياحا. تهيأت لأن أسمع أكثر اللغات همجية ولكن ليس لما سمعته من أصوات غريبة كالتى خرجت من حنجرتها؛ وبخاصة ما خرج من حنجرتها لأنه لم يلعب الفم أو اللسان دورا فى هذا المواء أو

الأنين الحاد والعالى والذى بدا فى الوقت ذاته، تعبيرا عن نوبة هياج ناجم عن الابتهاج لدى حيوان. ففى حدائق الحيوان لدينا، يصدر صغار الشمبانزى صيحات صغيرة مشابهة أثناء لعبهم أومصارعة بعضهم بعضا.

وبما أننا، بالرغم من اندهاشنا، ألينا على أنفسنا ألا نعيرها اهتماما بدا أنها اتخذت قرارا. أحنت جسدها على الصخرة وقبضت عليها بيديها وشرعت فى النزول نحونا. كانت خفة حركتها مذهلة. وظهر لنا جسدها الذهبى من خلال سحابة من الرذاذ والضوء مثل رؤيا من عالم الحكايات الخرافية، وهبطت فى سرعة من على سطح الصخرة بمحاذاة النصل الشفاف لشلال الماء. وفى لحظات قليلة تعلقت خلالها بنتوءات لا ترى، أصبحت عند مستوى البحيرة حانية جسدها على حجر مسطح. راقبتنا لثوان أخرى قليلة ثم قفزت فى الماء وسبحت نحونا.

وأدركنا أنها تريد اللعب وبالتالى استمررنا فى لهونا الذى أيدها بمزيد من الثقة، وصرنا نعدل من حركاتنا كلما بدت مفزوعة. سرعان ما انخرطنا جميعا فى لعبة هى التى وضعت قواعدها ويالها من لعبة غريبة فعلا، شبيهة بحركات كلب البحر فى بركة، والتى تعتمد على الفرار والاقتراب منا على التوالى، حيث تنطلق بعيدا عنا عندما تكون فى متناول يدنا ثم تقترب إلى الدرجة التى تكاد تلامسنا فيها ولكن بدون أن يحدث أى اتصال بين أجسادنا وإياها. كان أمرا طفوليا ولكن ما الذى كنا نستطيع أن نفعله كى نروض هذه الحسناء الغريبة! ولاحظت أن البروفيسور شارك فى هذه اللعبة وهولا يكتم متعته.

وظللنا نلهو لبعض الوقت إلى أن انقطعت أنفاسنا وعندئذ أدهشتنى الطبيعة المتناقضة للتعبير المرتسم على الفتاة وهو الصرامة، فها هى تستمتع بشكل واضح من الألعاب التى ألهمتنا إياها ومع هذا لم تظهر ابتسامة على وجهها. وداخلنى شعور غامض بعدم الارتياح لبعض الوقت دون أن أعرف ماهيته على وجه الدقة. وشعرت بالارتياح الآن عندما اكتشفت السبب وهو أنها لم تضحك أو

تبتسم بينما كل حين وآخر تطلق صيحة من تلك الصيحات الصغيرة بصوت أجش والتى عبرت بجلاء عن رضائها.

قررت أن أجرى تجربة، عند اقترابها منى وهى تشق الماء بطريقة فريدة تشبه الكلب وشعرها ينساب خلفها مثل ذيل المذنب، صوبت نظرى إلى عينيها وقبل أن تشيح برأسها فى اتجاه آخر سددت لها على قدر استطاعتى ابتسامة ملؤها الود والعاطفة.

جاءت النتيجة مذهلة فقد توقفت عن السباحة وهبت واقفة فى الماء، الذى بلغ مستوى خصرها، ورفعت يديها فى إيماءة استعداد للدفاع عن النفس، ثم أدارت لى ظهرها وجرت نحو الشاطىء. وندت عنها نصف التفاته وهى خارج الماء ونظرت لى شزرا، مثلما فعلت عند الحافة، وسيطرت عليها حالة الذعر التى تسيطر على حيوان رأى فى التو شيئا صاعقا. ربما بدأت فى استعادة ثقتها ثانية بعد أن تجمدت الابتسامة على شفتىّ وواصلت العوم من جديد فى براءة لكن وقعت حادثة جددت شعورها بالذعر.

سمعنا ضجيجا فى الغابة وقفز من غصن إلى غصن، هاهو صديقنا هكتور صار فى مرآنا وهبط واقفا وهرول نحونا فى سعادة بالغة بالعثور علينا. اندهشت أيما دهشة من التعبير الوحشى المركب من الفزع والخطر الوشيك الذى ارتسم على وجه الفتاة عندما رأت القرد. تراجعت واحتضنت الصخور حتى كأنها ذابت فيها، وتوترت كل عضلة فى جسدها، وتقوس ظهرها، وانقبض كفاها مثل المخالب. حدث كل هذا بسبب شمبانزى صغير لطيف على وشك أن يحيينا!

وأثناء اللحظة التى مر بها ولم يلحظها، وثبت وجسدها مشدود كقوس وانقضت على رقبته وأحكمت يديها حول عنقه وهى ممسكة بالكائن الضعيف بين فخذيها. كان هجوما خاطفا لدرجة أنه لم يسمح لنا بالتدخل. وبالكاد حاول القرد المقاومة وتصلب جسده لثوان قليلة ثم سقط صريعا عندما خلّت سبيله.

هذا المخلوق البالغ الروعة الذى عمدته فى شطحة رومانسية باسم "نوفا" حيث عجزت عن مقارنة هيئتها سوى بتلك الخاصة بنجم برّاق - نوفا هذه خنقت بيديها العاريتين حيوانا أليفا غير مؤذ.

عندما أفقنا من الصدمة اندفعنا نحو هكتور ولكن سبق السيف العذل. والتفتت نحونا وكأنها تدافع عن نفسها حيث رفعت ذراعيها مرة أخرى وزمّت شفتيها إلى الخلف فى وضع تهديد جعلنا جميعا نتسمّر. ثم أطلقت صيحة أخيرة حادة عالية ويمكن تفسيرها بأنها صيحة انتصار أو غضب عارم وفرت نحو الغابة.

وفى ثوان قليلة اختفت وغطى نبات الأرض جسدها الذهبى تاركا إيانا مبهوتين وسط الأدغال يلفنا الصمت من جديد.

(٦)

قلت "أنثى متوحشة تنتمي إلى جنس متخلف مثل الذى عثروا عليه فى غينيا الجديدة أو فى غاباتنا الأفريقية ؟"

لم أكن أعنى أيا مما تفوهت به. وسألنى أرتور لوفان فى عنف ما إذا كنت رأيت مخلوقا بهذا اللطف والجاذبية ورشاقة في الملامح بين أبناء القبائل البدائية. كان على صواب مائة مرة وحرت جوابا. ومع أن البروفيسور كان غارقا فى التفكير إلا أنه أصغى إلى حديثنا.

وفى نهاية الأمر قال "إن معظم الشعوب البدائية على كوكبنا لها لغة، هذه الفتاة لا تستطيع التكلم".

بحثنا عن هذا الكائن الغريب حول المنطقة المحيطة بالتبع. ولكن عندما عجزنا عن العثور على أية أثر ولو ضئيلا عدنا إلى قارب الانطلاق فى المنطقة الخلاء. فكّر البروفيسور فى الإقلاع به ثانية لنحاول الهبوط به فى موقع أكثر تحضرا ولكن لوفان اقترح أن نتوقف حيثما كنا على الأقل لمدة أربع وعشرين ساعة لنحاول الاتصال بسكان الأدغال. وأيدته فى هذا الاقتراح والذى ساد فى نهاية الأمر. لم نجسر على الاعتراف لبعضنا البعض بأن الأمل فى رؤية الفتاة مرة أخرى هو الذى شدّنا إلى المنطقة.

مرت فترة بعض الظهيرة بلا حادثة ولكن مع هبوط المساء وبعد أن أبدينا إعجابنا بالمنظر الرائع لمنكب الجوزاء الذى ملأ الأفق على نحو يفوق مخيلة كل البشر ساورنا شعور بوقوع تغييرات على المنطقة المحيطة بنا. أخذت الأدغال تدب

فيها الحياة تدريجيا وتناهت إلى أسماعنا أصوات حفيف وطقطقة متلصصة وشعرنا أن عيونا غير مرئية تتجسس علينا عبر أوراق الشجر. وقضينا ليلة لم يحدث بها ما يجدر ذكره ومع هذا اتخذنا القارب متراسا وتناوبنا الحراسة.

وفى الفجر شعرنا بنفس الشعور وهيىء إلى أننى سمعت نفس الصيحات الحادة الصغيرة التى أطلقتها نوفا فى اليوم السابق. لكن لم يظهر أى من مخلوقات الغابة التى تصورها خيالنا المحموم.

وقررنا أن نعود إلى الشلال، وطوال الطريق سيطر علينا هاجس مثبط أننا متبوعون ومراقبون من جانب مخلوقات لم تجسر أن تظهر نفسها. ومع هذا، فقد أبدت نوفا فى اليوم السابق رغبتها فى الاقتراب منا.

وفجأة قال لوفان "ربما تكون ملابسنا هى التى تفزعهم منا".

وبدا هذا التفسير هو الأكثر رجاحة. وتذكرت بوضوح أنه عند فرار نوفا عقب خنق قردنا وجدت نفسها أمام كومة ملابسنا فوثبت من أمامها على الفور لتتفاداها مثل جواد وجل.

"سنرى عما قريب".

وكررنا ما فعلناه فى اليوم السابق بعد أن خلعنا ملابسنا وغصنا فى البحيرة متناسين ظاهريا كل ما يحيط بنا.

وأثمرت الحيلة مرة ثانية فبعد لحظات معدودة لاحظنا الفتاة عند الحافة الصخرية بدون أن نسمع صوت قدومها. لم تكن بمفردها فبجانبها وقف رجل هيئته كهيئتنا، يشبه رجال كوكب الأرض، رجل فى أواسط العمر عار تماما أيضا. وتشابهت ملامحه مع إلهتنا حتى حسبته أخاها. كان يراقبنا مثلها بمزيج من الدهشة والقلق.

وكان هناك آخرون كثيرون ولاحظناهم رويدا رويدا بينما نحن نجبر أنفسنا

على تصنع اللامبالاة.

وأخذوا يزحفون خفية من الغابة حتى كونوا دائرة كاملة حول البحيرة. كانوا جميعا مفتولى العضلات، عينات بشرية لا تخلومن وسامة، رجال ونساء ذوو جلد ذهبى ينظرون الآن فى توجس وقلق ومن الواضح أنهم سقطوا فريسة فى براثن استثارة هائلة وأخذوا يطلقون صيحات حادة بشكل متقطع.

وشعرنا بالقلق بعد أن طوقونا وتذكرنا حادثة الشمبانزى. ولكن سلوكهم لم ينذر بتهديد إنما بدا لنا أنهم مهتمون بما نفعل.

وكما توقعت فقد انزلقت نوفا التى كنت أعدها الآن معرفة قديمة فى الماء وتبعها الآخرون واحدا تلو الآخر بدرجات متفاوتة من التردد. واقتربوا جميعهم منا وبدأوا فى مطاردة بعضهم البعض بأسلوب كلاب البحر مثلما فعلنا فى اليوم السابق ولكن الاختلاف كمن فى أن عشرة أو يزيد من هذه المخلوقات الغريبة أحاطوا بنا وهم يرشون بعضهم بالماء ويلعبون وعلى وجوههم نفس التعبير الصارم الذى يتناقض بشكل صارخ مع هذا المرح الطفولى.

بعد مضى نصف ساعة، بدأت أشعر بالتعب. هل قطعنا كل هذه المسافة عبر المجرات إلى عالم منكب الجوزاء لنلعب مثل أطفال المدارس؟ شعرت بالخجل من نفسى وتضايقت من أن العلامة أنتل بدا مستمتعا للغاية بهذه اللعبة. لكن ما الذى يمكننا أن نفعله خلاف ذلك؟ من العسير تخيل صعوبة الاتصال بهذه المخلوقات التى تجهل الكلمة المنطوقة أو الضحك. ومع هذا بذلت قصارى جهدى فى هذا الشأن. تحركت بضع حركات تمنيت أن تنقل بعض المعنى. شددت على يدى مبديا أقصى ما استطعت من الود وأنا انحنى مثل الصينيين وبعثت لهم بقبلات فى الهواء. ولم تحرك كل هذه الإيماءات ساكنا فيهم، ولم يظهر فى أعينهم بريق إدراك.

كلما تناقشنا خلال رحلتنا عن لقائنا فى نهاية المطاف بكائنات حية كان التصور الذى تكونه عين الخيال هو مخلوقات بشعة مشوهة تختلف هيئتها عن هيئتنا اختلافا بينا ولكنا دائما نتخيل ضمنيا وجود عقل بداخلهم. أما على سطح كوكب سورور بدت الحقيقة على النقيض من ذلك: تعين علينا التعامل مع سكان يشبهوننا من كل الجوانب البدنية ولكنهم خلو بالمرة من ملكة العقل. هذا هو فعلا مضمون التعبير الذى وجدته مزعجا جدا فى نوفا ورأيته فى الباقين كلهم: الافتقار للتفكير الواعى؛ غياب الذكاء.

لم يشغل اهتمامهم سوى اللعب وحتى فى هذا الإطار يجب أن تكون اللعبة بسيطة للغاية! وقرر ثلاثتنا إدخال فكرة تضفى على اللعبة مظهر أكثر ترابطا وهو أن نشبّك أيادينا والماء يصل إلى وسطنا وندور فى شكل دائرة رافعين أذرعنا مثلما يفعل الأطفال الصغار. ولم يتجاوب مع الفكرة أحد حتى على أدنى مستوى وابتعد معظمهم عنا وحملق فينا بعضهم بنظرة فارغة من الإدراك أفحمتنا.

كان حجم فزعنا هوالذى أدى إلى بروز المأساة. فقد اندهشنا أيما دهشة من أننا بوصفنا ثلاثة بالغين، أحدنا شخص مشهور على مستوى العالم، نمسك بأيادى بعضنا البعض ونؤدى رقصة طفولية تحت عين منكب الجوزاء الساخرة بحيث لم نعد نستطيع أن نكتم ضحكنا. لقد كبحنا أنفسنا لمدة ربع ساعة وكنا بحاجة إلى بعض ترويح. وسيطرت علينا نوبات من الضحك الجنونى والمنفلت.

وأيقظ هذا الانفجار فى الضحك، فى نهاية الأمر، مشاهدينا لكن لم يخرج منهم بالقطع نوع الاستجابة المرجوة منا. واجتاح البحيرة نوع من العاصفة تمثلت فى اندفاعهم خارجين من البحيرة فى جميع الاتجاهات فى حالة من الرعب الذى كان يمكن، فى ظروف مغايرة، أن يصيبنا بالضحك. وخلال بضع لحظات، وجدنا أنفسنا بمفردنا فى الماء. وانتهى بهم الحال إلى أن تجمعوا سويا عند الضفة ذات الحافة المطلة على البحيرة فى كتلة مرتعدة يصيحون صيحاتهم الصغيرة

الغاضبة ويفردون أذرعهم إزاءنا فى حنق. أنذرتنا إيماءاتهم بتهديد عنيف إلى الدرجة التى جعلتنى ولوفان نتحسس أسلحتنا ولكن أنتل الحكيم همس لنا ألا نستخدمها بل ألا نشهرها أصلا طالما أنهم لم يقتربوا منا.

وارتدينا ملابسنا على عجل دون أن نبعد أعيننا عنهم ولكن ما أن لبسنا سراويلنا حتى تصاعد توترهم إلى هيجان عاصف. وبدا أن مظهر الرجال وهم مرتدين ملابسهم غير محتمل بالنسبة لهم. وأطلق بعضهم ، ساقيه للريح بينما تقدم نحونا البعض الآخر وهم يفردون أذرعهم وينشبون أياديهم كمخالب فى الهواء.

أشهرت مسدسى، ويا للمفارقة، بدا أن هؤلاء القوم المتبلدين قادرون على فهم معنى هذه الإيماءة وولّوا الأدبار واختفوا بين الأشجار.

وأطلقنا ساقينا للريح لاستعادة سيطرتنا على القارب. وفى طريق عودتنا أحسست بوجودهم مع أنهم غير مرئيين ويتابعون انسحابنا فى صمت.

(٧)

شنوا هجوما مباغتا بمجرد وصولنا إلى المنطقة الخلاء سلبنا كل سبيل للدفاع؛ فقد قفزوا من وراء الأحراش مثل ذكور الأيائل وأحاط بنا رجال سورور قبل أن نرفع أسلحتنا حتى لمستوى أكتافنا.

والمثير أن هذا العدوان لم يكن موجها نحو أشخاصنا بالتحديد. وخمنت هذا على الفور وسرعان ما تأكد صدق حدسى. لم أشعر مطلقا بخطر الموت محدقا مثلما حدث مع هكتور. لم يكن إنهاء حياتنا هو هدفهم إنما كانوا وراء ملابسنا وكل الإكسسوارات التى نحملها. وفى لحظة تغلبوا علينا وامتدت كتلة من الأيادى الفاحصة لتجردنا من الأسلحة وأجربة الذخيرة وتلقيها جانبا بينما انهمك آخرون فى تجريدنا من ملابسنا وتمزيقها أشلاء. وما أن أدركت ما استثار غضبهم استسلمت فى غير مقاومة وبالرغم من أننى أصبت ببضعة خدوش إلا أننى لم أصب بجروح خطيرة. وحذا أنتل ولوفان حذوى وبعد قليل وجدنا أنفسنا عرايا وسط مجموعة من الرجال والنساء الذين اطمأنوا من مرآنا فى هذه الحالة وتحلّقوا حولنا راقصين وأحاطوا بنا إحاطة السوار بالمعصم على نحو لم يسمح لنا بالإفلات.

وصل عددهم الآن ما لا يقل عن مائة على حافة المنطقة الخلاء وانقض من فى أقصى طرف الدائرة على قاربنا بغضب عارم مماثل للذى أظهروه حين مزّقوا ملابسنا أشلاء.

وبالرغم من اليأس الذى شعرت به وأنا أراهم يخرّبون وسيلة انتقالنا الثمينة،

تأملت سلوكهم وهيىء إلى أننى توصلت إلى مبدأ عام وهو أن هذه المخلوقات تستثار إلى درجة الغضب العارم من الأشياء. إن الأشياء المصنعة تثير غضبهم وخوفهم. وعندما يستولون على أداة فإنها تبقى فى أيديهم المدة اللازمة فقط لكسرها أوتمزيقها أوليّها ثم يقذفونها فورا إلى أبعد نقطة ممكنة كأنها جمرة مشتعلة ثم يلتقطونها من جديد ليخرّبوها تماما. ودفعنى هذا إلى أن أفكر فى حالة قط يتصارع مع جرذ كبير خائر القوى لكن ما يزال يشكل خطرا أو نمس اصطاد ثعبانا. وذكرت آنفا ملاحظة أنهم هاجمونا بدون سلاح واحد ولا حتى العصى.

شهدنا ونحن عاجزين تخريب قاربنا الذى انفتح بابه أمام ضرباتهم واندفعوا إلى الداخل ودمروا كل شئ قابل للتدمير وبخاصة أجهزة الملاحة القيمة وبعثروا الشظايا. واستغرقت عملية التخريب وقتا طويلا، ثم تركوا الجسم المعدنى للقارب الذى ظل على حاله وعادوا إلى مجموعتنا. ودفعونا وجذبونا فى كل اتجاه وفى النهاية سحبونا إلى أعماق الغابة.

وأصبح الموقف مزعجا بصورة متزايدة فقد جردونا من السلاح والملابس وأجبرونا على السير بإيقاع سريع جدا وعجزنا عن تبادل انطباعاتنا أو حتى التشكى. وكانت أدنى محاولة للتحادث تستثير ردود فعل مهددة حتى أننا آلينا على أنفسنا أن نتجرع الصمت الأليم. ومع هذا فهذه الكائنات يعدون بشرا مثلنا، إن هؤلاء إذا ما لبسوا وانتعلوا بالكاد كانوا سيثيرون الانتباه فى عالمنا. كل نسائهن حسناوات ومع هذا لا تستطيع إحداهن أن تنافس نوفا روعة.

وتبعتنا السالف ذكرها عن قرب. وفى مناسبات كثيرة، عندما يدفعنى حراسى ألتفت إليها استعطف منها نظرة شفقة، هيىء إلى ذات مرة أننى لمحتها على وجهها. لكن أحسب أن هذا مجرد ظنون. وحالما تتلاقى نظراتنا تتحاشى استمرارها دون أن تعبر عيناها عن أى عاطفة سوى الدهشة الشديدة.

واستغرق هذا العذاب النفسى عدة ساعات. غلبنى الإنهاك ونزفت ساقاى وغطت الخدوش جسدى من جراء المشى على البوص والذى مر رجال سوورور عبرها ببراعة مثل الثعابين. لم يكن رفقائى أفضل منى حالا فقد تعثر أنتل فى كل خطوة يخطوها عندما وصلنا إلى نهاية مسيرتنا. تضاءلت كثافة الخضرة فى هذا الموضع من الغابة واختفت الشجيرات النامية لتتحول إلى حشائش قصيرة. وأطلق الحراس سراحنا هنا وبدون أن يعنيهم أمرنا أخذوا يرقصون من جديد ويطاردون بعضهم البعض عبر الأشجار وهو ما بدا أنه يشكل انشغالهم الرئيسى. وتهاوينا على الأرض والخدر يسيطر على أوصالنا من الإنهاك الشديد وانتهزنا فرصة هذه الاستراحة للتشاور.

احتاج الأمر من قائدنا كل ما أوتى من فلسفة وحكمة كى ينتشلنا من السقوط فى بئر القنوط التام. أخذ الليل يهبط وتسنت لنا دون شك فرصة الهروب مستغلين اللامبالاة السائدة ولكن ماذا بعد ؟ فحتى لو استطعنا تعقب آثارنا لاستحال علينا استخدام القارب. وبدا من الفطنة أن نبقى حيث نحن ونحاول استمالة هذه الكائنات المحيرة. علاوة على ذلك، كنا على شفا الموت جوعا.

انتصبنا واقفين وخطونا خطوات هيابة. كانوا مستمرين فى ألعابهم البليدة دون أن يبالوا بأى شىء آخر.

فقط نوفا هى الوحيدة التى لم تنسنا وتبعتنا من على مسافة ودائما ما كانت تدير رأسها بعيدا عندما ننظر إليها. واكتشفنا بعد تجول عشوائى أننا فى مكان أشبه بمخيم حيث لا تصلح تسمية أماكن الإيواء فيه بأكواخ إنما هى هياكل تشبه الأعشاش كتلك التى تبنيها القردة الكبيرة فى غاباتنا الأفريقية وهى عبارة عن أغصان قليلة متشابكة بلا رابط موضوعة على الأرض أو مثبتة بين أفرع الشجيرات. وقد شغلت بعض هذه الأعشاش حيث تمدد الرجال والنساء - لا أستطيع كيف أن أصفهم على نحو مغاير - عادة فى شكل ثنائيات مستغرقين فى

النوم وهم مستكنين سويا مثلما يفعل الكلاب أثناء البرودة. وشغلت أماكن إيواء أخرى أكبر عائلات بأكملها ولاحظنا داخلها وجود عدة أطفال فى غاية الوسامة وتمام العافية.

ولم يوفر أى من هذا حلا لمشكلتنا الغذائية. وأخيرا وجدنا تحت شجرة أسرة تستعد للأكل ولكن وجبتهم ما كانت لتغرينا، فقد عكفوا على تمزيق حيوان كبير يشبه الغزالة بدون الاستعانة بأدوات الأكل.

واستخدموا أظفارهم وأسنانهم فى تمزيق قطع اللحم النيىء وسرعان ما التهموها بعد إزالة قطع صغيرة من الجلد من عليها. لم تكن هناك آثار لموقد فى هذه الناحية. وقضى هذا المنظر على شهيتنا وعلى أية حال أدركنا مع اقترابنا أكثر أننا غير مرحب بنا فى مشاركتهم بل على العكس من ذلك! فقد صدرت عنهم زمجرة غاضبة دفعتنا للابتعاد سريعا.

وجاءت نوفا لإنقاذنا. هل فعلت ذلك بعد أن أدركت أخيرا أننا جوعى ؟ هل يمكن أن تكون لديها القدرة حقا على أن تفهم أى شىء؟ أم تراها أدركت كل ذلك لأنها هى نفسها كانت جائعة؟ وعلى أى حال، فقد اعتلت شجرة كبيرة وأحاطت جذع الشجرة بفخذيها وتسلقت الفروع واختفت وسط الخضرة. وما هى إلا لحظات حتى رأينا وابلا من الفاكهة التى تشبه الموز يتساقط على الأرض. ثم هبطت على الأرض والتقطت واحدة أو اثنتين وبدأت تأكلها بدون أن ترفع ناظريها عنا. وتجرأنا بعد لحظة تردد وأخذنا نقلدها. كانت الفاكهة جيدة وملأنا بطوننا منها بينما ظلت نوفا تراقبنا دون اعتراض.

وقررنا قضاء الليلة هنا بعد أن شربنا من مجرى مائى.

اختار كل منا ركنا على الحشائش ليبنى عليه عشه مماثلا للآخرين فى المستعمرة. وأبدت نوفا بعض الاهتمام بما نعمل إلى الدرجة التى اقتربت فيها

منى وبدأت مساعدتى فى كسر فرع عصى.

تأثرت بهذه المجاملة والتى رآها الشاب لوفان مستفزة حتى أنه رقد على الفور ودفن نفسه فى الحشائش وأدار ظهره لنا. أما البروفيسور أنتل فقد راح فى سبات عميق بعد أن أنهكه التعب.

استغرقت بعض الوقت لأنتهى من إعداد فراشى تحت رقابة مشددة من نوفا التى ابتعدت إلى حد ما.

عندما رقدت ظلت ساكنة لمدة دقيقة أو اثنتين كأنها عجزت عن حزم أمرها ثم خطت خطوات مترددة نحوى. لم أحرك ساكنا كى لا أخيفها. رقدت بجانبى ولم أحرك ساكنا أيضا. وفى النهاية استكنت تجاهى ولم يكن هناك ما يميزنا عن الثنائيات الأخرى التى شغلت أعشاش هذه القبيلة الغريبة. وعلى الرغم من أنها فتاة رائعة الجمال إلا إننى لم أكن أعتبرها امرأة فسلوكها كان سلوك حيوان أليف يسعى للدفء بالقرب من سيده. قدرت الدفء المنبعث من جسدها دون أن يخطر ببالى قط أن يشتهيها عقلى. وانتهى بى الأمر أن غلبنى النعاس وأنا فى هذا الوضع الشاذ، خائر القوى من الإنهاك، ملتصق بهذا الكائن غريب الجمال والذى لا يحمل عقلا، وقبلها ألقيت نظرة خاطفة على قمر سورور ، الذى يصغر قمرنا، وهو ملقيا ضوءا مائلا للصفرة على الأدغال.

(٨)

أخذ لون السماء فى الشحوب عبر الأشجار عندما استيقظت. كانت نوفا لاتزال نائمة. راقبتها فى صمت وتنهدت أثر تذكرى قسوتها إزاء قردنا البائس. ومن المرجح أنها كانت السبب وراء تعاستنا عن طريق لفت انتباه رفاقها إلينا. ولكن كيف يتأتى للمرء أن يدينها عندما يواجه كمال جسدها؟

فجأة تحركت ورفعت رأسها. ومر بريق خوف فى عينيها وشعرت أن كل عضلاتها انقبضت. ونتيجة لسكونى التام بدأ وجهها يسترخى تدريجيا. لقد تذكرت؛ تمكنت للمرة الأولى من تحمل تفرسى فيها للحظة. واعتبرت هذا انتصارا شخصيا وذهبت إلى أبعد من ذلك وهو الابتسام لها ثانية، ناسيا رد فعلها إزاء هذا التعبير الأرضى.

اتسم رد فعلها هذه المرة بأنه أقل حدة. ارتعشت وتخشب جسمها مرة أخرى كأنما على وشك الهرب ولكنها بقيت مكانها. وتشجعت وابتسمت ابتسامة أعرض. ارتجفت من جديد إلا أنها هدأت فى نهاية الأمر وسرعان ما عاد وجهها إلى التعبير عن لا شىء سوى الدهشة العميقة. هل ترانى نجحت فى ترويضها؟

وتجرأت أكثر ووضعت يدى على كتفها. سرت رعدة فى جسدها ومع هذا لم تتحرك. وأسكرتنى نشوة هذا النجاح وزادت عندما ظننت أنها تحاول تقليدى.

كنت على حق فهى حاولت أن تبتسم. شعرت بمدى الجهود المضنية التى بذلتها لتجعل عضلات وجهها الرقيق تتغضن. حاولت عدة مرات وتمكنت فقط من لى عضلات وجهها فى وضع مؤلم. كان الأمر مؤثرا بصورة هائلة حيث تبذل هذه

الآدمية جهدا مفرطا لإخراج تعبير يومى ومع هذا فالنتيجة مثيرة للشفقة.

وشعرت فجأة بأننى منفعل بشدة يملؤنى الحنان وكأننى إزاء طفل كسيح. زدت من ضغطى على كتفها. وقربت وجهى من وجهها. وردت على هذا بأن حكت أنفها بأنفى ثم مررت لسانها على خدى.

اندهشت وترددت وناشدت السلامة وقلّدتها بطريقتى الخرقاء. ومع كل ذلك، كنت أنا زائرا أجنبيا والأمر مفوض إلىّ فى تبنى عادات نظام منكب الجوزاء الكبير. وبدت مرتاحة. وهذا هو كل ما قطعناه فى محاولاتنا للاتصال ولست متأكدا تماما من كيفية الاستمرار، وخائفا من ارتكاب حماقة كبيرة بسبب سلوكياتى الأرضية عندما دوى ضجيج مفزع جعلنا ننهض مفزوعين.

ووجدت نفسى ورفيقاى، اللذين أنستنيهما أنانيتى، واقفين منتصبين والفجر يوشك أن يطلع.

وهبّت نوفا واقفة أسرع منا وأظهرت أقصى علامات على الفزع. وفهمت على الفور أن هذه الضوضاء ليست مفاجأة مزعجة لنا وحدنا إنما لكل سكان الغابة، فقد غادر جميعهم أعشاشهم وشرعوا يجرون يمنة ويسرة فى رعب. لم تكن هذه لعبة كالتى لعبوها فى اليوم السابق؛ صيحاتهم عبرت عن رهبة حقيقية.

كان الضجيج الذى بدد الصمت بغتة فى الغابة كافيا ليجعل الدم يتجمد فى العروق لكنى شعرت إلى جانب هذا أن رجال الأدغال على علم بما سيحدث عما قريب وأن خوفهم نابع من اقتراب خطر محدد.

وشكّل الضجيج أصواتا متنافرة، مزيج من أصوات جلجلة مثل دق الطبول وأصوات أخرى نشاز تشبه قرقعة أوان وأوعية وصيحات أيضا. كان للصيحات أكبر الأثر فى نفوسنا فبالرغم من أنها لم تكن تنتمى إلى لغة مألوفة لنا إلا أنه لا مراء فى أنها بشرية.

وكشف ضوء الصبح عن مشهد غريب: رجال ونساء وأطفال يجرون فى كل اتجاه يمرون ويصطدمون ببعضهم البعض بل تسلق البعض الآخر الأشجار كمأوى آمن. وسرعان ما أرهف الشيوخ السمع وأنصتوا.

وأخذت الضجة تقترب فى بطء. وأتت من المنطقة التى تكثر فيها الأشجار فى الغابة وبدا أنها منبعثة من طابور طويل غير منقطع. وقارنتها بالضجة الصادرة عن مطاردى القنص لإخراجه من مخابئه فى رحلة من رحلات الصيد عندنا.

بدا أن شيوخ القبيلة قد اتخذوا قرارا. وأصدروا سلسلة من الصيحات على شاكلة عواء والتى من دون شك تعتبر إشارات أو أوامر ثم اندفعوا فى الاتجاه المعاكس لمصدر الضجيج. وتبعهم الباقون ورأيناهم يركضون من حولنا مثل قطيع الغزلان. ونوفا أيضا كانت ستطلق لساقيها العنان لكنها تريثت بغتة ودارت حولنا - وشعرت أنها تخصنى أنا بهذا التصرف قبل أى شخص آخر. وأطلقت نشيجا ممزوجا بالأنين والتى اعتبرتها دعوة لأن أتبعها ثم قفزت قفزة واختفت.

تعالت الضوضاء وهيىء إلى أننى سمعت أصوات انقصاف سيقان النباتات الطويلة تحت وطأة أقدام ثقيلة. أعترف بأننى فقدت رباطة جأشى. دفعنى الحذر إلى أن ألزم مكانى وأواجه القادمين الذين أضحيت متأكدا مع مرور كل ثانية أنهم ينطقون صيحات بشرية. ولكن بعد العذاب الذى تعرضت له فى اليوم السابق، أوهنت هذه الجلبة عزيمتى. وأصابتنى عدوى الذعر من نوفا والآخرين. لم أتوقف للتفكير بل إننى لم أتريث للتشاور مع رفيقىّ إنما اندفعت وسط النباتات الطويلة وأطلقت لساقاى العنان متتبعا وقع خطوات الفتاة الصغيرة.

جريت بأسرع ما يمكننى لعدة أمتار وعجزت عن اللحاق بها وأدركت أن لوفان هو وحده الذى تمكن من أن يتبعنى بينما منع سن البرفيسور أنتل من المشاركة فى هذا الهروب العاجل. كان لوفان يلهث بجانبى. نظرنا إلى بعضنا البعض ونحن على خجل من سلوكنا وكنت على وشك أن أقترح الرجوع من حيث أتينا أو على

الأقل انتظار قائدنا عندما جعلتنا أصوات ضجيج جديدة ننتفض فزعا.

وبالنسبة إلى هذه الأصوات، لا يمكن أن أكون على خطأ فهي لدوى طلقات بندقية فى أرجاء الأدغال: طلقة، اثنتان، ثلاثة ثم عدة طلقات على فترات متقطعة وفى بعض الأحيان طلقة واحدة وفى أحيان أخرى، طلقتان متتاليتان، تذكرك ويا للغرابة ببندقية ذات ماسورتين. كانوا يطلقون النار أمامنا، فى الطريق الذى سلكه الهاربون. وبينما نحن متوقفون اقترب الصف الذى أحدث الضجة الأولى، اقترب صف مطاردى القنص أكثر فأكثر باثا الرعب فى نفوسنا مرة أخرى. لا أدرى لماذا اعتبرت دوى الطلقات أقل تخويفا بل أكثر ألفة من هذه الضوضاء الجهنمية. واستأنفت، بشكل غريزى، هروبى المتهور ومع هذا حرصت على أن أكون مستترا وأحدث أقل جلبة ممكنة. وتبعنى رفيقى.

ووصلنا إلى المنطقة التى سمعت فيها دوى الطلقات. أبطأت وزحفت للأمام، تقريبا على أربع. تسلقت بصعوبة ربوة صغيرة، ولوفان يتبعنى، وتوقفت لالتقط أنفاسى على قمتها. لم يكن أمامى شىء سوى بضع شجرات وستار من الشجيرات الكثيفة. تقدمت بحذر ورأسى مع مستوى الأرض. وهناك رقدت للحظة أواثنتين كأن ضربة قوية طرحتنى أرضا حيث فاق المشهد قدرتى البشرية المتواضعة على الفهم.

(٩)

كانت توجد عدة ملامح متنافرة فى المشهد الذى ترأى أمام ناظرى، بعضها مفزع لكن جل انتباهى انصب فى بادىء الأمر على جسم وقف ساكنا على بعد ثلاثين خطوة وهو يحدق اتجاهى.

كدت أصرخ عاليا من الدهشة. نعم بالرغم من الرعب الذى استولى على، وبالرغم من المأساة التى وقعت فى براثنها - فقد صرت محصورا بين مطاردى القنص والبنادق - أخذنى الذهول كل مأخذ عندما رأيت هذا المخلوق الذى وقف يراقب المكان، ينتظر ظهور فريسة. كان واحدا من القردة، غوريلا كبيرة الحجم. كان من العبث أن أردد لنفسى أننى فقدت عقلى. لم يساورنى شك بشأن نوع الكائن الذى ينتمى إليه هذا المخلوق. لكن مقابلة غوريلا على كوكب سورور لا تمثل تصورى الأساسى عن غرابة الموقف. وتكمن الغرابة حقيقة فى أن هذا القرد كان يرتدى ملابسه على الوجه الأمثل على نحو مطابق لرجل يعيش فى عالمنا وقبل كل هذا أنه ارتدى ملابسه فى أريحية كاملة. ما صعقنى منذ البداية هو هذا المنحى الطبيعى فى سلوكه. وسرعان ما تكشف لى أنه ليس متنكرا بأى شكل من الأشكال.

وكانت الحالة التى رأيته عليها حالة عادية مثلما حالة العرى حالة عادية بالنسبة إلى نوفا ورفاقها.

كان يرتدى ملابسه مثلى ومثلك، أعنى بمثلى ومثلك إذا كنا مشاركين فى عمليات إفزاع الحيوانات البرية خلال رحلات الصيد الرسمية التى تنظم للسفراء

أو الشخصيات الأخرى البارزة. وبدت الجاكيت ذات اللون البنى الغامق أنها قد خاطها أمهر الخياطين فى باريس وكشفت تحتها عن قميص ذى نقش من المربعات يماثل الذى يرتديه الرياضيون عندنا، وبنطلون ركوب الخيل منفتح قليلا أعلى بطن الساق وينتهى بغطاء من الجلد. وإلى هنا انتهى وجه الشبه، وبدلا من الحذاء ذى الرقبة الطويلة انتعل زوجين من القفازات السوداء الكبيرة.

أؤكد لكم إنها غوريلا! من ياقة قميصه برز الرأس البشع وقمته الشبيه بقمع سكر مغطى بالشعر الأسود والأنف المفلطح، الفكين البارزين. وهاهو يقف مائلا قليلا إلى الأمام فى وضع الصياد الذى يترقب ظهور الفريسة، يمسك ببندقية فى يديه الطويلتين. وقف قبالتى على الجانب الآخر عند الثغرة الكبيرة المفصولة عن الأدغال عند زاوية قائمة فى اتجاه مطاردة الفرائس.

وفجأة تصلب فقد لاحظ مثلى صوتا خافتا فى الأحراش يقع إلى اليمين منى قليلا. ودار حول نفسه وفى الوقت ذاته رفع بندقيته وهويهم بوضعها على كتفه. وتمكنت من موقعى أن أرى الأخدود الذى خلفه أحد الهاربين الذى كان يجرى على غير هدى إلى الأمام. كدت أن أصرخ محذرا إياه بعد أن باتت نية القرد واضحة. ولكن لم أكن أملك الوقت ولا القدرة فالرجل كان يعدو مثل ماعز جبلى عبر الأرض المفتوحة. ودوت الطلقة بينما هو فى منتصف الطريق عبر مرمى النيران. وقفز قفزة فى الهواء ثم هوى على كومة فى الأرض ورقد بعد بضعة تشنجات بلا حركة.

ولكن اكتشفت بعد فترة قصيرة أن الضحية مازالت تعانى سكرات الموت بينما انصب انتباهى على الغوريلا. ورصدت كل التغيرات التى طرأت على تعبيرات وجهه منذ أن انتبه إلى مصدر الصوت، ولاحظت عدة حقائق مدهشة: أولا قسوة الصياد فى الإيقاع بفريسته واللذة المحمومة التى حصل عليها من هذا اللهو؛ لكن قبل كل هذا الشكل الإنسانى لتعبيره - فى عينى هذا الحيوان رأيت شرارة الإدراك الذى ظللت أبحث عنه عبثا بين رجال سورور.

وسرعان ما أفاقنى إدراكى لوضعى من غيبوبتى. جعلتنى الطلقة أحيل نظرى ثانية إلى الضحية وشهدت فى فزع اختلاجاته الأخيرة ثم لاحظت وأنا مرعوب أن المنطقة الخالية من الأشجار مليئة بجثث البشر. لم يعد من الممكن أن أخدع نفسى بشأن مغزى هذا المشهد. لمحت غوريلا أخرى مثل الأولى على بعد مائة خطوة. وشهدت عملية إفزاع الفرائس - ويا ويلتاه كنت جزءا من العملية! - عملية هائلة اصطفت خلالها البنادق على أكتاف القرود على مسافات منتظمة والبشر هم الطرائد، بشر مثلى، رجال ونساء عرايا، أجسادهم مثقوبة وممدة على الأرض فى أوضاع بشعة يتلوون والألم يعتصرهم وينزفون.

أشحت بوجهى عن هذا الرعب الذى لا يحتمل. وفضلت منظر البشاعة البحتة وعدت أحملق فى الغوريلا الذى يقطع علىّ الطريق للممر. وخطا خطوة فى ناحية أخرى كاشفا عن قرد آخر يقف بجانبه مثلما يقف الخادم بجانب سيده. كان شمبانزى صغير الحجم، شمبانزى شاب، بدا لى أنه شمبانزى، أقسم على ذلك، يرتدى ملابس أقل أناقة من الغوريلا، بنطلون وقميص، يؤدى دوره فى سلاسة داخل تنظيم دقيق بدأت أميز ملامحه. أعطى الصياد البندقية للشمبانزى الذى ناوله أخرى فى التو فى يده ثم فى إيماءة محددة حشا الشمبانزى البندقية بطلقات، مثبتة فى حزام يتمنطق به، لمعت فى إشعاعات منكب الجوزاء ثم عاد كل منهما إلى موقعه.

استغرقت كل هذه الانطباعات بضع دقائق فقط. وددت لو أنه أتيح لى أن أفكر مليا فى هذه الاكتشافات وأحللها؛ لم يكن هناك لدى وقت. أصاب الفزع أرتور لوفان، الراقد بجانبى، بالخدر وصار عاجزا عن تقديم يد المساعدة فى أدنى صورها. ومع كل ثانية يتزايد الخطر فمطاردو القنص يقتربون من خلفنا والضوضاء الصادرة عنهم الآن تصم الآذان. سيطرت علينا حالة اضطراب مثل حيوانات البرية، مثل هذه الكائنات البائسة التى مازلت أراها تمر حولنا. لابد أن حجم المستعمرة أكبر مما توقعت لأن الكثير من الرجال مازالوا يندفعون بطول الممر ليلقوا ميتة بشعة.

ليس كلهم، على أية حال، يلقون نفس المصير. أجبرت نفسى على استعادة القليل من رباطة الجأش ومن قمة ربوتى الصغيرة درست سلوك الهاربين. اندفع بعضهم، أولئك الذين استولى عليهم الرعب بالكامل، إلى الأمام وهم يقصفون سيقان نباتات طويلة وينبهون بالتالى القردة فيردونهم قتلى فى يسر.

لكن هناك آخرين أثبتوا أنهم أكثر دهاء مثل خنازير برية تعلمت بعض الجيل بعد إفلاتها من محاولات صيدها عدة مرات. وهؤلاء يزحفون على أربع ويتوقفون برهة على حافة المنطقة الخلاء ويدرسون أقرب صياد عبر أوراق الشجر وينتظرون اللحظة التى يتحول فيها انتباهه صوب ناحية أخرى، ثم يثبون وثبة واحدة وهم يجرون بأقصى سرعة عابرين ممر الموت. ونتيجة لذلك، أفلح العديد منهم فى الوصول إلى الجانب الآخر سالمين، واختفوا فى الغابة.

ربما لاحت فرصة النجاة من خلال هذا الطريق. أشرت إلىّ لوفان أن يتبعنى وانزلقت دون إحداث صوت وتقدمت حتى وصلت إلى آخر أحراش أمام الممر. وها أنذا تجتاحنى عقبة سخيفة وهى هل يجب على كرجل أن ألجأ إلى هذه الحيل للتغلب على مجرد قرد؟ من المؤكد إن السلوك الوحيد الذى يليق بوضعى هو أن أقف منتصبا وأتقدم نحوالحيوان وأعطيه طريحة ؟ وبددت الضوضاء المتصاعدة خلفى هذه النزعة المجنونة من رأسى كلية.

قاربت عملية الصيد على الانتهاء وسط ضجيج جهنمى، حيث أخذ مطاردو القنص يتعقبونا. ورأيت واحدا منهم يظهر من بين الخضرة. كانت غوريلا هائلة الحجم وقد تدلت من جانبه هراوة وأطلق صرخة حادة تكاد تمزق رئتيه. وخلّف داخلى فزعا أكبر من الذى تركه الصياد حامل البندقية. وصار لوفين يهذى من الخوف ويرتعد من قمة رأسه حتى أخمص قدميه بينما ظللت مركزا ناظرى على هذا القادم الواقف أمامى متحينا الفرصة المناسبة.

وأنقذ رفيقى التعس حياتى بتهوره دون أن يدرى، فقد جن جنونه حيث نهض

دون أن يأخذ حذره وشرع يجرى بشكل عشوائى وظهر مكشوفا بالكامل أمام مرمى نيران الصياد. لم يذهب إلى أبعد من هذا. بدا وكأن الطلقة شطرته إلى نصفين وخر ساقطا وانضم جسده إلى بقية الأجساد الملقاة هناك. لم أضيع وقتا فى البكاء عليه - ماذا بوسعى أن أفعله من أجله؟ - ولكن انتظرت كالمحموم مجىء اللحظة التى يعطى فيها الغوريلا بندقيته لخادمه. وبمجرد أن فعل ذلك، وثبت عبر الممر. رأيت الصياد، وكأننى فى حلم، يسرع بالإمساك بسلاحه ولكنى كنت قد احتميت قبل أن يرفعه إلى كتفه. وسمعت صيحة تعجب تشبه سبابا ولم يكن عندى وقت للتفكير فى أحدث العجائب هذه.

تغلبت عليه. شعرت بنوع غريب من اللذة التى وقعت فى نفسى موقع مثل البلسم لإحساسى بالمهانة.

واستمررت فى الجرى بأقصى سرعة تاركا هذه المذبحة ورائى حتى لم أعد أسمع ضجيج مطاردى القنص. لقد نجوت.

نجوت! يبدو أننى استهنت بحجم خبث القردة على كوكب سورور. ما كدت أقطع مائة متر حتى تعثر رأسى أولا فى عائق تخفيه الخضرة وهو شبكة واسعة الثقوب منصوبة فوق الأرض ومزودة بجيوب كبيرة وتعلقت فى إحداها الآن. لم أكن الأسير الوحيد، فقد غطت الشبكة قطاعا كبيرا من الغابة وتعلق بها حشد من الهاربين الذين نجوا من إطلاق النار عليهم وأوقعوا أنفسهم فيها مثلما فعلت. وشهدت عن يمينى وشمالى انتفاضات مفاجئة مصحوبة بأنين حانق من جانب المتعلقين فى محاولة للفكاك.

اجتاحتنى ثورة غضب، عندما شعرت أننى مسجون على هذا النحو، غضب أقوى من الرعب شل تفكيرى بالكامل. فعلت عكس ما نصحنى به عقلى - حاولت التملص بطريقة من أصابهم جنون مطبق ونجم عن هذا أن الشبكة أطبقت على بشكل أكثر إحكاما. وصرت فى نهاية الأمر مقيدا إلى الدرجة التى عجزت فيها عن التحرك على الإطلاق وتحت رحمة القردة الذين سمعت اقتراب خطواتهم.

(١٠)

انتابنى فزع مميت عندما رأيت جماعة منهم تتقدم نحونا وبعد أن شهدت قسوتهم، ظننتهم سينخرطون فى تنفيذ مذبحة بالجملة.

وتقدم الصيادون، وكلهم من الغوريلا، المسيرة. ولاحظت أنهم تركوا أسلحتهم مما منحنى بعض الأمل. ومن ورائهم جاء من يتولون حشو البنادق ومطاردو القنص وتساوى بينهم عدد الغوريلا والشمبانزى. وبدا أن الغوريلا هم السادة وسلوكهم كان سلوك الأرستقراطيين. كما بدا أنهم ليسوا متكبرين إنما تحادثوا بكل البشاشة التى يتطلع إليها المرء. . .

فى واقع الأمر، بدأت اعتاد على التناقضات فى هذا الكوكب حتى أننى كتبت هذه الجملة الأخيرة على الرغم مما تمثله من سخف. ومع هذا، فهذه هى الحقيقة! لقد جسّدت الغوريلا تصرفات الأرستقراطيين. كانوا يتجاذبون أطراف الحديث سويا بلغة واضحة مخارج حروفها، وفى كل لحظة تعبّر وجوههم عن عواطف بشرية، بلا أى أثر مما وجدته فى نوفا. وأسفاه! ما الذى حدث لنوفا؟ ارتجفت إذ تذكرت المر الملطخ بالدماء. الآن فقط فهمت شعورها لدى ظهور الشمبانزى الخاص بنا. توجد عداوة شديدة بين السلالتين. ولإدراك هذه الحقيقة على المرء أن يشاهد سلوك الرجال الأسرى عند اقتراب القردة. بدأوا يقاومون فى هياج شديد، يقلّبون أياديهم وأرجلهم، يجزون على أسنانهم، يرغون ويزبدون ويقرضون فى غضب عارم خيوط الشبكة.

وبدون أن يلقوا بالا لهذه الجلبة، أصدر الصيادون من الغوريلا – ضبطت

نفسى متلبسا بإطلاقى عليهم لقب النبلاء - أوامرهم لخدمهم. اصطفت عربات كبيرة ذات سقوف منخفضة وأقفاص ضيقة للغاية على الجانب الآخر من الشبكة. وشحنا فى هذه العربات، كل عشرة أو نحو ذلك فى عربة واستغرقت هذه العملية وقتا مطولا لأن المساجين استماتوا فى محاولة الفكاك. وأمسك اثنان من الخدم الغوريلا، وأياديهم محفوظة فى قفازات جلدية لتحميها من العض، بالمساجين ليحرروهم واحدا تلو الآخر من الفخ ثم يلقوا بهم فى الأقفاص التى تغلق أبوابها بإحكام بينما يدير النبلاء المشهد وهم متكئون على عكاكيزهم بلا اكتراث.

وعندما جاء دورى، حاولت إثارة انتباههم إلىّ عن طريق التحدث. ولكن ما أن فتحت فمى حتى تصور أحد القردة خطأ أننى أمثل تهديدا، فغطى وجهى بقفازه الضخم. أكرهت على الصمت وألقونى كحزمة داخل القفص سويا مع دستة من الرجال والنساء الذين مازالوا فى حالة تهيج شديد ليلتفتوا إلىّ.

عندما عبئونا جميعا، فحص أحد الخدم القفل وذهب ليخبر سيده الذى أعطاه إشارة، وتصاعد هدير المحركات ودوى فى الغابة. وشرعت العربات فى التحرك للأمام وكل منها يجره محراث يقوده أحد القردة. تمكنت بصعوبة من رؤية سائق المحراث خلف عربتنا، كان شمبانزى، وبين الحين والآخر يطلق التعليقات الساخرة علينا. وسمعته حين أبطأت المحركات يدندن بلحن قصير حزين لم يخل من تناغم.

كانت المرحلة الأولى من الرحلة قصيرة حتى أننى بالكاد استعدت حواسى. وبعد أن ظلت القافلة تسير لمدة ربع ساعة فى طريق وعر توقفت أمام منزل مبنى من الحجر يقع على حافة الغابة وخلفه رأيت سهلا مغطى بالمحاصيل الشبيهة بالحبوب.

وتشابه المنزل بسقفه ذى القرميد الأحمر ومصاريعه الخضراء والكتابة المحفورة على لوح خشبى على المدخل مع الحانة. وأدركت على الفور أن هذا

المكان هو الملتقى بعد الصيد. وانتظرت إناث القردة رفاقهم من اللوردات والسادة الذين وصلوا فى هذه اللحظة فى سيارات خاصة عبر نفس الطريق الذى سلكناه. وجلست سيدات الغوريلا الراقيات على مقاعد ذات مساند يتجاذبن أطراف الحديث تحت ظلال بعض الأشجار الكبيرة التى تشبه النخيل. وكانت إحداهن ترشف مشروبا باستخدام شفاطة.

وما أن اصطفت العربات بعد وصولها حتى اقتربت الإناث منها فى فضول لمشاهدة حصاد الصيد وبخاصة الطرائد التى قتلت، وحفظها بعض الغوريلا بمآزر وأخرجوها الآن من عربتى نقل كبيرتين لعرضها فى ظلال الأشجار.

كان المشهد مشهد صيد كلاسيكى. وعمل القردة هنا أيضا بشكل منهجى حيث وضعوا الجثث النازفة على ظهورها جنبا إلى جنب فى صف طويل كأنه محدد بخط من الطباشير. وشغلت إناث القردة أنفسهن، بعد أن صحن صيحة إعجاب صغيرة، بجعل الطرائد تبدو أكثر جاذبية. فأخذن يشددن الأذرع إلى أسفل ويفتحن الأيدى بحيث تتجه الكفوف إلى أعلى ويفردن أرجل الجثث ويسوين المفاصل كى يسبغن على كل جسد هيئة بعيدة عن هيئة الجثث ويقوّمن طرف معوج على نحو أخرق ويقللن من تصلب رقبة.

وأعقبن ذلك بفرد الشعور إلى أسفل وبخاصة شعور النساء مثلما يفرد بعض الصيادين فروة أو ريش حيوان قتلوه توا ببنادقهم.

أخشى أن أكون عاجزا عن نقل بشاعة المنظر وطبيعته الشيطانية التى تعرضت لها نفسى. هل أكدت على الملامح القردية المطلقة والكاملة لهذه القرود باستثناء التعبير الذى يظهر فى أعينهم؟ هل وصفت كيف أن إناث الغوريلا اللائى ارتدين ملابس رياضية، ولكن فى وقار مهيب، تزاحمن لرؤية أفضل عينات الصيد وهن يهنئن رفقائهم من اللوردات والسادة ؟ هل ذكرت أن إحداهن أخرجت مقصا من حقيبتها وقصت خصلة من شعر بنىّ وكورتها حول إصبعها، وسرعان ما حذت

الباقيات حذوها، ثم شبكتها فى قبعتها؟ وأوشك استعراض الطرائد على نهايته: وضعت الأجساد فى صفوف بعناية، الرجال والنساء على التوالى وأظهرت النساء صدورا ذهبية فى أشعة كرة اللهب بالغة الضخامة فى السماء. ولاحظت وأنا أشيح بوجهى مجىء شخص جديد يحمل صندوقا مستطيلا. وعلى الفور تعرفت فيه على المصور الذى يصنع سجلا مصورا من هذه الغنائم التذكارية للأجيال القردية القادمة. واستمرت الجلسة أكثر من ربع ساعة، صور خلالها الغوريلا كل بمفرده، فى وقفات جيدة، ووضع بعضهم أقدامه على إحدى ضحاياه وهو ممتلئ زهوا؛ ثم كمجموعة مترابطة حيث وضع كل منهم ذراعه على كتف الآخر. والتقطت صورا لإناث الغوريلا بدورهن وقد اتخذت كل منهن وقفة رشيقة أمام الذبائح وقبعاتهن المزينة بارزة فى المقدمة.

كان هذا المشهد مشبعا بالرعب إلى درجة يتعذر استيعابها بالنسبة للعقل العادى. بدأت دمائى تغلى فى عروقى وتمالكت أعصابى بعد حين. ومع هذا، فحينما نظرت إلى جسد جلست عليه إحدى الإناث لالتقاط صورة مثيرة ودققت النظر فى وجه الجثة الممدة بين الأخريات تعرفت على الملامح الصبيانية، بل الشبيهة بالأطفال، لرفيقى التعس آرتور لوفان، لم أعد قادرا على احتواء ذاتى. وتفجرت مشاعرى بأسلوب شديد الغرابة يتوافق مع السمت البشع لهذا المشهد الذى تقشعر منه الأبدان. وسمحت لنفسى بالانخراط فى نوبة من المرح الجامح، فى شكل ضحك هيستيرى.

لم أفكر فى رفاقى فى القفص، فقد أصيب تفكيرى بالشلل الكامل! ذكرتنى الجلبة التى تسبب فيها ضحكى بقربهم منى والذى من دون شك يمثل علىّ خطرا لا يقل عن خطر القردة. وامتدت نحوى الأيادى مهددة. وأدركت حجم المخاطرة وكتمت ضحكى عن طريق دفن رأسى فى ذراعى. ومع هذا، لست متأكدا إذا كان يجب على تفادى أن أختنق أو أمزق اربا اربا إذا ما انزعج أحد القردة من

الضوضاء وأراد استعادة النظام بتسديد بضع طعنات بشوكة حديدية. وعلاوة على ذلك، وقع حدث آخر سرعان ما شتت الانتباه العام حين بدأ الغوريلا فى توزيع أنفسهم فى مجموعات واتجهوا نحو المنزل يتحادثون سويا فى بهجة بينما أخذ المصور يجمع أجهزته بعد أن التقط بضع صور لأقفاصنا.

أما بالنسبة لنا نحن البشر، فلم ينسونا. لم أدر ما المصير الذى يخبئه لنا القردة ولكن من الواضح أن سياستهم هى العناية بنا. وقبل أن يغيب أحد النبلاء داخل الحانة أصدر تعليماته لغوريلا بدا أنه قائد المجموعة الذى جاء ناحيتنا وجمع مرؤسيه وبعد قليل جاء الخدم يحملون إلينا شيئا يؤكل فى أحواض وبعض الدلاء المملوءة بالماء للشرب. وتكون الطعام من شىء يشبه العصيدة. لم أكن جائعا ولكنى صممت على أن آكل للحفاظ على قوتى. واقتربت من أحد المواعين التى جلس حولها عدة مساجين القرفصاء. فعلت مثلما فعلوا ومددت يدا هيابة وحدّجونى بنظرة قاسية، ولكن لأن كمية الطعام وفيرة لم يمنعونى. كان الطعام حبوبا مهروسة ذات مذاق غير سيىء وابتلعت ما ملأ يدى عدة مرات بلا امتعاض.

وأصبحت قائمة طعامنا غنية بفضل نوايا حراسنا الطيبة. الآن وبعد أن انتهى الصيد، اتضح أن مطاردى القنص، الذين طالما أفزعونى، أقل سوءا مما حسبت مادمنا نحسن السلوك. وأخذوا يروحون ويجيئون أمام الأقفاص ويلقوا لنا بثمار فاكهة كل حين وآخر متلذذين للغاية من رؤية التدافع الذى لم تفشل هذه المنح البتة فى إيقافه. بل إننى رأيت مشهدا أثار تأملى. التقطت صبية صغيرة ثمرة فاكهة فى الهواء.

عندما انقض عليها جار لها لينتزع منها الثمرة، فامتشق أحد الغوريلا شوكة حديدية ونخسه بها عبر القضبان بأقصى ما أوتى من قوة ثم وضع ثمرة فاكهة أخرى فى يد نفس الطفلة. وهكذا، أدركت أن هذه الكائنات قادرة على الشفقة.

بعدما انتهت الوجبة شرع قائد المجموعة ومساعدوه فى إعادة ترتيب القافلة

عن طريق نقل بعض الأسرى من قفص إلى آخر. وبدا أنهم ينفذون نوعا من الانتقاء ولم أدر على أى أساس. ووجدت نفسى ضمن مجموعة من الرجال والنساء شديدى الوسامة. حاولت إقناع نفسى بأن مرجع ذلك إلى أننا كنا الأكثر جذبا للانتباه، مستمدا نوعا من العزاء المرير من فكرة أن القردة قد ارتأوا من الوهلة الأولى أننى جدير بإدراجى ضمن الصفوة.

اندهشت وغمرتنى السعادة أن رأيت نوفا من بين رفاقى الجدد. لقد نجت من المذبحة وحمدت سماء منكب الجوزاء . احتلت هى وحدها ذهنى وأنا أفحص الضحايا فى مثابرة شديدة وأخشى أن أراها فى أى لحظة ضمن كومة الجثث. وشعرت وكأننى استعدت شخصا عزيزا علىّ وفقدت عقلى مرة أخرى مندفعا نحوها فاتحا ذراعى على اتساعهما. كان نوعا من الجنون المطبق فقد أفزعها سلوكى بالطبع. هل نسيت إذن الحميمية التى عشناها سويا بالأمس؟ هل هذه الهيئة الرائعة لا يحركها أى عقل على الإطلاق؟ أحسست بأنى منكسر الخاطر إذ رأيتها تنكمش عند اقترابى وتمد يديها على شكل مخالب وكأنها ستقذف بى، وهو ما كان من المرجح أن تفعله إذا واصلت. ومع هذا، فحينما راجعت نفسى هدأت نفسها بسرعة كبيرة. وجلست فى أحد أركان القفص وحذوت حذوها وأنا أتنهد. وفعل كل الأسرى مثلما فعلنا. وظهر عليهم الآن فتور الهمة وخوار القوى والاستسلام لمصيرهم.

وفى الخارج، استعد القردة للتحرك بالقافلة وغطوا قفصنا بقماش مشمع وثبتوه فى منتصف المسافة على الجانبين بما يسمح بنفاذ الضوء. وأصدرت الأوامر ودارت المحركات. ووجدتنى أسافر بسرعة كبيرة نحو وجهة مجهولة، وأنا مرعوب من فكرة البشاعات الجديدة التى تنتظرنى على كوكب سورور.

(١١)

كنت فى غاية الإنهاك. لقد أحالتنى إلى حطام تلك الأحداث التى تعرضت لها على مدى اليومين الماضيين وأطاحت بى ذهنيا فى حالة من البلبلة حتى أننى ظللت عاجزا حتى الآن عن البكاء على فقد رفيقّى أو حتى التصور بدقة كل ما يتعلق بى فى تخريب قاربنا. ورحبت فى ارتياح انتصاف الإضاءة ثم العزلة التامة فى ظل ظلام شبه دامس الذى أعقبه لأن الغسق كان قصيرا جدا وظلت العربة تسير طوال الليل. وأضنيت عقلى لاكتشاف بعض الدلالات فيما شهدت من أحداث. احتجت إلى هذا التدريب الذهنى للهروب من اليأس الذى يسكنى، ولأثبت لنفسى أننى رجل، أعنى رجلا من كوكب الأرض، مخلوق قادر على التفكير العقلانى، اعتاد التوصل إلى تفسير منطقى لما يبدو أنه نزوات الطبيعة الخارقة، وليس كوحش يطارده ويصطاده قردة متطورون بصورة هائلة.

راجعت كل ما شاهدت والذى لم أكن عادة غير واع به. وتغلب انطباع عام مجمل: إن هذه القردة، ذكورا وإناثا، غوريلا وشمبانزى، لم يكونوا سخيفين بأى حال من الأحوال. ذكرت فى وقت سابق أنى لم أحسبهم أبدا من الحيوانات المتنكرة، مثل القرود المروّضة التى تعرض فى السيرك عندنا. على كوكب الأرض يرى البعض أن وضع قبعة على رأس أنثى القرد منظرا باعثا على الضحك أما بالنسبة لى فيعد مؤلما. الأمر هنا ليس كذلك، فالرأس والقبعة متوافقان ولا يوجد شىء غير طبيعى البتة بشأن أى من إيماءاتهم هذه. فأنثى القردة ترشف المشروب عبر شفاطة كسيدة من سيدات المجتمع الراقى. كما أننى أتذكر رؤيتى لأحد

الصيادين يخرج غليونا من جيبه ويحشوه تبغا بشكل منهجي ثم يشعله. حسنا لم يصدم حواسي شيء مما فعل، فكل ما فعله اتسم بالطبيعية التامة. اضطررت للتفكير في الأمر لأدرك التناقض.

فكرت باستفاضة في هذا الشأن، وللمرة الأولى منذ وقوعي في الأسر، أسف على اختفاء البروفيسور أنتل.

فمما لا شك فيه أنه بحكمته ومعرفته سيكون قادرا على إيجاد تفسير لهذه التناقضات. ما الذي حدث له ؟

إني متأكد من أنه ليس من بين الضحايا الذين قتلوا. هل صار من بين الأسرى؟ ليس من المستحيل؛ فأنا لم أرهم جميعا. لم أجرؤ على تمنى نجاحه في الحفاظ على حريته.

حاولت بقدراتي المتواضعة على إقامة فرضية ولكنها لم تكن مرضية بالكامل. هل يمكن أن يكون سكان هذا الكوكب، المخلوقات المتحضرة التي رأينا بلداتهم، هل يمكن أن يكونوا قد نجحوا في تدريب القردة لغرس سلوك عقلاني بدرجة أو بأخرى فيهم – هذا، بعد أن أجروا في صبر عملية انتقاء وبذلوا جهودا في هذا الصدد استمرت لأجيال؟ ورغم كل ذلك، يوجد عدد من الشمبانزي الذين تمكنوا من أداء حيل مبهرة. ربما حقيقة أن لديهم لغة ليست بالحقيقة الموغلة في الغرابة مثلما ظننت.

وتذكرت الآن مناقشة دارت بيني وبين متخصص في هذا الشأن. أخبرني أنه يوجد بعض العلماء الجهابذة الذين قضوا جانبا كبيرا من حياتهم في تعليم القردة وما شابه الكلام. وزعموا أنه لا يوجد في تكوين هذه الحيوانات ما يمنعها من التكلم. وبالرغم من كل جهودهم التي راحت هباء إلا أنهم كانوا دءوبين، وأكدوا أن العقبة الوحيدة في هذا الصدد هو أن القرود غير راغبة في التكلم. ربما أثبتوا

ذات يوم أنهم راغبون على الكوكب سورور؟ ومكّن هذا السكان المفترضين من استخدام القرود لتنفيذ بعض العمل الشاق مثل عمليات الصيد الذى أسرت خلاله.

تعلقت باستماتة بهذا التفسير، وانكمشت رعبا من تفسير آخر أكثر بساطة، لأن سلامتى مرتبطة ارتباطا جوهريا بوجود كائنات عاقلة على هذا الكوكب، أى بشر، بشر مثلى أستطيع أن اكشف نفسى لهم.

بشر! إلى أى سلالة، إذن، تنتمى الكائنات التى يقتلها القردة وتأسرهم ؟ هل هم نوع من القبائل المتخلفة ؟ إذا كان الأمر كذلك، فأى وحشية يتسم بها سادة هذا الكوكب ليتحملوا وربما يأمروا بتنفيذ هذه المذابح!

تشتت فكرى إثر زحف جسد نحوى. كانت نوفا. كل المساجين يرقدون فى مجموعات على ألواح الأرضية. وبعد لحظة تردد، استكنت بجوارى مثل الليلة الماضية. ومرة أخرى، حاولت عبثا العثور على لمعة فى عينيها يمكن من خلالها تفسير هذه الإيماءة على أنها فعل يحمل ودا. طوّحت رأسها بعيدا وأغمضت عينيها بعد قليل. ومع هذا، أحسست بالطمأنينة لمجرد وجودها وفى النهاية رحت فى النوم وهى بجانبى، محاولا استبعاد التفكير فى الغد.

(١٢)

نجحت فى النوم حتى انبلاج الصبح عن طريق آلية دفاع ذهنى ضد تطفل الأفكار التى لا تحتمل. ومع هذا، شاب نومى الاضطراب بسبب كوابيس محمومة حلمت بها تمثلت فيها نوفا فى شكل أفعى فظيعة تطوق جسدى. فتحت عينى مع الضوء. وجدتها مستيقظة بالفعل وقد ابتعدت عنى قليلا وأخذت تراقبنى وهى محملقة حملقتها الأبدية.

أبطأت السيارة التى تحملنا ورأيت أننا نهم بدخول بلدة. نهض الأسرى وجلسوا القرفصاء وراء القضبان واختلسوا نظرات خاطفة من أسفل القماش المشمع على مشهد بدا أنه يجدد المشاعر التى عاشوها اليوم السابق. حذوت حذوهم؛ وألصقت وجهى بالقضبان. وللمرة الأولى أرى مدينة متحضرة فى سورور .

كنا نسير فى شارع عريض تحفنا الأرصفة، وفحصت المارة فى لهفة: كانوا من القردة. رأيت تاجرا، أشبه ببائع خضروات، انتهى من فتح مصاريع متجره توا، التفت فى فضول ليراقبنا نمضى، كان من القردة.

حاولت أن أبصر الركاب وسائقى السيارات الذين يمرقون من جانبنا؛ جميعهم يرتدون ملابس مشابهة للتى يلبسها الناس عندنا وكانوا من القردة. صار أملى فى اكتشاف سلالة بشرية متحضرة محض وهم، وقضيت الجزء الأخير من الرحلة

فى يأس مرير. وأبطأت السيارة التى تنقلنا أكثر من ذى قبل. لاحظت أن القافلة افترقت أثناء الليل، لأنها تكونت من سيارتين فقط ومن الواضح أن الآخرين توجهوا وجهة أخرى. وبعد المرور عبر بوابة توقفنا فى ساحة. وطوقنا بعض القردة على الفور . وحاولوا تهدئة التوتر المتصاعد بين الأسرى ببضع ضربات من شوكاتهم الحديدية.

أحاطت الساحة بمبان مكونة من أدوار عديدة لها نوافذ متطابقة الشكل. وتكوّن لدى انطباع عام بأنها مستشفى وتأكد هذا الانطباع عند مجىء أشخاص جدد واقترابهم لمقابلة حراسنا وقد ارتدوا كلهم ثياب وأغطية رأس بيضاء: كانوا من القردة.

كانوا من القردة، كل واحد منهم، إما من الغوريلا أو الشمبانزى. وساعدوا حراسنا فى تفريغ العربات.

واقتادونا إلى خارج الأقفاص، الواحد تلو الآخر، ووضعنا فى أكياس كبيرة وحملنا إلى داخل المبنى.

لم أبد مقاومة وتركت نفسى اسحب من قبل اثنين من الغوريلا يلبسون أبيض. لعدة دقائق، خامرنى إحساس أننا نسير فى ردهة طويلة ونصعد سلما. وفى نهاية المطاف، أفرغت على الأرض؛ ثم ألقيت بعد فتح الكيس فى قفص، كان هذه المرة ثابتا وأرضيته مغطاة بالقش. كنت بمفردى. وأغلق أحد الغوريلا الباب بعناية من الخارج.

احتوت الحجرة التى وجدت نفسى بها على عدد كبير من الأقفاص مماثلة لقفصى، وهى متراصة فى صفين وبينهما ممر كبير. وقد شغلت معظم هذه الأقفاص بالفعل وبعضها من جانب رفاق عملية التطويق والذين جىء بهم إلى هنا وأخرى شغله رجال ونساء لا بد أنهم أسروا فى وقت سابق. وأمكن تمييز

السابقين من حالة الإذعان والخضوع التى سيطرت عليهم. ونظروا إلى الوافدين بروح من عدم الاكتراث، نادرا ما كانوا يرهفون السمع عند صدور أنين متشك. كما لاحظت أن الوافدين وضعوا مثلى فى زنزانات انفرادية بينما حبس قديمى العهد فى ثنائيات. ووضعت أنفى عبر القضبان، ورأيت قفصا أكبر فى نهاية الممر يحتوى على عدد ضخم من الأطفال. وعلى عكس الكبار، أبدى هؤلاء هيجانا شديدا لدى وصول مجموعتنا. وأخذوا يتحركون ويستخدمون أياديهم فى الإشارة ويدفعون بعضهم بعضا ويتظاهرون بهز القضبان وهم يطلقون صيحات صغيرة مثل التى يطلقها صغار القردة حينما يتشاجرون.

عاد ثنائى الغوريلا حاملين كيسا آخر خرجت منه صديقتى نوفا، ومرة أخرى وجدت عزاء فى وضعها داخل القفص المقابل لى. اعترضت على هذه العملية بطريقتها الخاصة أى بالخدش والعض. وعندما أغلق الباب عليها جرت نحوالقضبان محاولة أن تهدمها وهى تجز على أسنانها وتصدر نشيجا يقطع نياط القلوب. وبعد مرور دقائق على هذا السلوك لحتنى فتسمّرت ومدت عنقها قليلا مثل حيوان مأخوذ.

ابتسمت لها نصف ابتسامة فى حذر ولوحت بيدى تلويحا خفيفا الذى، لسعادتى الغامرة، حاولت محاكاته.

تشتت ذهنى إثر عودة ثنائى الغوريلا بستراتهما البيضاء من جديد. كانت عملية التفريغ قد انتهت لأنهما لم يكن يحملان شيئا إنما كانا يدفعان عربة يد محملة بالطعام ودلاء مملوءة بالماء ورّعوها على الأسرى وبالتالى استعادوا النظام بينهم.

وسرعان ما جاء دورى. وفى الوقت الذى تولى فيه أحد ثنائى الغوريلا مهمة الحراسة، دخل الآخر قفصى ووضع أمامى وعاء يحتوى على شىء مهروس وثمرة

فاكهة ودلو. قررت أن أبذل كل ما بوسعى لأقيم اتصال مع هؤلاء القردة الذين بدا أنهم الكائنات الوحيدة العاقلة والمتحضرة على هذا الكوكب.

لم يكن شكل من جاءنى بالطعام عبوسا، والذى حين لاحظ سكينتى ربت على كتفى. نظرت إليه فى عينيه مباشرة ثم وضعت يدى على صدرى وانحنيت له انحناءة رسمية. رأيت اندهاشا عجيبا ارتسم على وجهه وأنا أرفع رأسى. وابتسمت له ثانية ابتسامة مفعمة بالعواطف. وتوقف قبل أن يهم بالانصراف مذهولا وتمتم بصيحة تعجب. أخيرا شعرت أننى نجحت فى جذب الانتباه لشخصى. ورغبت فى تدعيم نجاحى عن طريق إظهار جميع قدراتى. ونطقت بشكل أخرق بأول جملة خطرت على ذهنى وهى: "كيف حالك؟ أنا رجل من الأرض. لقد خضت رحلة طويلة ".

لم يشكل المعنى أى أهمية، احتجت فقط للتكلم كى اكشف عن طبيعتى الحقيقية. وحققت هدفى بالفعل. لم ألاحظ هذا القدر من الذهول على وجه أحد القردة من قبل. وقف مبهوتا ومنقطع الأنفاس وفغر فاه هو وزميله. وأخذا يحادثان بعضهما البعض بصوت خفيض ولكن لم تأت النتيجة حسبما تمنيت.

فبعدما حدّق فىّ فى ارتياب، تراجع خارجا من القفص على عجل وأغلقه بابه بعناية أكبر من ذى قبل.

ونظر كلا الغوريلا للأخر للحظة وانخرطا فى ضحك صاخب. لابد أننى شكلت ظاهرة فريدة لأنهما لم يستطيعا التوقف عن التندر علىّ. بل انهمرت الدموع على وجهيهما حتى أن أحدهما اضطر لوضع الوعاء الذى يحمله ليخرج منديله.

بلغت خيبة الأمل داخلى مبلغا جعلنى أصب جام غضبى فورا وشرعت أهز القضبان وأكشر عن أنيابى وأصب عليهم اللعنات بكل اللغات التى عرفتها. عندما أفرغت سيل السباب استمررت فى إطلاق صرخات غير مترابطة وأسفرت

عن نتيجة واحدة هى أنهما هزا كتفيهما.

ومع هذا، فقد وفقت فى أن أجذب انتباههم إلىّ فقد ظلا يلتفتان لينظرا إلىّ. ورأيت أحدهما، بعد أن هدأت تماما وغلبنى الإنهاك، يخرج مفكرة من جيبه ويدوّن فيها شيئا بعد أن سجل باهتمام علامة كانت محفورة على لافتة أعلى قفصى والتى افترضت أنها رقما.

واختفيا. واستأنف الأسرى الآخرون تناول طعامهم بعد أن استثارتهم مظاهرتى. لم يكن هناك شىء أفعله سوى أن اكل وأستريح انتظارا لفرصة أفضل لأظهر فيها طبيعتى الرفيعة. ازدردت الحبوب المهروسة وثمرة الفاكهة اللذيذة. وفى مواجهتى، ظلت نوفا تتوقف بين الفينة والأخرى عن القضم لتختلس نظرة فى اتجاهى.

(١٣)

دعونا لشأننا باقى اليوم وفى المساء انسحب ثنائى الغوريلا بعد أن أعطونا وجبة أخرى وأطفئوا الأنوار. لم أنم فى هذه الليلة إلا قليلا ليس بسبب عدم راحتى فى القفص - كان سرير القش سميكا ومقبولا - إنما لعجزى عن إيقاف تفكيرى فى البحث عن طرق ووسائل للاتصال بالقردة. عزمت على ألا أفقد أعصابى مرة أخرى إنما انتهز كل فرصة فى صبر وبلا توقف لاستعراض ملكاتى العقلية. ومن المرجح أن الحارسين اللذين تعاملت معهما تابعان من مرتبة دنيا، وعجزا عن تفسير تحركاتى ولكن من المؤكد أنه يوجد قردة أكثر تحضرا.

وفى صباح اليوم التالى، أحسست أن هذا الأمل ليس على غير أساس. كنت مستيقظا منذ ساعة. ويذرع معظم رفاقى أقفاصهم جيئة وذهابا مثلما تفعل الحيوانات الواقعة فى الأسر. عندما أدركت أننى أفعل مثلهم منذ بعض الوقت، شعرت بالخزى وأجبرت نفسى على الجلوس وراء القضبان متمثلا جلسة أقرب ما تكون من سلوك البشر والغارقين فى التفكير. وفى هذه اللحظة، انفتح باب الردهة ورأيت شخصا جديدا يدخل الحجرة يرافقه الحارسان. كانت أنثى شمبانزى وأدركت من أسلوب الغوريلا فى التراجع خطوة للخلف أنها تشغل منصبا مهما فى المؤسسة.

لابد أن الحارسان قدما لها تقريرا بشأنى لأنه بمجرد دخولها وسؤالها أحد

الحارسين حتى أشار بإصبعه نحوى. وجاءت إلى قفصى فى التو.

وراقبتها بعناية وهى تقترب. كانت ترتدى ثوبا أبيض مفصل على نحوأكثر أناقة من الذى يرتديه الغوريلا، فهو ملموم عند الخصر بحزام وله أكمام قصيرة كشفت عن ذراعين رشيقين. وأكثر ما شد انتباهى هو التعبير المرتسم على وجهها الذى عكس يقظة وذكاء. راودنى شعور بأن هذا يبشر بخير بالنسبة إلى علاقتنا. وبدا إلى أنها صغيرة جدا بالرغم من التجاعيد القردية التى وضعت إطارا حول خطمها. وحملت فى يدها حافظة أوراق. توقفت أمام قفصى وبدأت تتفحصنى وفى الوقت نفسه أخرجت دفتر ملاحظات من حافظة الأوراق.

"طاب صباحك يا سيدتى". قلتها وأنا أنحنى.

تحدثت بأرق صوت ممكن. وظهرت على وجه أنثى القردة نظرة اندهاش شديد ولكنها تمكنت من السيطرة على انفعالاتها وبإيماءة أصحاب النفوذ أخرست ثنائى الغوريلا اللذين شرعا فى ضحك خفيف مكتوم.

"سيدة أم آنسة ؟" واستمررت فى التحدث بعد أن تشجعت. "أعتذر على أننى أقدم نفسى إليك وأنا فى مثل هذه الظروف وفى مثل هذه الحالة من التعرى. صدقينى، ليس من عادتى أن ... ".

ومرة أخرى أخذت قول ما عنّ لى من هراء منتقيا فقط الكلمات ذات النغمة المهذبة التى حسمت أمرى بمواصلة النطق بها. وعندما أنهيت حديثى الذى قاطعته برسم أرق الابتسامات على وجهى، تحولت دهشتها إلى وجوم تام. وطرفت عيناها عدة مرات وصارت تجاعيد جبهتها أكثر بروزا. من الواضح أنها حاولت باستماتة إيجاد حل لمشكلة عسيرة. وبادلتنى الابتسام بدورها وتولّد لدى انطباع أنها بدأت تشك فى أن جزءا مما أقول حقيقى.

وخلال هذا المشهد كان الرجال فى أقفاصهم يراقبوننا بدون أن يظهروا الكراهية التى عادة ما يستثيرها صوتى فيهم. كما أظهروا علامات الفضول.

وتوقفوا الواحد تلو الآخر عن المشية المحمومة وألصقوا وجوههم بالقضبان ليتمكنوا من رؤيتنا بشكل أفضل. أما نوفا فكانت حانقة ولم تستطع أن تثبت مكانها.

وأخرجت أنثى القرد قلمها الحبر من جيبها وخطت عدة أسطر فى دفترها، ثم رفعت رأسها وصادفت نظرتى المتلهفة فابتسمت لى مرة ثانية. وشجعنى هذا على أن أتقدم خطوة أخرى. مددت ذراعى من وراء القضبان وتركت يدى مفتوحة. جفل ثنائى الغوريلا وبدا وكأنهما سيحولان بينى وبينها. لكن أنثى القردة، التى كان رد فعلها الأولى هوالتراجع، تمالكت أعصابها وأوقفتهما بكلمة واحدة وبدون أن ترفع عيناها مدت ذراعها المليئة بالشعر، التى ارتعشت قليلا، نحو يدى. لم أتحرك. أخذت تقترب ووضعت يدها بأصابعها شديدة الطول على رسغى. أحسست بأنها ترتعش عند هذا الاتصال. بذلت ما بوسعى ألا آتى بحركة يمكن أن تفزعها. تحسست يدى وملّست ذراعى، ثم التفتت لمساعديها وروح الانتصار تملأها.

انقطعت أنفاسى من الأمل الذى حدانى وأنا أتأكد شيئا فشيئا من أنها بدت تدرك طبيعتى الراقية. وعندما تكلمت بغطرسة مع أحد الغوريلا هيىء إلىّ أمل عاصف أنه سينفتح قفصى على مصراعيه وتقدم إلىّ ملايين الاعتذارات. وأسفاه، لم يحدث شيء من هذا! وتحسس الحارس جيبه وأخرج شيئا صغيرا أبيض اللون وأعطاه لرئيسته. وأعطتنى إياها بنفسها وهى تبتسم ابتسامة ساحرة. كانت قطعة من السكر.

قطعة من السكر ! هويت من عل وشعرت فجأة بالإحباط من مهانة هذه المكافأة حتى كدت أن ألقيها فى وجهها. وفى الوقت المناسب، تذكرت قراراتى بالتحلى بالفطنة وأجبرت نفسى على أن أبقى هادئا.

تناولت قطعة السكر وانحنيت وقضمتها بأكثر الأساليب إظهارا لذكائى.

وعلى هذا النحو مضى لقائى "بزيرا". وعرفت فى وقت لاحق أن زيرا هواسم أنثى القردة وترأس القسم الذى أودعونى فيه. وبالرغم من خيبة أملى، منحنى أسلوبها بعض الأمل وراودنى إحساس بأننى سأتمكن من التواصل معها. تحادثت حديثا مطولا مع الحارسين وهيىء إلى أنها تعطيهما تعليمات بشأنى. وأكملت دورتها حيث فحصت خلالها شاغلى الأقفاص.

وفحصت كل الوافدين بدقة وعناية وسجلت بعض الملاحظات بإيجاز أكثر عما فى حالتى. لم تغامر بلمس أى منهم. لوكانت قد فعلت ذلك، أحسب أننى كنت سأغار. بدأت أشعر بالزهو بأننى الكائن المستثنى والمستحق الوحيد لأن أعامل معاملة متميزة. عندما رأيتها تلقى أيضا ببعض قطع السكر أمام الأطفال أحسست قطعا بالاستفزاز ولكن بدرجة أقل من الذى شعرت به نوفا التى بعد أن كشرت عن أنيابها لأنثى القردة رقدت فى قاع القفص فى غضب شديد، معطية ظهرها لى.

(١٤)

مر اليوم الثانى كالذى سبقه، لم يعبأ القردة بأمرنا باستثناء إعطائنا الطعام. وتنامت حيرتى من هذه المؤسسة الغريبة، عندما تعرضنا فى اليوم التالى لسلسلة من الاختبارات، التى مازالت ذكراها تصيبنى بالمهانة حتى اليوم لكنها فى حينها شكلت نوعا من التسلية.

كان انطباعى عن أول هذه الاختبارات أنه غير معتاد. جاءنى أحد الحارسين بينما زميله يعمل فى قفص آخر. أخفى الغوريلا يده وراء ظهره وأمسك فى الأخرى صفارة. ونظر إلىّ ليجذب انتباهى ووضع الصفارة على فمه مصدرا أصوات حادة وعالية لمدة دقيقة كاملة، ثم فتح لى يده الأخرى فى تباه ليكشف عن ثمرة من ثمار الموز الذى استمتعت به والتى يميل إليها كافة البشر. وأمسك بثمرة الفاكهة أمامى دون أن يبعد عينيه عنى.

مددت يدى ولكن ثمرة الموز كانت بعيدة عن متناولى ولم يقترب الغوريلا منى. بدا عليه خيبة الأمل وأنه يتوقع إيماءة أخرى. وبعد برهة، أصابه اليأس وأخفى ثمرة الموز مرة ثانية واستأنف الصفير. أصبت بالتوتر بسبب حيرتى من هذه التمثيلية وكدت أفقد صبرى عندما لوّح مرة أخرى بثمرة الموز بعيدا عن متناولى. تمكنت من الاحتفاظ بهدوئى ومع هذا حاولت تخمين ما هوالمتوقع منى لأن دهشته أخذت فى التزايد وكأنه يواجه سلوكاً غير طبيعى. أعاد نفس الخطوات خمس

أوست مرات ثم انتقل لأسير آخر.

سيطر عليّ إحساس واضح بالإحباط عندما رأيت هذا الأسير يمنح ثمرة الموز من المحاولة الأولى وكذلك فعل من يليه. راقبت الغوريلا الآخر الذى كان يؤدى نفس الخطوات مع الصف المقابل. وبما أنه يتعامل الآن مع نوفا فلم يفتنى أى من ردود فعلها. أطلق صفارته ثم لوح بثمرة الفاكهة مثلما فعل زميله. وعلى الفور استثيرت الفتاة وحركت فكّيها و....

فجأة فهمت. نوفا، نوفا الرائعة الجمال بدأت تبلل شفتيها عند ظهور هذه اللقمة السائغة مثل يفعل كلب حين تقدم له قطعة من سكر. هذا ما انتظره منى الغوريلا فى حدود هذا اليوم. وتركها تأخذ الشىء المرغوب فيه وانتقل إلى قفص آخر.

لقد فهمت، أؤكد لكم، ولست فخورا به! لقد درست الأحياء فيما مضى وليست أبحاث بافلوف سرا خافيا عليّ. هاهم يطبقون على البشر نفس التجارب التى أجراها على الكلاب. وأنا، بعد أن كنت منذ لحظات قليلة فى غاية الغباء، بفضل عقلى الراجح وتعليمى استوعبت ليس فقط طبيعة هذا الاختبار إنما أدركت طبيعة الاختبارات المقبلة. ربما سيعمل القرود لعدة أيام قادمة على النحو التالى: أصوات صفارات ثم تقديم الطعام المفضل الذى يسبب سيلان لعاب الشخص موضوع الدراسة. وبعد مضى فترة معينة، سيكون صوت الصفارة فقط هوالذى سيحدث الأثر. وسيكون البشر قد اكتسبوا ما يعرف فى لغة أهل العلم بالانفعالات الشرطية.

لم أستطع إلا تهنئة نفسى على فطنتى ولم أحتمل الانتظار والانتفاع بها. وحاولت بكل وسيلة ممكنة أن أجذب انتباه الغوريلا وهو يمر بجانبى بعد أن أنهى دورته. طرقت على القضبان؛ أومأت إيماءات لتتجاهل مشيرا إلى فمى ونتيجة لذلك أذعن ووافق على استئناف التجربة. وبدأت أبلل شفتى مع أول صفارة

أطلقها فى حنق، فى توتر - أنا أوليس ميرو بدأت أبلل فمى وكأن حياتى تعتمد على هذا الأمر، واستخلصت لذة لا توصف من إظهار ذكائى له.

فى واقع الأمر بدا هلعا للغاية واستدعى زميله وتحدث معه حديثا مطولا مثلما فعل فى اليوم السابق.

استطعت أن أتابع عملية الاستدلال البدائية التى استخدمها هذان الجلفان: هاهو رجل منذ لحظة مضت لم يظهر أى ردود فعل على الإطلاق والذى اكتسب فجأة الانفعالات الشرطية التى تتطلب وقتا طويلا وصبرا كبيرا فى حالة الآخرين! شعرت بالشفقة على ضعف عقليهما وهو ما منعهما من تحديد السبب الوحيد الممكن لهذا التقدم وهو ملكة التفكير . إننى متأكد من أن زيرا كانت ستثبت أنها أكثر لماحية. ومع هذا، فإن نتيجة مهارتى وحماستى المفرطة جاءت مختلفة تماما عما توقعت. فقد ذهبا بدون أن يعطيانى الثمرة التى أخذ أحدهما يقضمها. لم يعد هناك سبب فى مكافأتى بما أن الغاية المرجوة تحققت بدونها.

وجاءوا فى اليوم التالى بأجهزة أخرى. حمل أحدهم جرسا والآخر يدحرج جهازا يشبه إلى حد كبير مولّد كهربائى. كنت مستعدا هذه المرة لنوع التجربة التى سنتعرض إليها. فهمت ما يخططون إليه بهذه الأجهزة حتى قبل أن يضعوها فى موضع التشغيل.

بدأوا بجار نوفا وهو فتى ضخم طويل القامة قوى البنية وعلى وجهه تعبير بليد والذى اقترب من أقصى طرف فى القفص وأمسك بالقضبان مثلما كنا نفعل جميعا فى تلك الأيام مع اقتراب سجانينا.

وأخذ أحد الغوريلا يقرع الجرس فأصدر رنينا وقورا، بينما أوصل الأخر المولّد بقضبان القفص. عندما رن الجرس لبعض الوقت، حرك الآخر ذراع الجهاز وثب الرجل إلى الوراء مصدرا صرخة موجعة.

وكرروا ذات الخطوات مع نفس الشخص محل التجربة عدة مرات والذى أغواه

عرض ثمرة الموز لأن يعود ثانية ويتعلق بالقضبان. وتمثل الهدف، كما أعلم، فى دفعه لأن يثب للوراء مع صوت الجرس وقبل تعرضه للصدمة الكهربائية (وهى أيضا من الانفعالات الشرطية)، لكنهما لم ينجحا فى تحقيقها فى ذلك اليوم، فملكات الرجل لم تكن نامية بالدرجة التى تسمح بتمكينه من الربط بين السبب والمسبب.

وانتظرتهما وأنا أضحك فى سرى وكل لهفة على أن أريهما الفارق بين الذكاء والغريزة. ومع أول صوت للجرس تركت القضبان وابتعدت حتى منتصف القفص، وفى الوقت نفسه، نظرت إليهما وعلى وجهى ابتسامة ساخرة. قطّب الغوريلا حاجبيهما. لم يضحكا منذ تلك اللحظة على سلوكى وللمرة الأولى بدأا يشكان فى أننى أضايقهما.

وقررا مع هذا أن يجريا التجربة مرة أخرى عندما تشتت انتباههما بقدوم زوار جدد.

(١٥)

كان هناك ثلاثة أشخاص يسيرون فى الردهة وهم: زيرا أنثى الشمبانزى واثنان آخران من القردة أحدهما من الواضح أنه يشغل منصبا مرموقا.

كان انسان الغاب وهوالأول من نوعه الذى أراه حتى تلك اللحظة على كوكب سورور. كان أقصر من الغوريلا ومقوس الكتفين إلى حد ما وذراعاه أطول نسبيا بحيث تلامس الأرض حين يمشى عادة وهو نادرا ما يحدث مع القردة الآخرين. وبالتالى أعطانى انطباعا غريبا وهوكأنه يسير على عكازين.

وزين رأسه شعر طويل خشن وهى غاطسة بين كتفيه، وحمل وجهه تعبيرا متزمتا متأملا يشبه أسقفا عجوزا مهيبا جليلا. واختلف فى ملبسه أيضا اختلافا تاما عن الآخرين حيث ارتدى جاكيت فراك أسود طويل به نجمة حمراء عند العروة وبنطلونا مقلما أبيض وأسود وبدا كلاهما متربين.

واتبعته أنثى شمبانزى صغيرة تحمل حافظة أوراق ثقيلة. ويوحى سلوكها بأنها سكرتيرته. أحسب أنه بمرور كل هذا الوقت لا يجب أن يصاب أحد بالاندهاش من إشاراتى المتكررة لسلوكيات وتعبيرات ذات دلالة من جانب أولئك

القردة. إننى مقتنع بأن أى كائن عاقل يواجه بهذا الثنائى سيستخلص، مثلما فعلت، أن الأول شيخ علامة والآخر هو سكرتيرته المتواضعة. ومنحنى وصولهم الفرصة لملاحظ أخرى بشأن طبيعة التكوين الهرمى الذى يبدو أنه قائم بين القردة. وأظهرت زيرا كافة إشارات التبجيل لمن يعلوها. وهرع ثنائى الغوريلا للقائه بمجرد ما لمحوه وانحنوا مطأطئين رأسيهما أمامه. ولوّح إنسان الغاب فى تفضّل تلويحا قصيرا بيده.

واتجهوا ناحية قفصى على الفور. ألست أكثر الأشخاص محل الدراسة إثارة فى هذه المجموعة ؟

رحبت بالحجة الكبير بأكثر الابتسامات لطفا ودماثة ووجهت إليه حديثى بالنغمة المطلوبة قائلا:

"عزيزى إنسان الغاب، كم أنا سعيد بوجودى فى نهاية المطاف فى حضرة مخلوق يشع بالحكمة والذكاء! إننى على يقين من أن كلينا سيفهم الأخر، أنا وأنت".

أصيب المسن العزيز بالفزع لدى سماع صوتى. وهرش إذنه لبعض الوقت وحدّق فى قفصى فى ارتياب وكأنه يشم رائحة خديعة. ثم وجهت زيرا حديثها إليه وفى يدها دفتر الملاحظات وسردت عليه التفاصيل التى دونتها بشأنى. وبذلت قصارى جهدها ولكن من الواضح أن إنسان الغاب رفض أن يقتنع. وتفوه بكلمتين أو ثلاثا بأسلوب متعجرف وهز كتفيه عدة مرات وهز رأسه ثم وضع يديه وراء ظهره وبدأ يذرع الردهة إقبالا وإدبارا ويمر أمام قفصى ويعاود المرور، ويحدجنى بنظرات غير ودودة بالمرة. وانتظر القردة الآخرون قراره فى صمت ملىء بالتوقير.

فى صمت يبدو أنه ملىء بالتوقير، على الأقل - فهل توقيرهم كان بعيدا كل

البعد عن الصدق لأننى اكتشفت بما لا يدع مجالا للشك حين اختلست نظرة من غوريلا للآخر، أنهما يسخران من رئيسهما من وراء ظهره. وتواكب هذا مع الضيق الذى أحسست به من سلوكه إزائى فألهمنى ذلك بفكرة أداء تمثيلية بهدف إقناعه بقدراتى العقلية. أخذت أذرع القفص جيئة وذهابا محاكيا مشيته ومقوّسا كتفىّ ويدىّ خلفى ومقطبا حاجبىّ وكأننى فى حالة تأمل عميق.

اختنق ثنائى الغوريلا من الضحك ولم تتمالك زيرا نفسها. وبالنسبة إلى السكرتيرة، اضطرت إلى أن تغطى خطمها فى حافظة الأوراق لإخفاء ابتهاجها. هنأت نفسى على استعراضى عندما أدركت فجأة خطورة ما فعلته. بدا إنسان الغاب متضايقا جدا منى بعد أن لاحظ محاكاتى له وتفوه ببعض الكلمات القليلة الحادة بلهجة متحفظة فاستعيد بعدها النظام على الفور، ثم توقف أمامى وبدأ يملى ملاحظاته على سكرتيرته. واستمر يملى عليها لوقت طويل قاطعا عباراته كل حين بإيماءات متفاخرة. بدأ يفيض بى الكيل من تعاميه وعزمت على أن أقدم له برهان جديد على ملكاتى. مددت ذراعىّ نحوه وتكلمت رافعا صوتى لأقصى ما تسمح به قدراتى:

"مى زايوس".

كنت قد لاحظت أن جميع تابعيه يخاطبونه بهاتين الكلمتين. وعرفت فيما بعد أن زايوس هواسم الأسقف و"مى" لقب للتبجيل.

أصيب القردة بالذهول ولم يعد عندهما رغبة فى الضحك وانصرف هذا على زيرا هى الأخرى، التى بدت مضطربة للغاية، بخاصة عندما أشرت بأصبعى نحوها وأضفت قائلا "زيرا" وهو اسم تذكرته أيضا ولا يمكن إلا أن يكون اسمها. وبالنسبة إلى زايوس، فقد ارتبك ارتباكا شديدا وأخذ يذرع الردهة إقبالا وإدبارا وهو يهز رأسه فى حالة من عدم التصديق.

وبعد أن استعاد رباطة جأشه، أعطى أوامره بإعادة إجراء الاختبارات التى تعرضت لها فى اليوم السابق فى حضوره. وآديت واجبى. بللت فمى مع أول نفخة فى الصفارة. وتراجعت للخلف مع صوت الجرس.

وجعلنى أكرر هذه العملية عشر مرات وهو يملى على سكرتيرته عددا لا يحصى من الملاحظات. فى نهاية المطاف، جائنى إلهام تمثل فى أننى نزعت مشبك الذى يصل السلك الكهربائى بالقفص وألقيت بالكابل والغوريلا يدق الجرس. وأمسكت بالقضبان وبقيت مكانى وطفق الحارس الآخر، الذى لم يلحظ حيلتى، يجاهد من أجل تشغيل المولّد الهامد حاليا.

كنت فخورا بهذه الحركة والتى يفترض أنها تقطع كل شك لدى أى مخلوق عاقل بفطنتى. فى واقع الأمر، أظهر سلوك زيرا أنها، هى على الأقل، منبهرة للغاية. ونظرت إلىّ فى حدة وتحول خطمها إلى اللون الوردى الفاتح وعلمت فيما بعد أنه علامة على العواطف لدى الشمبانزى. ولكن لم يكن هناك فى مقدورى أن أفعل شيئا لأقنع إنسان الغاب. وأخذ هذا القرد اللعين فى هز كتفيه بشكل بغيض وهز رأسه فى نشاط عندما تحدثت معه زيرا. كان عالما منهجيا ورفض الاستماع لهذا الهراء. وأصدر مزيدا من التعليمات للغوريلا وأجرى علىّ اختبارا آخر وهو مزيج من الاختبارين السابقين.

وعرفت هذا أيضا فقد رأيته يجرب على الكلاب فى معامل معينة. ويهدف إلى وضع الشخص موضع الدراسة فى حيرة شديدة أو إحداث تشويش عقلى من جراء الجمع بين ردىّ الفعل. ونفخ أحد الغوريلا سلاسل متصلة من النفخات فى الصفارة كوعد بالمكافأة بينما يدق الآخر الجرس معلنا العقوبة. استرجعت ذهنيا نتائج تجربة مماثلة توصل إليها عالم أحياء بارز والتى أفادت بأنه من الممكن الإساءة للحيوان بهذه الطريقة، أى إحداث اضطرابات شعورية عنده تتشابه بصورة غريبة مع مرض العصاب الذى يصيب البشر ، وفى بعض الأحيان يجن

جنون الحيوان إذا ما تعرض لهذه المناورات كثيرا وبشكل منتظم.

أخذ ت حذرى من ألا أقع فى هذا الفخ لذا أنصت لصوت الصفارة ثم لرنين الجرس وجلست فى منتصف الطريق بين الاثنين واضعا ذقنى على كفى مثل الشكل التقليدى للمفكر. لم تستطع زيرا أن تمنع نفسها من التصفيق. أخرج زايوس منديلا من جيبه وجفف حاجبه.

تصبب عرقا ولكن لم يتزحزح عن موقفه المتشكك الأحمق. واستطعت رؤية التعبير المرتسم على وجهه عقب المناقشة الحامية التى دارت بينه وبين أنثى القردة. وأملى المزيد من الملاحظات إلى سكرتيرته مصدرا بعض التعليمات المفصلة إلى زيرا التى بدا على وجهها عدم الارتياح بالمرة وفى النهاية غادر المكان على عجل بعد أن نظر إلىّ نظرة قاسية.

تحدثت زيرا إلى ثنائى الغوريلا وأدركت بسرعة أنها أعطتهما أوامر بأن يدعانى فى سلام، على الأقل لبقية اليوم لأنهما أخذا أجهزتهما معهم فورا. وعادت إلى قفصى وراقبتنى مرة أخرى، فى صمت، لمدة طويلة، ومدّت خلالها يدها بمحض اختيارها، فى لفتة ودودة. أمسكت بها فى عاطفة وهمست، فى غضون ذلك، باسمها. وأظهر احمرار خطمها أنها تأثرت بشدة.

(١٦)

عاد زايوس بعد انقضاء أيام قليلة، وكانت زيارته الأولى إشارة على إعادة ترتيب الحجرة. لكن علىّ أن أصف أولا كيف أننى جعلت من نفسى شخصا أكثر بروزا فى أعين القردة.

انهالت علينا بعد عملية الفحص الأولى التى أجراها زايوس سلاسل من الاختبارات، وكان أولها وقت الوجبات. فبدلا من أن يضع زورام وزنام وهو اسمىّ ثنائى الغوريلا، اللذين عرفت اسميهما أخيرا، الطعام فى الأقفاص، كما اعتادا أن يفعلا، رفعاه إلى السقف فى سلال بواسطة نظام من البكر مزودة به الأقفاص. وفى الوقت ذاته، وضعوا أربعة مكعبات خشبية فى كل زنزانة ثم رجعا إلى الخلف وراقبونا.

ومما مزّق القلب أن أرى رفاقى فى هذه المحنة. حاولوا القفز ولكن لم يصل أى منهم إلى السلة. تسلّق البعض القضبان وبعد أن وصلوا إلى أعلى نقطة مدوا أذرعهم ولكن عبثا لأن الطعام كان يبعد مسافة قليلة عن جوانب الأقفاص. شعرت بالعار من غباء أولئك البشر. وغنى عن البيان القول أننى استطعت الحل لهذه المشكلة على الفور. تعين على المرء وضع المكعبات الأربعة فوق بعضها البعض وتسلق فوق هذه السقّالة ويحل السلة من الخطاف المعلقة فيه. هذا ما فعلته فى حالة من الانعزال التى أخفت اعتدادى بذاتى. لم تكن لمحة من لمحات عبقرية إنما كنت أنا الوحيد الذى أظهرت هذا القدر من المهارة. وانصب إعجاب زورام وزنام الواضح فى قلبى مباشرة.

بدأت أكل بدون أن أخفى احتقارى للأسرى الآخرين الذين عجزوا عن حذوحذوى حتى بعد أن رأوا هذه المناورة. وعجزت نوفا ذاتها عن تقليدى فى ذلك اليوم بالرغم من أننى كررت فعلتى عدة مرات من أجلها. ومع هذا فقد حاولت - فهى من المؤكد واحدة من أكثر أفراد المجموعة ذكاء - حاولت وضع المكعبات فوق بعضها البعض، لكنها رتبتهم بصورة معوجة مما أدى إلى انقلابها، ثم انزوت فى أحد الأركان بعد أن فزعت من صوت الارتطام الذى أحدثته أثناء السقوط. هذه الفتاة، التى منحت ليونة ورشاقة مذهلة، وكل إيماءة تشى بظرفها، أثبتت أنها خرقاء مثل الآخرين عندما يتعلق الأمر بالإمساك بشىء. ومع هذا نجحت فى إتقان اللعبة فى غضون يومين.

وفى هذا الصباح، أشفقت عليها وألقيت لها بثمرتين من أفضل الثمار عبر القضبان. وأدت هذه اللفتة إلى أن تلاطفنى زيرا التى كانت قد دخلت توا. سمحت لنفسى أن أدعها تمسدنى بيدها المشعرة مما أدى إلى تكدر نوفا التى تثير مثل هذه اللفتات ضيقها والتى بدأت على الفور تثب لأعلى ولأسفل وتصدر نشيجا.

وجعلت نفسى أكثر تميزا من خلال عدد آخر من الاختبارات ولكن قبل كل شىء من خلال الإنصات حيث تمكنت من حفظ كلمات قليلة من لغة القرود وفهم معناها. وتدربت على نطقها كلما مرت زيرا أمام قفصى وهوما أدهشها بصورة متزايدة. وصلت إلى هذه المرحلة عندما حدثت زيارة زايوس التفقدية الجديدة.

مرة أخرى، صحبته سكرتيرته ومعه أيضا إنسان الغاب آخر يماثله وقارا ويرتدى نفس الزى ويتحادث معه فى ندية. وأحسب أنه استدعاه للمشاورة فى الحالة الغريبة التى أمثلها. وبدأ مناقشة مطولة أمام قفصى مع زيرا التى انضمت إليهما فى غضون ذلك. وتحدثت أنثى القردة باستفاضة وحماسة. كنت أعلم أنها تدافع عن قضيتى مشيرة إلى حدة ذكائى الذى لا يمكن التشكيك فيه بعد الآن. لكن النتيجة الوحيدة لتدخلها هى ارتسام ابتسامة متشككة على وجه العالمين.

واضطررت إلى خوض نفس الاختبارات التى أظهرت فيها مهارة كبيرة. دار الاختبار الأخير حول فتح صندوق مغلق بتسعة أنظمة مختلفة (المسامير - الشبابك - المفاتيح - الخطاطيف إلخ ...). كان شخص قد اخترع على الأرض شيئا مماثلا - أظنه كيناماز - لقياس قدرة القرود على التمييز وعدت هذه أعقد المشكلات التى نجح أى منهم فى حلها. وبالتأكيد ينطبق الأمر هنا على البشر. ونجحت فى اجتياز الاختبار مع مرتبة الشرف بعد محاولات قليلة.

سلمتنى زيرا الصندوق بنفسها وكأنها تتوسل إلىّ فى حماسة أن أؤدى أداء مبهرا لأن سمعتها تعتمد على هذا الاختبار. بذلت قصارى جهدى لألبى مطلبها واجتزت الآليات التسع فى لمح البصر، بدون لحظة تردد. كما لم أقصر أدائى على هذا الاختبار فأخرجت ثمرة الفاكهة من الصندوق وقدمتها فى شهامة إلى زيرا التى تقبلتها فى خجل. وأعقبت ذلك بالكشف عن أكبر إنجاز حققته، فنطقت بالكلمات القليلة التى اتقنتها، مشيرا إلى الأشياء التى تنطبق عليها.

أحسست بأنه من المستحيل هذه المرة أن يضمروا مزيدا من الشكوك بشأن طبيعتى الحقيقية. واحسرتاه! لم أكن أقدر حجم التعامى الذى يتمتع به إنسان الغاب! بل وصل الأمر إلى أن ابتسما لى ابتسامة متشككة أغاظتنى للغاية ولم يلقيا بالا لزيرا واستمرا فى مناقشتهما. واستمعا إلى وكأننى ببغاء. أحسست أنهما مستعدان فقط لإرجاع مواهبى إلى نوع من الغريزة ودرجة متقدمة من المحاكاة. ومن المرجح أنهما تبنيا القاعدة العلمية التى لخّصها أحد أساطين علمائنا على النحو التالى: "لا يجب بأى حال أن نفسر فعل ما، على أنه نتيجة لإعمال ملكة عقلية عليا طالما أمكن تفسيره كنتيجة لعمل متدن بمقياس علم النفس".

اتضح هذا المعنى من رطانتهما العلمية، وبدأت استشيط غضبا. وأوشكت بلا ريب على الاستسلام لنوبة من نوبات الغضب الجامح إلا أنه استوقفتنى نظرة من زيرا. اتضح منها أنها لا توافقهما الرأى وشعرت بالعار من سماعهما يتحدثان على هذا النحو أمامى.

وغادر زميله المكان بعد أن أدلى برأى بات ومطلق بشأنى. وشرع زايوس فى إنجاز بعض تدريبات أخرى. دار دورته علىّ فى القاعة فاحصا كل الأسرى ومصدرا تعليمات جديدة لزيرا التى دونتها. وأشارت تحركاته إلى أنه ستجرى تغييرات عديدة فى ترتيب شاغلى الأقفاص. لم يستغرق الأمر منى طويلا لاكتشاف خطته واستيعاب الغرض من المقارنات الواضحة التى عقدها بين سمات معينة لهذا الرجل بعينه وهذه المرأة بعينها.

لم أكن مخطئا. أخذ ثنائى الغوريلا الآن فى تنفيذ أوامر الرئيس التى نقلتها زيرا إليهما. أعيد توزيعنا فى هيئة ثنائيات. ما هى الاختبارات الملعونة التى تشير إليها عملية المزاوجة هذه ؟ ما هى الخصائص الفريدة التى يحملها الجنس البشرى ويرغب أولئك القردة، المولعين بإجراء التجارب، فى دراستها ؟ أمدتنى معرفتى بمعامل علم الأحياء بالإجابة وهى أنه بالنسبة لعالم اختار الغريزة والانفعالات كمجال أبحاثه فإن الغريزة الجنسية تحتل ممكانة خاصة.

وجدتها! إن هؤلاء الشياطين يريدون أن يستخدمونا - يستخدمونى، أنا الذى وجدت نفسى ملحق بهذا القطيع فى تصريف من تصاريف القدر الهائلة - فى دراسة ممارسات الغزل بين البشر فى الأسر، أساليب تقارب الذكر والأنثى، الطريقة التى يتناسلان بها، وذلك ربما لمقارنتها بملاحظات سابقة عن نفس البشر فى الحالة البرية. ومما لا شك فيه، أنهم يرمون إلى التجريب فى مجال الانتقاء الجنسى ؟

وبمجرد فهمى لخطتهم أحسست بمهانة تفوق أى مهانة أحسستها طوال حياتى. وأقسمت لنفسى أن أموت ولا أسلّم نفسى لهذه الخطط المحطّة. ومع هذا فلابد أن أعترف بأن إحساسى بالعار تقلص جوهريا، بالرغم من ثباتى على موقفى، عندما رأيت المرأة التى حددها لى العلم كرفيقتى. كانت نوفا.

كدت أعذر حماقة وتعامى المعلم العجوز وما اعترضت حينما أمسكنى زورام وْزنام من حول وسطى ودفعونى عند قدم حورية الشلال.

(١٧)

لن أقدم سردا تفصيليا بالمشاهد التى وقعت فى الأقفاص خلال الأسابيع التالية. وكما خمنت، عقد القردة العزم على دراسة سلوك المغازلة لدى البشر، وباشروا هذه المهمة بذات الأسلوب المنهجى، مسجلّين أهون التطورات، ساعين فى دأب لاستثارة علاقات، مستخدمين شوكاتهم الحديدية بين الحين والآخر لتقويم أى سلوك متمرد ممن يخضعون للدراسة.

بدأت أسجل ملاحظاتى الشخصية، آملا فى أن أضمها للوصف الذى سأنشره لدى عودتى فى النهاية إلى الأرض، لكن سرعان ما مللت من هذا الأمر بعد أن فشلت فى العثور على شىء آسر يستحق التدوين - لا شىء، هذا باستثناء الأسلوب الغريب الذى يغازل به كل رجل امرأته قبل أن يقترب منها. ينخرط الرجل فى استعراض يشبه تمام الشبه ما يفعله نوع معين من الطيور: نوع من الرقص البطىء المتردد يشمل خطوات للأمام وللخلف وعلى الجانبين. ويتحرك هو بالتالى فى محيط دائرة يضيق بشكل متزايد وتتوسط المرأة الدائرة وهى تتحرك فى نفس المحور ولا تبرح موقعها. شهدت باهتمام عددا من هذه الاستعراضات، يتطابق فيها الطقس الأساسى، وإن اختلفت التفاصيل أحيانا. وبالنسبة للجماع الذى تختتم به هذه المقدمات، فعلى الرغم من أننى حين شهدته اندهشت منه قليلا فى البداية، إلا أنه انتهى بى الحال ألا أعيره اهتماما مثل بقية الأسرى. وظل العنصر الوحيد المدهش فى هذه الاستعراضات، هوالحماسة العلمية التى تابع بها القردة الأمر، ولم يتوانوا أبدا عن تدوين ملاحظات وافية عن هذه العملية.

كان الأمر مختلفا حين لاحظ الغوريلا أننى لم أشارك فى هذه المسامرات -

فقد أقسمت ألا أجعل شيئا يستحثني على أن أعرض نفسي بهذه الصورة - وصمما على إجباري بالقوة وأن يضربوني بشوكتيهما - أنا أوليس ميرو الذي خلقت على هيئة الرب! قاومت في همة. وثابر المتوحشان من جانبيهما ولا أعلم ما الذي كان سيحدث لي ما لم تحضر زيرا التي نقلا لها عدم تعاوني.

أمعنت التفكير لمدة طويلة ثم نظرت إليّ بعينيها الذكيتين الرائعتين واقتربت مني وبدأت تمسّد قفاي وفي غضون ذلك خاطبتني وافترضت أن ما قالته يأتي في الإطار التالي:

"أيها الرجل التعس لكم أنت غريب! لم يتصرف أحد من جنسك مثلما تصرفت من قبل. انظر إلى الآخرين حولك. أد ما طلب منك أن تؤديه وسوف تكافأ".

أخرجت قطعة من السكر من جيبها وقدمتها إليّ. سيطر على اليأس. حتى هي تنظر إليّ على أني حيوان ربما أكون أكثر ذكاء بشكل طفيف من الآخرين. هززت رأسي في غضب وانزويت في أحد الأركان بالقفص بعيدا عن نوفا التي حملقت فيّ عاجزة عن الفهم. ومما لا شك فيه أن ما حدث كان سيعتبر نهاية هذه العملية لولا أن زايوس عاود الظهور في تلك اللحظة. وهو في أكثر حالاته غطرسة واستبدادا. أتي ليتفقد نتائج تجاربه وكالعادة بدأ بالاستفسار عني. اضطرت زيرا إلى أن تخبره بتمردي. بدا عليه الاستياء الشديد، وأخذ يروح ويجيء لمدة دقيقة أو اثنتين ويديه خلفه ثم أصدر بعض تعليمات حاسمة. فتح زورام وزنام قفصي وأخذا نوفا بعيدا عني وأتيا لي بعجوز شمطاء. بدا هذا الأحمق زايوس، الغارق في المنهج العلمي، مصمما على إجراء التجربة مع تغيير من هو محل الدراسة.

كان الأسوأ لم يأت بعد ولم أفكّر حتى في مصيري التعس. تابعت في كرب صديقتي نوفا وهي محمولة ككيس بعيدا وفزعت عندما رأيتها توضع في القفص المواجه لي تماما حيث سلمت لرجل ضخم الجثة يشبه التماثيل العملاقة ذي صدر مليء بالشعر وأخذ يرقص حولها في حماس محموم ليبدأ الاستعراض الغرامي

الغريب الذى وصفته من قبل.

وبمجرد ما أدركت ما الذى ينتويه هذا المتوحش، نسيت قرارات الفطنة. فقدت صوابى وتصرفت مرة أخرى كمجنون. فقد وقعت حرفيا، فى واقع الأمر، تحت سيطرة الغضب الأعمى. صرخت وصحت مثل رجال سورور مظهرا غضبى العارم مثلما يفعلون من خلال إلقاء نفسى على القضبان وأعضها وأزبد عند فمى وأصر بأسنانى، أتصرف باختصار بأسلوب همجى بحق.

وأغرب ما فى نوبة الهياج هذه هو نتيجتها غير المتوقعة. ابتسم زايوس حين رآنى أتصرف على هذا النحو. كانت أولى علامات على كرمه الذى أفاء به علىّ. فلقد اكتشف أخيرا فىّ السلوك البشرى ووجد نفسه على أرض مألوفة. لقد برهن على صحة نظريتهُ مما وضعه فى مزاج طيب دفعه حتى لإلغاء تعليماته ويمنحنى فرصة أخيرة بناء على ملاحظة من زيرا. اقتيدت العجوز الشمطاء واستردت نوفا قبل أن يلمسها الوحش الضخم الجثة. ورجع القردة للخلف ليشاهدونا كمراقبين عن كثب من مسافة.

ما الذى يمكن أن أضيفه ؟ انهارت مقاومتى بسبب هذه العواطف. أحسست أننى لن أتحمل رؤية حوريتى تحت رحمة رجل آخر. سلّمت بموقف الجبان لينتصر إنسان الغاب الذى ابتسم الآن مسرورا من دهائه. وبدأت أخطو أول خطوة فى الرقص فى تردد.

نعم، أنا واحد من سادة الخلق، بدأت أدور حول جميلتى - أنا الذروة العليا لألف عام من التطور، أمام مجموعة من القردة يراقبوننى فى تلهف، أمام إنسان الغاب الهرم يملى سكرتيرته، أمام أنثى شمبانزى تبتسم فى رضا عن النفس، أمام اثنين من الغوريلا يضحكان فى سرهما - أنا، رجل ألتمس لنفسى العذر بحجة ظروف كونية استثنائية وأقنع ذاتى فى اللحظة الراهنة بأن الكواكب والسماوات مليئة بأشياء أكثر بكثير مما حلمت به فلسفة البشر، أنا، أوليس ميرو باشرت رقصتى كطاووس حول نوفا الفاتنة فى استعراض الغرام.

الجزء الثانى

(١٨)

لا بد لى الآن من الاعتراف بأننى تأقلمت فى سهولة مدهشة مع ظروف معيشتى فى قفصى. فمن وجهة نظر مادية، كنت أمضى فى سعادة خالصة: أثناء النهار يلبى القردة أى رغبة لى، وفى المساء تشاركنى فرشتى أحلى فتيات الكون. بل أننى اعتدت هذا الوضع على مدى ما يزيد على شهر دون أن أحس كم هو غريب أومحط، ولم أحاول أن أنهيه. لم أضف إلى معرفتى أى كلمات جديدة من اللغة القردية. لم أواصل محاولاتى فى التواصل مع زيرا، وبالتالى فإنها إذا كونت تصورا غائما عن طبيعتى الروحية فإنها بلا ريب ستجنح إلى رأى زايوس وتعتبرنى رجلا من رجال كوكبها، أى حيوان: حيوان ذكى ربما، لكن ليس حيوانا مفكرا بأى حال من الأحوال. وجعلنى تفوقى على المساجين الآخرين، الذى لم أعد أظهره للحد الذى يدهش الحارسين، الأكثر نباهة ضمن من هم محل دراسة فى المؤسسة. وإننى أخجل من الاعتراف بأن هذا التميز لبى طموحاتى الحالية بل وملأنى بالزهو بنفسى. تعامل زورام وزنام فى ود معى ويبتهجا حين يريانى ابتسم وأضحك وأنطق بعض الكلمات. وبعد أن استنفدا إجراء الاختبارات الكلاسيكية علىّ أجهدا ذهنهما فى اختراع اختبارات أخرى أكثر دهاء وكان ثلاثتنا نمرح عندما اكتشف الحل لمشكلة ما. لم ينسوا أبدا أن يأتوا إلىّ بطعام شهى؛ أشرك نوفا دائما معى فى تناوله. كنا ثنائى متميز. كنت من السخف لدرجة جعلتنى أحسب رفيقتى واعية بأن كل ما تنعم به يعود الفضل فيه إلى مواهبى، وقضيت بعض الوقت فى التباهى أمامها.

ومع هذا، فبعد انقضاء عدة أسابيع، شعرت يوما ما بنوع من الغثيان. هل لمعة عينيّ نوفا التي بدت لي في هذه الليلة بالذات خالية من أي تعبير ؟ هل اكتسبت قطعة السكر التي تمنحها إليّ زيرا فجأة مذاقا مريرا ؟ حقيقة أحسست بالخجل من قراري بالإذعان الجبان. ماذا سيكون الحال إذا رآني البروفيسور أنتل، إذا تصادف وجوده على قيد الحياة ؟ أصبحت هذه الفكرة غير محتملة وحزمت أمري في التوأن أتصرف كرجل متحضر .

انتهزت فرصة تمرير يدي على ذراع زيرا كوسيلة للتعبير عن شكري وانتزعت منها دفتر الملاحظات وقلم الحبر. تحملت اعتراضاتها الرقيقة وجلست على القش وبدأت أرسم نوفا؛ فأنا رسام جيد ومكنني مثول مصدر الإلهام أمامي من إنتاج رسما مشابها سلمته إلى أنثى القرد. وأيقظ ما فعلته عواطفها وعدم يقينها من جديد. احمر خطمها وحدقت فيّ عن قرب وهي ترتعش قليلا. بما أنها ظلت ساكنة، انتزعت ثانية دفتر الملاحظات من يدها في هدوء، وسلمته لي في هذه المرة دون اعتراض. لما لم أفكر في هذا الحل البسيط من قبل ؟ رسمت شكلا هندسيا يوضح نظرية فيثاغورس اعتمادا على المعلومات المدرسية التي مازالت حية في ذهني. لم يكن اختياري لهذه المسألة عشوائيا فلقد تذكرت قراءتي لكتاب في شبابي يحمل نبوءة واستخدم فيه عالم عجوز هذا الإجراء ليتمكن من الاتصال بالأرواح في عالم آخر. بل أنني ناقشت هذه الفكرة مع البروفيسور أنتل خلال الرحلة فأقر المنهج. وأذكر بوضوح أنه أضاف أن قواعد إقليدس بالرغم من كونها خاطئة تماما إلا أنها بدون شك لهذا السبب متعارف عليها على مستوى الكون.

على أية حال، جاء وقعها على زيرا خارقا؛ فتحول خطامها إلى اللون الأحمر القاني وصاحت صيحة تعجب شديد. ولم تستعد هدوءها إلا حين قدم زورام وزنام وهما مندهشان من سلوكها. وأعقبت ذلك بتصرف وجدته غاية في الغرابة – اختلست نظرة خاطفة إليّ وأخفت الرسم الذي انتهيت منه توا في عناية. تحدثت

مع ثنائى الغوريلا اللذين غادرا القاعة وأدركت أنها صرفتهما بحجة ما. والتفتت إلىّ وأخذت يدى وكان لضغط أناملها مدلولا مختلفا عن مدلول المرة التى تملقتنى فيها مثل حيوان شاب بعد أن أدى خدعة ماهرة. وفى نهاية المطاف سلمتنى دفتر الملاحظات وقلم الحبر وهى فى حالة توسل.

الآن بدا أنها هى المتلهفة على إقامة اتصال. وجهت شكرى إلى فيثاغورس وانطلقت مرة أخرى نحو الهندسة. فى الصفحة الأولى من دفتر الملاحظات، رسمت بقدر ما سمحت به قدراتى المقاطع المخروطية الثلاثة بمحاورها ومراكزها: الشكل البيضاوى والقطع المكافىء والقطع الزائد، ثم فى الصفحة المقابلة، رسمت مخروطا دائريا. دعنى أذكر القارىء بأن نقطة التقاطع مثل هذا الجسم مع سطح ينتج عنه واحدا من التقاطعات المخروطية الثلاث، بناء على زاوية القطع. وفى هذه الحالة، رسمت رسما توضيحيا للشكل البيضاوى ثم عدت للشكل الأول مشيرا إلى المنحنى المقابل أمام دهشة أنثى القردة.

انتزعت منى دفتر الملاحظات من بين يدىّ ورسمت بدورها مخروطا آخر به تقاطع فى زاوية مختلفة وأشارت إلى القطع الزائد بأصبعها الطويل شعرت بمشاعر مكثفة حتى أن الدموع طفرت من عينى وأمسكت بيديها بشكل متشنج. أصدرت نوفا أنينا متذمرا وهى فى أقصى طرف فى القفص. لم تخدعها غريزتها بخصوص مغزى هذه المظاهر. حدث اتصال روحى بينى وبين زيرا نشأ بواسطة الهندسة. استخلصت منه ما يشبه الإشباع الحسى وأحسست أن أنثى القردة تأثرت بشدة.

فكت يدها فى هزة مباغتة واندفعت خارجة من القاعة، غابت دقائق قليلة ولكن خلال هذه الفترة ظللت غارقا فى أفكارى بدون أن أجسر على النظر إلى نوفا لشعورى نحوها بالذنب والتى أدارت ظهرها لى وهى تزمجر.

أعطتنى زيرا عندما عادت فرخا كبيرا من الورق مثبت فى لوح للرسم. فكرت

لثانية أواثنتين وحزمت أمرى أن أسدد لها ضربة قاضية. رسمت فى أحد أركان الفرخ نظام منكب الجوزاء كما اكتشفناه لدى وصولنا بالجرم السماوى العملاق وكواكبه الأربعة. حددت سورور فى موقعها بالضبط ومعها قمرها الصغير الذى يدور فى فلكها: عينته لزيرا ثم أشرت إليها مرارا. أعطتنى إشارة أنها تفهمنى تماما.

ثم رسمت فى ركن آخر من الفرخ نظامنا الشمسى العزيز بكواكبه الرئيسية. حددت كوكب الأرض ثم أشرت بأصبعى إلى صدرى.

كانت زيرا أبطأ فى الفهم هذه المرة، هى الأخرى عينت كوكب الأرض ثم أشارت بأصبعها إلى أعلى. أومأت لها بالإيجاب. وأصابتها صاعقة وبانت عليها حالة اضطراب عقلى. بذلت أقصى ما فى وسعى لمساعدتها عن طريق رسم خط منقوط بين الأرض وسورور محددا سفينتنا بمقياس رسم مختلف وهى فى مسارها. جعلت هذه الإضافة الأخيرة الأمر جليا بالنسبة لها. صرت على يقين الآن من أنها على معرفة بطبعيتى الحقيقية وأصلى. أوشكت على وشك الاقتراب منى إلا أن زايوس ظهر فى نهاية الردهة وهو يؤدى دورة التفتيش التقليدية.

طافت بعينى أنثى القردة نظرة رعب. أسرعت بتجعيد فرخ الورق ودسّت دفتر ملاحظاتها فى جيبها وقبل أن يصل إلينا إنسان الغاب وضعت سبابتها على فمها فى توسل. نصحتنى بهذه الطريقة بألا أظهر طبيعتى الحقيقية لزايوس. أطعتها دون أن أفهم سبب هذا الغموض وأنا على اقتناع بأنى وجدت حليفا لى، واستأنفت فورا أداء سلوك الحيوان الذكى.

(١٩)

منذ هذه اللحظة، اتسعت معرفتى بالعالم القردى ولغتهم بسرعة كبيرة والفضل يعود فى ذلك إلى زيرا. وكانت تتحايل لترانى وحدى كل يوم تقريبا بحجة إجراء اختبار ما وتولّت تعليمى وفى الوقت الذى تدرّس لى لغتها تعلمت لغتى بسرعة أدهشتنى. وفى خلال أقل منْ شهرين، أصبحنا قادرين على عقد مناقشات فى شتى الموضوعات. بدأت أفهم شيئا فشيئا كوكب سورور وسأحاول الآن وصف خصائص هذه الحضارة الغريبة.

وبمجرد ما تمكنا من التحادث سويا أنا وزيرا، وجهت الحديث ناحية العنصر الأكثر إثارة لفضولى: هل القردة هى الكائنات الوحيدة العاقلة، أوسادة المخلوقات على سطح هذا الكوكب ؟

قالت "ماذا تظن أنت؟ القردة بالطبع هم فقط الكائنات العاقلة، وهى الوحيدة التى تحمل عقلا وكذلك جسما. ويعترف أكثر علماؤنا نزوعا نحو المذهب المادى بالجوهر الخارق للعقل القردى".

كانت مثل هذه العبارات التى قالتها تجعلنى أجفل.

"حسنا يا زيرا، من هم البشر ؟"

كنا نتحادث بالفرنسية لأنها، كما أسلفت بالقول، أسرع فى تعلم لغتى عنى فى تعلم لغتها. منذ البداية قامت بعض المصاعب فى تفسير مدلول كلمتى "بشر" و"قردة" اللتين تثيران مدلولا مختلفا لدى كلينا ولكن سرعان ما تغلبنا على هذه العقبة فى يسر. كل مرة تقول فيها كلمة " قردة" أترجمها عقليا على أنها "كائنات

عليا، ذروة التطور". عندما تتحدث عن البشر أعرف أنها تعنى المخلوقات المتوحشة التى وهبت بنوع معين من المحاكاة وتحمل أوجه قليلة للتشابه من الناحية التشريحية مع القردة ولكنها ذات روح فى طور جنينى وخالية من ملكة التفكير .

قالت بشكل براجماتى " منذ قرن مضى فقط بدأنا نحرز تقدما هائلا فى علم أصل الأنواع حيث كان يعتقد أن أنواع الكائنات غير قابلة للتغير وقد خلقها بصفاتها الحالية رب جبار فى قدرته. ولكن سلسلة من المفكرين العظام، جميعهم من الشمبانزى، عدلّت أفكارنا فى هذا الصدد كلية. واليوم نعرف أن كل الأنواع قابلة للتغير ومن المحتمل أنها نشأت من مصدر واحد".

"هل معنى هذا أن القردة انحدرت من أصل بشرى؟"

"البعض منا يرى هذا؛ لكن الأمر ليس على هذا النحو. إن القردة والبشر فرعين منفصلين من نقطة مشتركة ولكن فى اتجاهين مختلفين، تطور أولهما تدريجيا حتى وصل إلى التفكير العاقل بينما قبع الثانى فى حالته الحيوانية. ومع هذا، فمازال الكثيرون من إنسان الغاب يصرون على إنكار هذه الحقيقة الجلّية".

"ذكرت يا زيرا . . . أن سلسلة المفكرين العظام جميعهم من الشمبانزى؟"

إننى أسرد الأحاديث كما وقعت، فى نتف غير متعاقبة لأن حماستى دفعت زيرا إلى الدخول فى استطرادات مطولة لا تحصى.

أكدت فى تحمس "إن معظم الاكتشافات العظيمة يقف وراءها الشمبانزى".

" هل توجد طبقات مختلفة بين القردة؟"

"توجد ثلاث عائلات متباينة، كما لاحظت، كل منها يحمل خصائصه المتميزة: الشمبانزى والغوريلا وإنسان الغاب. ألغيت الحواجز العنصرية وسوّيت الخلافات الناشئة عنها بفضل الحملات التى نظمها الشمبانزى بشكل أساسى. واليوم لا توجد اختلافات بيننا من حيث المبدأ".

تشبثت بالتساؤل "لكن هل معظم الاكتشافات توصل إليها الشمبانزى؟".

" هذا صحيح".

"ماذا عن الغوريلا ؟"

قالت فى استهزاء "هم أكلة اللحم. كانوا السادة الإقطاعيين واحتفظ الكثيرون منهم بشبق السلطة. إنهم يستمتعون بالتنظيم والإدارة. ويحبون الصيد والهواء الطلق. وينخرط أفقرهم فى العمل الذى يتطلب قوة بدنية".

"وإنسان الغابة ؟"

نظرت إلىّ زيرا ثم انفجرت فى الضحك.

قالت "هم يمثلون المؤسسة الرسمية للعلم. لابدو أنك قد لاحظت هذا بالفعل وستتوفر لديك العديد من الفرص لتتأكد من ذلك. إنهم يعرفون الكثير من الكتب. ويحمل كلهم الأوسمة. وينظر إلى بعضهم على أنهم المشاعل المتوهجة فى فرع علمى من التخصص الضيق الذى يتطلب ذاكرة قوية. بعيدا عن هذا. . . ".

أومأت إيماءة إزدراء. لم أواصل الحديث فى هذا الصدد ولكنى نبّهت عقلى للعودة إليها فى وقت لاحق. وجهت الحديث إلى أفكار أكثر عمومية. وبناء على طلبى، رسمت شجرة أصل القردة التى حددها أفضل الخبراء حتى الآن. وجاءت تحمل شبها شديدا بالرسوم البيانية التى مثلت عملية التطور بالنسبة لنا. من ساق واحدة اختفت جذورها فى ثنايا المجهول تفرعت أطراف متنوعة على التوالى: الخضروات، الكائنات وحيدة الخلية، ثم الرخويات والشوكيات؛ وصولا بعد ذلك إلى الأسماك والزواحف وأخيرا إلى الثدييات. امتدت الشجرة لتضم فصيلة مناظرة للقردة الشبيهة بالإنسان لدينا وعند هذه النقطة، خرج فرع آخر: الخاص بالبشر. وتوقف هذا الفرع عن النمو بينما صعدت الساق الرئيسية ليتمخض عنها مختلف أنواع قردة ما قبل التاريخ حاملة أسماء همجية، وفى نهاية المطاف تجسدت فى

ذروة هى القرد العاقل مشكّلا ثلاث نقاط حادة فى التطور : الشمبانزى، الغوريلا وإنسان الغاب. كانت جليّة جلاء مطلقا.

واختتمت زيرا حديثها قائلة "إن عقل القردة الذى تطور صار معقدا ومنظما بينما لم يكد يطرأ على عقل البشر أى تحول".

"ولما يا زيرا تطور العقل القردى بهذه الطريقة ؟"

مما لا شك فيه أن اللغة شكلت عاملا أساسيا. لكن لماذا القردة تكلمت وليس البشر؟ اختلفت اللآراء العملية فى هذه النقطة. رأى البعض أنها تدخلا إلهيا غامضا. وأكد آخرون أن عقل القردة هو أساسا محصلة حقيقة أن القردة لها أربع أياد خفيفة الحركة.

قالت زيرا "من المرجح أن الإنسان بيدين فقط تنتهى كل واحدة منهما بأصابع قصيرة خرقاء، من المرجح أنه منذ ميلاده وهو معوّق، غير قادر على التقدم واكتساب معرفة محددة عن الكون. من أجل هذا، لم يستطع الإنسان أبدا تحقيق أى نجاح يذكر فى مجال استخدام أى أداة. آه من الممكن أن يكون قد حاول على نحو أخرق. . . . لقد عثر على آثار غريبة. ويوجد الآن عدد من المشروعات البحثية التى تجرى حاليا حول هذا الموضوع بالذات. إذا كنت مهتما بهذه المسائل، سأعرفك يوما ما على كورنيليوس، فهو أقدر منى على مناقشتها معك".

"كورنيليوس ؟"

قالت زيرا على استحياء "إنه خطيبى، إنه عالم عظيم جدا إنه عالم حقيقى".

"شمبانزى ؟"

وأنهت حديثها قائلة "بالطبع. . . . على أية حال إليك ما اعتقده أيضا: كوننا مزودين بأربعة أيد يعد أحد أهم العوامل فى تطورنا الروحى. لقد ساعدنا ذلك على تسلق الأشجار وبالتالى تكوين صورة ثلاثية الأبعاد عن الفضاء بينما ثبت

الإنسان فى الأرض، نتيجة لتشوه بدنى، ونام على البسيطة. وتمكنا من صنع الأدوات كخطوة تالية لأننا نمتلك مهارة استخدامها. وأعقب ذلك إنجازات، وهكذا نجحنا فى الارتقاء بأنفسنا إلى مستوى الحكمة".

كثيرا ما كنت أسمع على الأرض ذات الحجة على نحو معكوس لشرح تفوق الإنسان. وعلى أية حال، بعد أن فكرت بالأمر، خلصت إلى أن منطق زيرا لا يزيد ولا ينقص فى درجة الإقناع عن منطقنا.

وددت لو أننى استطعت مواصلة المناقشة ومازال لدى آلاف الأسئلة لأطرحها إلا أن زورام وزنام قاطعانا بالإتيان بوجبة العشاء، فحيتنى زيرا تحية المساء على عجل وانصرفت.

بقيت فى قفصى مع نوفا رفيقتى الوحيدة. فرغنا من تناول الطعام. وغادر الغوريلا القاعة بعد أن أطفأوا الأنوار، باستثناء المصباح الموجود على المدخل الذى يصدر عنه لمعانا باهتا. نظرت إلى نوفا وفكرت فيما تعلمته أثناء النهار. من الواضح أنها لم تبال بزيرا وأغاظتها هذه الأحاديث. فى البداية، اعترضت بأسلوبها المعتاد وحاولت أن تفصل بينى وبين زيرا بجسدها بأن تقفز فى أنحاء القفص وتمزق القش وتلقيه فى وجه الدخيلة. اضطررت لاستخدام القوة لأجعلها تلزم الهدوء. وبعد أن تلقت صفعات مدوية على وجهها الجميل، سكنت فى نهاية الأمر. لقد سمحت لنفسى بأن أنخرط فى هذا السلوك الوحشى بدون تفكير تقريبا؛ فيما بعد أحسست بتأنيب الضمير ولكن يبدو أنها لم تحمل ضغينة لى نتيجة لذلك.

أنهكت ذهنى فى استيعاب نظرية التطور القردية. وسعدت عندما رأيت نوفا تقترب منى زحفا فى الظلام وتتوسل بطريقتها النصف بشرية والنصف حيوانية فى ملامسات توصلنا تدريجيا إلى صيغة بشأنها:صيغة منفردة، تفاصيلها غير ذات أهمية، تقوم على مساومة وتنازلات متبادلة بين أساليب العالم المتحضر وعادات هذا الجنس البشرى العجيب الذى يسكن كوكب سورور .

(٢٠)

كان يوما مشهودا بالنسبة لى. وافقت زيرا، بعد توسلاتى، أن تخرجنى من معهد الدراسات البيولوجية المتقدمة - هذا هواسم المؤسسة - وتجعلنى أطوف بالبلدة.

وافقت على هذا فقط بعد أن غالبها التردد فترة طويلة. وتتطلب منى الأمر بعض الوقت لإقناعها بصورة نهائية بأصلى الحقيقى. وحتى ذلك الحين، على الرغم من اعترافها بالأدلة أثناء وجودها معى إلا أن الشكوك تراودها من جديد فى وقت لاحق. حاولت أن أضع نفسى مكانها. كان لا يمكن إلا أن تكون قد تعرضت لصدمة نفسية عميقة عندما وصفت لها حال البشر وفوق كل هذا حال القردة على كوكبنا كوكب الأرض. وأخبرتنى فى أعقاب ذلك بأنها آثرت اعتبارى ساحرا أو دجالا بدلا من أن تصدق أقوالى. إلا أنها، فى نهاية المطاف، وضعت ثقتها الكاملة فىّ بعد أن واجهتها بحقائق وأدلة راكمتها، بل شرعت فى وضع خطة لاستعادة حريتى، وهو ما لم يكن بالأمر اليسير، كما شرحت لى فى ذلك اليوم. فى غضون ذلك، جاءت لتأخذنى فى نزهة مع بدء ظهيرة ذلك اليوم.

شعرت أن قلبى يخفق بعنف لمجرد أن طافت بخيالى فكرة تنسم الهواء الطلق ثانية. لكن حماسى ألجم قليلا عندما رأيت أنها ستقودنى بحبل. أخرجنى الغوريلا من القفص وصفقا الباب وراءهما فى وجه نوفا ووضعا حول رقبتى طوقا من الجلد تدلت منه سلسلة معدنية قوية. أمسكت زيرا بالطرف الآخر للحبل وقادتنى بعيدا بينما أثار تعاطفى أنين صدر عن نوفا يقطّع نياط القلب. لكن حين أظهرت

لها بعض الشفقة ولوّحت لها تلويحا ودودا، غضبت زيرا وجرّتنى إلى الأمام من عنقى. وبما أنها مقتنعة الآن بأننى أملك عقل قرد، فإن حميميتى مع هذه الفتاة أثارت حفيظتها بل وصدمتها.

تبخر هذا الانفعال عندما صرنا وحدنا فى ظلام الردهة المهجورة.

ضحكت قائلة "لا أظن أن البشر على الأرض معتادون على أن يسحبهم القردة بحبل كهذا ؟"

أكدت لها أن هذا لا يحدث مطلقا. اعتذرت شارحة لى أنه بالرغم من أن عددا قليلا من البشر المروّضين يمكن أن يؤخذوا إلى الخارج بدون أن تنتابهم حالة هياج، فإنه من الأكثر اعتيادا أن أكون مقيدا. وبالتالى فإننى إذا أثبت أنى غير مؤذ فمن الممكن أن تحررنى من أغلالى.

ونسيت جزئيا طبيعتى الحقيقية مثلما اعتادت أن تفعل كثيرا فأخذت تنصحنى بشأن سلوكى مما أشعرنى بمهانة عميقة.

"فوق كل شىء يجب أن تحذر ألا تتحرش بالمارة أوتكشر عن أنيابك لهم أوتنبش بأظفارك طفلا جاء وقلبه مطمئن إليك ليداعبك. إننى لم أرغب فى أن اضع كمامة على فمك لكن. . . .".

توقفت فى وسط الجملة ثم انفجرت فى الضحك.

صاحت "اعذرنى، اعذرنى! دائما ما أنسى أنك تحمل عقلا كالقردة".

ربتت على كتفى ربتة خفيفة كاعتذار. أذابت معنوياتها العالية سخطى المتصاعد. كنت أحب أن أسمعها تضحك بينما يجعلنى عجز نوفا عن إظهار فرحتها فى بعض الأحيان أن أتنهد. شاركت أنثى القردة سرورها. وفى الردهة شبه المعتمة، لم أستطع أن أتبين ملامح وجهها باستثناء قمة خطمها الأبيض. كانت قد ارتدت معطفا وتنورة أنيقين للتنزه ووضعت لفاع على رأسها فأخفى

أذنيها. للحظة نسيت طبيعتها القردية وتأبطها. ووجدت هى هذه اللفتة من جانبى طبيعية ولم تعترض. ومشينا جنب إلى جنب على هذا النحو لمسافة. فى نهاية الردهة، المضاءة من نافذة على جدار جانبى، سحبت يدها بسرعة واندفعت بعيدا. وعادت إلى مزاج أكثر جدية، وسحبتنى من السلسلة.

قالت وهى متضايقة قليلا "يتعين عليك ألا تتصرف بهذه الصورة فأنا من الأساس مخطوبة و-".

"أنت مخطوبة!"

أصابتنى عدم لياقة تعليقها على لفتتى التى رفعت فيها التكلف بالدهشة مثلما أصابتها. وصححت نفسها وقد احمر خطمها خجلا. "أعنى أنه يتعين ألا يشك أحد ما بشأن طبيعتك حاليا. أؤكد لك أن هذا فى مصلحتك".

عملت بنصيحتها وسمحت لنفسى أن تقودنى فى هدوء. تركنا حارس بوابة المعهد، وهو غوريلا يلبس زيا، نخرج ونظر إلىّ فى فضول بعد أن حيّا زيرا. تعثرت على الرصيف قليلا، شعرت بدوار من السير وإنبهار عينىّ من شدة التماع منكب الجوزاء بعد أن أمضيت ما يزيد على ثلاثة أشهر فى الأسر. استنشقت الهواء الدافىء وفى الوقت ذاته أحسست بالحرج من التجول عاريا. اعتدت هذا وأنا فى قفصى لكن أحسست بالبشاعة وعدم اللياقة ان أظهر هكذا تحت أعين القردة المارين الذين ظلوا يحدّقون فىّ. رفضت زيرا جملة وتفصيلا ارتدائى ملابس مؤكدة أن شكلى سيكون أكثر سخافة وأنا متنكر مثل البشر المروّضين المعروضين فى الملاهى. كانت بلا شك محقة. فى واقع الأمر، فإذا التفت المارة ليحدقوا بى، لا يرجع ذلك إلى كونى عار إنما لأننى ببساطة من البشر وهو نوع يثير فى الشوارع نفس نوع الفضول الذى يثيره الشمبانزى فى شوارع مدينة فرنسية. تمثل رد فعل الكبار فى الابتسام ابتسامة عريضة ومضوا إلى حال سبيلهم، أما صغار القردة فتحلقوا حولى فى نشوة كبيرة. قادتنى زيرا على عجل

إلى سيارتها ووجهتنى للجلوس فى المقعد الخلفى وجلست هى خلف المقود وقادت السيارة فى بطء عبر الشوارع.

هيأت نفسى الآن لرؤية البلدة - التى تعد عاصمة لإقليم قردى مهم - التى لمحتها بالكاد لدى وصولى، هيأتها لرؤيتها مأهولة بالمشاة من القردة، قائدى الدراجات البخارية من القردة، تجار الحوانيت من القردة، رجال أعمال من القردة وقردة يرتدون زيا مهمتم استتباب الأمن والنظام. وبعيدا عن هذا، فإنها لم تخلّف داخلى انطباعا عظيما. تماثلت منازلهم مع منازلنا وكذلك طرقهم التى اتسمت بالقذارة إلى حد ما مع طرقنا. كانت حركة المرور أخف من عندنا. أما أشد ما صدمنى هو الطريقة التى يعبر بها المشاة الشارع، حيث لا توجد علامات محددة للمرور إنما معابر علوية تتكون من إطار معدنى يتعلقون به بأياديهم الأربعة. كانوا جميعهم يضعون قفازات جلدية أنيقة لم تعوق قدرتهم على الإمساك.

وبعدما طافت زيرا بى بما يكفى لإعطائى صورة عامة عن البلدة، أوقفت السيارة أمام بوابة عالية رأيت من خلالها كتلا من الزهور .

قالت "ها هو المتنزه، يمكننا أن نتمشى قليلا. وددت أن أريك أماكن أخرى - على سبيل المثال متاحفنا التى تعتبر تحفة - لكن هذا ليس ممكنا بعد".

أكدت لها أننى سأبتهج إذا استطعت أن أسير.

وواصلت حديثها "بالإضافة إلى أننا سنترك وشأننا هنا. لا يوجد الكثير من الأشخاص فى المكان كما أنه آن أوان التحدث فى أمر جاد وخطير".

(٢١)

"لا أظن أنك مدرك، أم تراك مدرك حجم الخطر الذى أنت معرض له هنا على كوكب سورور ؟"

"لقد تعرضت بالفعل لبعض التجارب على هذا الصعيد لكنى أحس أننى إذا أظهرت أصولى الحقيقية – ويمكننى ذلك الآن عن طريق تقديم الدليل الناصع – فلسوف يعترف القردة بى كأخ روحى لهم".

"هنا يكمن الخطأ فيما تقول. الآن أنصت إلىّ. . . ".

كنا نتمشى فى المتنزه والممرات مهجورة تقريبا ولم نصادف أكثر من زوج أو زوجين من العشاق المتيمين اللذين أثار وجودى فضولهما لحظيا. أنا، من جانبى، حدقت فيهما بلا خجل، بعد أن عزمت على ألا أفوّت ولو فرصة واحدة فى التعرف على العادات القردية.

وسارا وهما يطوّقان خصر كل منهما وجعل طول ذراعهما هذا التطويق محكما ومعقدا. كثيرا مايقفان عند ركن فى الطريق ليتبادلا قبلة أو اثنتين. وبين الحين والآخر، يختلسان نظرة حولهما ثم يتعلقان فى أحد فروع الشجر الدانية ويتأرجحان. وكانا ينفذان هذه الحركة بدون أن ينفصلا، وكل واحد منهما يستخدم يدا واحدة وقدما واحدة فى سهولة حسدتهما عليها ثم يختفيان بعد ذلك وراء أوراق النباتات.

قالت زيرا "الآن أنصت إلىّ إن قاربك" – أخبرتها من قبل بالتفصيل عن كيفية وصولنا إلى هذا الكوكب – "قاربك اكتشفوه؛ أوعلى الأقل ما تبقى منه بعد أن

خرّب. وأثار فضول باحثينا. وأدركوا أنه ليس مصنوعا هنا".

"هل تبنون أشياء من هذا القبيل ؟"

"نعم لكن ليس بهذه الطريقة المتقنة. فقياسا على ما أخبرتني به فإننا متأخرون عنكم كثيرا. ومع هذا فإننا أطلقنا أقمارا صناعية حول كوكبنا، وحمل آخرها كائنا حيا: إنسان. اضطررنا لتدميره أثناء طيرانه لأننا لم نستطع استعادته".

قلت وأنا غارق فى الفكر "فهمت، إذن أنتم تستخدمون البشر أيضا من أجل هذا النوع من التجارب".

"هذا ما ليس لنا حيلة فيه. . . على أية حال فإن صاروخك اكتشف".

"ماذا عن سفينتنا، الموجودة فى مدار كوكب سورور خلال الأشهر القليلة الماضية ؟"

"لم أسمع شيئا عنها. لابد أنها أفلتت من ملاحظة علماء الفلك. . . لكن توقف عن مقاطعتى. وقدم بعض العلماء نظرية بشأن قدوم هذه الآلة من كوكب آخر وأنها حملت روادا. وعجزوا عن أن يجازفوا بخطوة إضافية ويتخيلوا كائنات ذكية على هيئة بشر ".

صحت "لكن عليك أن تخبريهم يا زيرا! قد نالنى ما فيه الكفاية من العيش كالسجين، حتى داخل أكثر الأقفاص راحة، حتى ولو أنت التى تعتنين بى. لما تخفينى بعيدا عن أعين الناس؟ لما لا تميطين اللثام عن حقيقتى للكل ؟"

توقفت زيرا وأخذت تنظر حواليها ووضعت يدها على ذراعى.

"لماذا ؟ أن ما أفعله كل من أجل مصلحتك البحتة. هل تعرف زايوس ؟"

«طبعا. أردت أن أحدثك بشأنه. حسنا ؟"

"هل لاحظت أثر محاولاتك الأولى لإثبات عقلانيتك له؟ هل تدرى أننى حاولت مائة مرة إخباره بشأنك واقترحت - بمنتهى الحذر! - أنك ربما لست وحشا بالرغم مما توحى به المظاهر ؟"

"رأيتكما تتحادثان سويا أحاديث مطولة ولاحظت أنك لم تتفقين معه".

هتفت زيرا قائلة "إنه عنيد كالبغل وغبى كإنسان! واسفاه، هكذا تصير الأمور دائما مع كافة إنسان الغاب تقريبا. لقد أصدر حكمه مرة واحدة وبصورة نهائية بأن بكل مواهبك ترجع إلى حاسة حيوانية متطورة للغاية ولا يوجد شىء يمكن أن يجعله يغير رأيه. والشىء المؤسف هو أنه أعدّ رسالة علمية مطولة عنك يؤكد فيها أنك رجل مروض، أى رجل تدرب على أن يؤدى خدعا معينة دون أن يعيها ربما التقطها خلال فترة أسر سابقة".

"الحيوان الأحمق!"

"بالقطع. تكمن العقبة الوحيدة فى أنه يمثل العلم الرسمى وهو ذو نفوذ. ويعد من أعلى المسئولين شأنا فى المعهد، وجميع التقارير أقدمها من خلاله. أنا شبه متيقنة من أنه سيتهمنى بالهرطقة العلمية إذا ما حاولت الكشف عن حقيقة حالتك، كما تقترح. سأطرد من المعهد. وهذا ليس مهما، لكن هل تدرك ما الذى يمكن أن يحدث لك بعدئذ ؟"

"ما هوالمصير الأسوأ من معيشتى فى قفص ؟"

"كن ممتنا للرحمة التى تنعم بها وتراها صغيرة! هل تدرى أننى اضطررت لأن أدبر الخطط وأتآمر من أجل ألا يرسلوك لقسم المخ ؟ لا يوجد شىء سيمنعه من إرسالك لو أصررت على أنك مخلوق عاقل".

"ما هو قسم المخ ؟"

"إنه القسم الذى تجرى فيه عمليات جراحية خطيرة للغاية على المخ: الترقيع؛ المراقبة وتعديل المراكز العصبية؛ الاستئصال الجزئى بل والكلى".

"وأنتم تجرون هذه التجارب على البشر !"

«بالطبع. يعتبر عقل الإنسان مثل بقية تكوين جسمه الأقرب تشريحيا إلى أجسامنا. أنه من الصدف المذهلة أن تضع الطبيعة تحت تصرفنا حيوان يمكن أن ندرس عليه أجسادنا. يخدمنا الإنسان فى الكثير من حقول البحث كما ستدرك ذلك فيما بعد... وفى هذه اللحظة بالذات شرعنا فى إجراء سلسة مهمة من التجارب".

"والتى تحتاجون من أجلها عدد كبير من المادة البشرية".

"عدد ضخم جدا - وهو ما يفسر عمليات إفزاع الحيوانات لصيدها التى ننفذها فى الأدغال لتجديد مخزوننا. لسوء الحظ، فإن الغوريلا هم الذين ينظمون هذه العمليات ولا نستطيع أن نوقفهم من الانغماس فى هوايتهم المفضلة وهى الرماية. وبالتالى فإننا نفقد عددا كبيرا ممن يمكن إجراء تجارب عليهم".

تمتمت وأنا أعض على شفتى " ياللخسارة الفظيعة، لكن لنعد إلىّ".

"هل تعرف لما أصررت على إبقاء سرنا ؟"

"هل يتعين على أن أقضى بقية حياتى فى قفص ؟"

"لن يحدث هذا إذا ما نجح ما فى ذهنى. لكن يتعين عليك ألا تسقط القناع الذى تضعه حتى يحين الوقت المناسب وتمتلك كافة أوراق اللعبة. إليك اقتراحى: فى خلال شهر من الآن سنعقد المؤتمر البيولوجى السنوى وهو حدث مهم يسمح للعامة بحضوره وممثلى كبريات الصحف. وبالنسبة إلينا الآن يعتبر الرأى العام عنصرا أقوى من زايوس، أشد نفوذا من كافة إنسان الغاب مجتمعين، بل أقوى من الغوريلا. هنا ستسنح فرصتك. يتعين عليك أن تميط اللثام عندما يكون المؤتمر مجتمعا بكامل هيئته لأنك سيقدمك لهم زايوس الذى، كما أخبرتك، يعد تقريرا طويلا عنك وعن غريزتك الشهيرة. سيكون أفضل شىء يحدث هو أن تعرض

قضيتك بنفسك. وسيحدث هذا ضجة لن يستطيع زايوس معها إيقافك. وستتولى أنت مهمة شرح موقفك بوضوح للمجتمعين وإقناع الجمهور والصحفيين بك مثلما أقنعتنى بالفعل".

"وإذا قمعنا زايوس وبقية إنسان الغاب".

"اضطر الغوريلا ذات مرة أن يذعنوا للرأى العام وسرعان ما سيجبرون إنسان الغاب الحمقى على رؤية منطقية الأمر. وليس كلهم، على أية حال، فى حماقة زايوس كما أنه يوجد بين العلماء قلة من الشمبانزى اضطرت الأكاديمية إلى ضمهم بسبب اكتشافاتهم العظيمة. ومن بين هؤلاء كورنيليوس خطيبى، وهو الشخص الوحيد الذى حدثته عنك. ووعدنى ببذل أقصى ما يستطيع لأجلك. ومن الطبيعى أن يهتم بلقائك قبل الشروع فى أى جهد بحيث يتأكد من روايتى التى لا تصدق عنك. ويعد هذا سببا جزئيا لإتيانى بك إلى هنا اليوم. لقد تواعدت معه على أن ألقاه ولن يتأخر كثيرا".

كان كورنيليوس ينتظرنا بالقرب من كتلة نباتات سرخسية عملاقة. كان شمبانزى جميل الشكل، أكبر من زيرا بالتأكيد لكنه صغير للغاية على كونه عالما أكاديميا. وأدهشنى، بمجرد ما رأيته، التعبير الذى ارتسم على وجهه وعكس اتقاد الذهن وحدته على نحو فريد.

همست لى زيرا بالفرنسية "ما رأيك فيه ؟"

أدركت من سؤالها أنى حزت على ثقة أنثى القردة الكاملة. غمغمت بعبارة فيها إطراء وذهبنا نحوه.

تعانق الخطيبان بنفس أسلوب عشاق المتنزه. فتح ذراعيه على امتدادهما بدون أن يلقى نظرة اتجاهى. بالرغم مما أخبرته عنى بات واضحا أن وجودى لا يعدو وجود حيوان أليف. ونستنى زيرا نفسها للحظة وتبادلت قبلا طويلة من الخطم. ثم تصلبت وفكّت من عناقه، وأرخت عينيها لأسفل حياء.

"يا محبوبى لسنا وحدنا".

"نعم، أنا هنا" قلتها فى سمو بأفضل ما وسعتنى إجادتى للغة القردية.

هتف كورنيليوس منزعجا "ما هذا ؟"

"قلت أنا هنا. اعتذر عن تذكيركما بهذه الحقيقة. لم تحرجنى مظاهر الحميمية بينكما على الإطلاق، لكن يمكن أن تحملا هذا ضدى فى وقت لاحق".

هتف الشمبانزى المثقف قائلا " حسنا أنا لم أحس مطلقا!". انفجرت زيرا فى الضحك وقدمتنا إلى بعضنا البعض.

قالت "دكتور كورنيليوس من الأكاديمية، أوليس ميرو أحد سكان النظام الشمسى أولأكون أكثر تحديدا، من الأرض".

قلت "سعيد بالتعرف عليك، حدثتنى زيرا عنك. أهنئك على هذه الخطيبة الرائعة".

ورفعت يدى لمصافحته. تحفظ على مصافحتى وكأن ثعبان أطل برأسه أمامه.

نظر إلى زيرا فى ذهول تام وغمغم قائلا "إذن ما أخبرتنى به حقيقة ؟"

"يا محبوبى، هل اعتدت أن ألقى على سمعك الأكاذيب ؟"

واستجمع قواه فهو رجل من رجال العلم وبعد لحظة من التردد صافحنى.

"كيف حالك ؟"

رددت "كيف حالك؟ مرة أخرى لابد أن اعتذر عن ظهورى فى هذه الحالة من العرى".

قالت زيرا ضاحكة "هذا كل مايفكر فيه. إنه مصاب بعقدة. لا يدرك وقع ارتدائه الملابس".

"وأنت أتيت من. . . . من . . . . . ؟"

"من الأرض، وهو أحد كواكب الشمس".

من الواضح أنه لم يول ثقة كبيرة لما أسرت به زيرا له، مفضلا أن يصدق أن في الأمر خدعة ما. كنا نتمشى سويا، هما الاثنان على بعد خطوات قليلة منى وذراعاهما متشابكان، وأنا أتبعهما والسلسلة التى تطوق عنقى مشدودة عن آخرها حتى لا نثير انتباه المارة إذا ما قابلناهم. لكن ردودى استثارت فضوله العلمى إلى درجة جعلته كثيرا ما يتوقف فجأة ويترك خطيبته ونخوض فى مناقشة وجها لوجه مصحوبة بإيماءات جارفة ورسوم على رمال الممرات. لم تعبأ زيرا، بل على النقيض من ذلك، بدت مسرورة من الانطباع الذى تركته.

أولى كورنيليوس بالطبع اهتماما خاصا بنشوء الإنسان العاقل على الأرض وجعلنى أعيد عليه مرارا كل ما عرفته عن هذا الموضوع. وفكر مليّا فيما قلته لبعض الوقت. وأخبرنى أن كشوفى تشكل وثيقة لها أبعد الأثر على العلم وبشكل خاص عليه حيث أنه ضالع حاليا فى بحث مضن للغاية عن الظاهرة القردية وما فهمته هو أن هذه مشكلة لم تحسم بعد بالنسبة له، وأنه لم يتفق مع النظريات السائدة فى هذا المجال التى تحظى بقبول عام. لكنه تحفظ بشأن هذا الموضوع ولم يدعنى أعرف آراءه بصورة كاملة خلال أول مقابلة بيننا.

أيا كان الوضع، فقد صرت شيئا ذى جاذبية كبيرة له وهو مستعد للتضحية بثروة للحصول علىّ فى معمله. وتحدثنا بعد ذلك بخصوص وضعى الحالى وزايوس الذى اتضح أن كورنيليوس على علم تمام بحجم حماقته وتعاميه. أقر خطة زيرا. ووعد بأنه سيمهد الأرضية لحالتى من خلال الإشارة للغموض الذى يكتنفها فى حضور بعض من زملائه.

عندما حانت لحظة رحيله، مد يده مصافحا بدون لحظة تردد، بعد أن تأكد أولا

من أن الممر خال من المارة ثم قبّل خطيبته ومضى وظل يلتفت خلفه عدة مرات ليقنع نفسه بأنى لست مجرد هلوسة.

قلت ونحن عائدان للسيارة "قرد شاب ساحر".

"وعالم عظيم. أنى متأكدة من أنك ستتمكن من خلال مساندته من إقناع المؤتمر".

همست فى أذن زيرا وأنا فى المقعد الخلفى "يا زيرا سأكون مدينا لك بحريتى وبحياتى".

أخذت أفكر فى كل ما فعلته لى منذ وقوعى فى الأسر. بدونها ما كنت سأتمكن من الاتصال بالعالم القردى. من الأرجح أن زايوس سيكون أقدر على استئصال عقلى ليثبت أننى لست كائنا عاقلا. ويعود الفضل لها الآن فى إيجاد حلفاء لى ويمكننى مواجهة المستقبل وبداخلى بعض التفاؤل.

قالت وقد احمرت خجلا "فعلت هذا من أجل العلم. أنت حالة فريدة لابد من المحافظة عليها بأى ثمن".

غمر الامتنان قلبى ولنت لتعبيرها المفعم بالعاطفة مما مكننى من تجاوز ملامحها البدنية. وضعت يدى على كفها الطويل الملىء بالشعر. سرت قشعريرة فى جسدها وتبينت فى عينيها توهج العاطفة. تأثر كلانا بعمق وظللنا صامتين طوال طريق العودة. وعندما أعادتنى لقفصى، صددت نوفا فى خشونة والتى حاولت الاحتفاء بعودتى بأسلوب طفولى.

(٢٢)

أعارتنى زيرا سرا مشعلا كهربائيا وسرّبت لى كتبا احتفظت بها مخبأة تحت القش. استطيع الآن أن أقرأ وأتحدث بلغة القردة بطلاقة. ظللت أقضى ساعات طويلة فى كل ليلة فى دراسة حضارتهم. اعترضت نوفا فى بادىء الأمر. اقتربت منى وتشممت واحدا من الكتب، وكشرت عن أنيابها كأنه عدو خطير. ما كان على إلا أن أركز شعاع المشعل عليها حتى هرعت إلى ركنها وهى ترتعد وتئن. أنا سيد المنزل الآن لأننى أمتلك هذه الأداة ولست بحاجة إلى خوض جدال معها ومعى هذا السلاح الباتر لإسكاتها. أحس أنها تنظر إلىّ على أنى كائن مهيب، كما لاحظت من عدة إشارات أن بقية الأسرى ينظرون إلىّ بنفس المنظور. ارتفع مقامى بصورة كبيرة واستغللت هذه الميزة بشكل ظالم. وفى بعض الأحيان، تتملكنى رغبة جامحة فى إفزاع نوفا عن طريق التلويح بالمشعل الكهربائى، لتزحف بعد ذلك فتسامحنى على قسوتى.

أزهو بنفسى الآن عقب اكتسابى فكرة واضحة تماما عن عالم القردة. إن القردة ليسوا مقسمين إلى أمم. يدير الكوكب بأكمله مجلس للوزراء، يترأسه ثلاثى مكون من غوريلا وإنسان الغاب وشمبانزى. كما يوجد مجلس تشريعى مكون من ثلاث مجالس مجلس للغوريلا وآخر لإنسان الغاب وثالث للشمبانزى يرعى كل منها مصالح الأعضاء الذين يمثلهم.

فى واقع الأمر، لا ينطبق هذا التقسيم بين السلالات الثلاث إلا فى هذا المكان فحسب. ويتمتع كافة القردة من حيث المبدأ بحقوق متساوية ومسموح لهم بإن

يشغلوا أى منصب. ومع هذا فإن كل نوع منهم عدا استثناءات بعينها، يقصر نفسه على منطقة تخصصه.

منذ الماضى السحيق، احتفظ الغوريلا بميل إلى السلطة عندما اعتادوا الحكم بالقوة والبطش وما يزالوا يشكلون أكثر الطبقات نفوذا. لا يخالطون القطيع ولا يرون أبدا ضمن مظاهرة شعبية، لكنهم هم الذين يديرون معظم المشروعات الكبرى من أرفع المستويات. يعرفون بالغريزة كيف يستثمرون مهاراتهم مع أنهم كقاعدة جهلاء. يبرعون فى فن وضع التعليمات العمومية وتوجيه القردة الأخرين. عندما يكتشف فنى اكتشافا مثيرا - أنبوب مضىء على سبيل المثال أو نوع جديد من الوقود القابل للإحتراق - فإن أحد الغوريلا يتولى، بشكل شبه دائم، استغلاله واستخلاص أكبر فائدة ممكنة منه. ولا يتصفون حقيقة بالذكاء لكنهم أكثر دهاء بكثير من إنسان الغاب. ويحصلون على ما يريدون من إنسان الغاب عن طريق مغازلة كبريائهم. ونتيجة لذلك، فإن رئيس معهدنا، من يعلو زايوس الذى يشغل منصب المدير العلمى، إدارى من الغوريلا نادرا ما يرى. جاء لحجرتنا مرة واحدة فقط. قلّبنى بعينيه فى ازدراء تفوح منه رائحة السلطان ومن جانبى انتصبت واقفا وقفة انتباه على نحو شبه آلى. ولاحظت سلوك زايوس المتذلل وبدت زيرا نفسها متأثرة بأسلوبه المهيب.

ويعمل الغوريلا، الذين لا يشغلون مواقع فى السلطة، عادة فى مهن دنيا تتطلب قوة بدنية. ويعد مبرر وجود زورام وزنام على سبيل المثال هو لتأدية العمل الشاق وبخاصة حفظ الأمن والنظام إذا استلزم الأمر.

أما عدا ذلك فإن الغوريلا صيادون بالسليقة. وتقتصر هذه الوظيفة بدرجة أو بأخرى عليهم. يأسرون الحيوانات البرية وبخاصة البشر. أشرت فى موضع سابق إلى احتياج القردة إلى أعداد ضخمة من البشر من أجل التجارب التى يجريها القردة. وتلعب هذه التجارب دورا فى حياتهم أجده مقلقا بشكل متزايد مع اكتشافى لأهميتها. ويوجد قطاع كبير من السكان القردة ضالع فى دراسة علم

الأحياء لدرجة التطرف، لكنى سآتى لهذا الأمر العجيب فى وقت لاحق. أيا كان الوضع فإن توفير مادة البشر يستلزمها مشروع منظم. وخصصت لهذه الصناعة مجموعة كاملة من الصيادين ومفزعى الحيوانات والحمّالين والتجار ويترأسها دائما الغوريلا. وأحسب أن هذه تجارة رابحة لأن الإنسان غلى سعره.

وإلى جانب الغوريلا - كدت أقول يليهم إلا أن أى تقسيم هرمى يفنده الواقع - يقف إنسان الغاب والشمبانزى. ويعد إنسان الغاب هم الأقل عددا وينطبق عليهم الوصف الموجز الذى قالته لى زيرا: هم العلم الرسمى.

وهذا وصف صحيح جزئيا، ولكن بعضهم يخوض عرضا غمار السياسة والفنون والأدب. ويتعاملون بنفس خصائصهم فى كافة هذه الأنشطة. ويشكلون الشريحة الدنيا فى كل أكاديمية بأسلوبهم المتعجرف، الصارم، المتحذلق، الخالى من الأصالة والروح النقدية، المصمم على الحفاظ على التقاليد، الأصم والأعمى أمام أى ابتكار. ويحفظون عن ظهر قلب كميات ضخمة من الكتب نتيجة لموهبتهم فى الذاكرة القوية.

يؤلفون بعد ذلك كتبا أخرى، يكررون فيها ما قرأوه، وبالتالى يحظون باحترام رفاقهم من إنسان الغاب. ربما أكون منحازا بعض الشيء إلى رأى زيرا وخطيبها فيهم، اللذان يبغضاهم، مثل جميع الشمبانزى. علاوة على ذلك، يحتقرهم الغوريلا أيضا، الذين يسخرون من افتقارهم لروح المبادرة لكنهم يستغلونهم لتحقيق مآربهم الشخصية. ويقف وراء كل إنسان الغاب تقريبا غوريلا أو مجلس من الغوريلا يؤيدونه ويثبتونه فى مركز مرموق ويعملون على أن يحصل على الألقاب والأوسمة التى يعزها أيما معزة - إلى أن يأتى اليوم الذى يتوقف عن أن يكون مرضيا. وفى هذه الحالة، يطرد بلا رحمة ويستبدل بقرد آخر من نفس النوع.

ويتبقى الشمبانزى الذين يمثلون العنصر المفكر على سطح هذا الكوكب. وتعد مقولة أن الشمبانزى يقفون وراء جميع الاكتشافات العظيمة ليست مقولة لا

أساس لها، مثلما أخبرتنى زيرا. إنما هذا تعميم مبالغ فيه قليلا، لأنه فى واقع الأمر توجد بعض الاستثناءات. على أية حال، هم يكتبون معظم الكتب الجذابة وحول موضوعات شتى. ويبدو أنهم مدفوعون بروح بحثية وثابة.

ذكرت نوعية الكتب التى يكتبها إنسان الغاب. ولسوء الحظ أنهم، مثلما تبدى زيرا كثيرا أسفها، الذين يؤلفون كل الكتب التعليمية، وينشرون فيها أخطاء بشعة بين شباب القردة. وتؤكد لى، أنه لعهد قريب، كانت الكتب المدرسية تنص على أن سورور هو مركز العالم، بالرغم من أن هذه الهرطقة نبذها منذ وقت طويل كل قرد يحمل حتى ذكاء متواضعا. ويرجع السبب الوحيد لهذا هو أنه منذ آلاف السنين عاش على سورور يوما قرد مهيب اسمه هاريستاس آمن بهذه المعتقدات وظل إنسان الغاب يكررونها منذ ذلك الحين. ومن اليسير الآن فهم موقف زيرا إزائى بعد أن عرفت أن هاريستاس هذا كان يؤمن بأن القردة فقط هم الذين يحملون روحا فقط. ولحسن الحظ، يحمل الشمبانزى عقلا نقديا يفوق الأنواع الأخرى بكثير. وفى الأعوام الأخيرة القليلة، يبدو أنهم شرعوا فى حملة منظمة للانتقاص من بديهيات المعبود القديم.

بالنسبة إلى الغوريلا، فإنهم يكتبون كتبا قليلة للغاية وهى جديرة بالاهتمام بسبب مظهرها أكثر من موضوعاتها. وألقيت على بعضهم نظرة وأتذكر عناوينها: الحاجة للتنظيم السليم كأساس للبحث، فوائد السياسة الاجتماعية، أو تنظيم رحلات صيد البشر الكبرى فى القارة الخضراء. وجميع هذه الأعمال جيدة التوثيق حيث كتب كل فصل فنى خبير ويحتوى على رسوم بيانية، جداول وفى بعض الأحيان، صور فوتوغرافية جذابة.

أدهشتنى وحدة الكوكب واختفاء الحروب والإنفاق العسكرى - لا يوجد جيش، فقط قوة للشرطة - كعناصر تعزز التقدم السريع فى كل المجالات فى العالم القردى. ليس هذا واقع الحال. بالرغم من أنه يحتمل أن سورور يكبر كوكب الأرض قليلا، إلا أنه من الواضح أن القردة يتخلفون عنا من أى ناحية من

النواحى.

لديهم كهرباء وصناعات وسيارات وطائرات ولكن فيما يتعلق بغزو الفضاء فإنهم وصلوا فقط إلى مرحلة الأقمار الصناعية. وفى مجال العلوم البحتة، أحسب أن معرفتنا بالأشياء المتناهية فى الضخامة والمتناهية فى الصغر تفوق معرفتهم. ربما يعود هذا التخلف إلى كونه محض صدفة، وليس لدى أدنى شك فى أنهم سيلحقون بنا يوما ما عندما أفكر فى قدرتهم على التطبيق والروح البحثية التى أظهرها الشمبانزى. فى واقع الأمر، يبدو أنهم مروا بفترة مظلمة من الركود استمرت فترة أطول بكثير مما حدث معنا وبالكاد دخلوا أخيرا عصرا مليئا بالإنجازات الجديرة بالاعتبار.

لابد أن أشير إلى أن هذه الروح البحثية منصبة فى اتجاه واحد: العلوم البيولوجية وبخاصة دراسة القردة، مستخدمين البشر لتحقيق هذا الغرض. ويلعب اللاحقون دورا جوهريا، وإن كان دورا مهينا، فى وجودهم. من حسن الحظ، يوجد مخزون كبير من البشر على هذا الكوكب. قرأت ورقة بحثية تثبت أنه يوجد بشر هنا أكثر من القردة. لكن عدد اللاحقين يتزايد بينما يتضاءل السابقون وبدأ القلق بالفعل يساور بعض العلماء من المخزون الاحتياطى لاستخدامات المعامل.

لا يفسر كل ما تقدم سر تطور القردة. من جانب آخر، ربما لا يكتنف الأمر أى غموض. ويعد نشوؤهم طبيعيا مثل نشوئنا. ومع هذا فأنا عاجز عن التسليم تماما بهذه الفكرة، وأعلم الآن أن بعض العلماء يعتبرون أن مسألة نشوء القردة غير واضحة على الإطلاق. وينتمى كورنيليوس إلى هذه المدرسة وأحسب أنه يليه عدد من خيرة العقول. ومما لاشك فيه أن القردة يعانون من الافتقار إلى المعلومات يتمثل فى جهلهم بمن أين أتوا ومن هم وإلى أين يتجهون. ألا يكون هذا هو الدافع وراء هذا السعار بالأبحاث البيولوجية والذى أدى إلى هذا الانحياز الخاص فى مساعيهم العلمية ؟ وعادة ما تنتهى تأملاتى المسائية بهذه الأسئلة.

(٢٣)

كثيرا ما أخذتنى زيرا فى نزهات إلى المتنزه. وفى بعض الأحيان، نقابل كورنيليوس هناك ونشترك سويا فى الإعداد للخطبة التى سألقيها أمام المؤتمر. وأخذ يقترب موعد هذا اليوم المشهود مما جعلنى متوترا. وطمأنتنى زيرا بأن كل شىء سيصبح على ما يرام. وأبدى كورنيليوس تحمسا لأن يعاد إلىّ اعتبارى وأستعيد حريتى كى يتمكن من دراستى عن قرب - يتعاون معى، بعد أن صحح نفسه، عقب ظهور الانزعاج على ملامحى رغما عنى عندما تحدث على هذا النحو.

وذات يوم غاب خطيبها عن الحضور. اقترحت زيرا الذهاب إلى حديقة الحيوانات الملحقة بالمتنزه. وددت الذهاب إلى المسرح أو المتحف، لكن هذه المتع مازالت محظورة علىّ. استطعت من الكتب فقط أن استقى بضعة أفكار عن الفن القردى. أعجبت ببعض المستنسخات من اللوحات الكلاسيكية، بورتيريهات لمشاهير القردة، مشاهد ريفية تحتوى على إناث القردة مشتهيات يرفرف حولهن قرد مجنح يمثل كيوبيد، لوحات عسكرية يعود تاريخها للوقت الذى تشن فيه الحروب وتصور غوريلا مفزعين يرتدون أزياء زاهية. كان للقردة أيضا أصحاب مدرسة إنطباعية وقليل من المعاصرين الذين انغمسوا فى الفن التجريدى. واكتشفت كل هذا، وأنا فى قفصى، على ضوء المصباح الكهربائى. أمكننى أن أحضر فقط أشكال اللهو المعروضة فى الهواء الطلق. أخذتنى زيرا لمشاهدة لعبة تشبه كرة القدم لدينا ومباراة ملاكمة، بين اثنين من الغوريلا، جعلتنى اقشعر وتجمع رياضى يهوى خلاله عدد من الشمبانزى المحمولون جوا ليرتفعوا من جديد بواسطة منصة وثب.

رحبت بزيارة حديقة الحيوانات. في البدء لم أحس بأى دهشة لأن الحيوانات حملت أوجه شبه كثيرة بينها وبين الحيوانات التى تعيش على الأرض. كانت توجد القطيات والجسيئات * والمجترات والزواحف والطيور. ما كان ليلفت انتباهى جمل بثلاثة أسنمة وخنزير برّى بقرون مثل قرون الآيائل، ذلك بعد كل ما رأيت على كوكب سورور.

بدأ ذهولى مع القسم المخصص للبشر. وحاولت زيرا إثنائى عن التوجه إلى هناك وأحسب أنها ندمت على إتيانها بى، لكن فضولى كان شديدا للغاية وشددت الحبل الذى يربطنى بقوة حتى أذعنت.

احتوى القفص الذى توقفنا أمامه على ما لا يقل عن خمسين فردا، رجالا ونساء وأطفالا معروضين هناك من أجل إدخال البهجة العظيمة على نفوس المشاهدين من القردة. وأظهروا نشاطا محموما ومفرطا حيث يثبون هنا وهناك، ويدفعون بعضهم البعض جاعلين من أنفسهم استعراضا ومنغمسين فى جميع أشكال المرح. كان بالقطع مشهدا غريبا. وعزم جميعهم على الفوز بمنة من القردة الصغار الذين تحلّقوا حول أقفاصهم، والذين أخذوا يلقون بين الحين والآخر بعض ثمار فاكهة أو قطع من الكعك تبيعها أنثى قرد عجوز عند المدخل. كان الرجل سواء البالغ أو الطفل الذى يؤدع أبرع حركة جسمانية - كتسلق القضبان أويسير على أربع أوعلى يديه - هوالذى يحصل على الجائزة، التى إن سقطت وسط مجموعة تنشب مشاجرة وجلبة عنيفة تشمل إحداث خدوش فى الوجوه وانتزاع الشعر، وتتداخل بينها صرخات حيوانات فى حالة هياج.

كما وجدت بعض الرجال الذين يتحلون بمزيد من الهدوء ورباطة الجأش ولا يشاركون فى هذه المشاجرات. جلسوا متباعدين بالقرب من القضبان وعندما يلحظون طفلا من القردة يدفع يده فى حقيبة يمدون أياديهم فى استجداء. إذا كان القرد صغيرا جدا، يتراجع للخلف بسرعة وهو فزع، لكن والديه أو أصدقائه يضيقون عليه الخناق حتى يقرر، ويده ترتجف، أن يسلّم المكافأة يدا بيد.

* النوع الذى ينتمى إليه الأفيال

وأثار ظهور رجل خارج القفص بعض الدهشة بين الأسرى والمشاهدين القردة على حد سواء. وتوقف اللاحقون عن لعبهم للحظة ليتفحصونى فى ارتياب، لكن بما أننى تسمّرت مكانى رافضا فى اعتداد العطايا التى حاول الصغار أن يقدموها لى، فقد القردة والبشر على حد سواء اهتمامهم بى وتمكنت من مراقبة كل شيء فى هدوء. شعرت بالغثيان من سخف هذه المخلوقات وبالغليان من العار إثر ملاحظتى التشابه الجسدى الشديد بيننا.

واحتوت الأقفاص الأخرى نفس المشهد الشائن. أوشكت على أن أدع زيرا تقودنى للخارج، وقلبى مثقل، عندما كتمت فجأة صرخة دهشة بجهد جهيد. هناك أمامى وسط القطيع، أبصرت رفيق رحلتى، القائد والعقل المدبر لحملتنا، البروفيسور ذائع الصيت أنتل. فقد وقع فى الأسر مثلى ومما لا شك فيه أنه أقل حظا حيث انتهى به المطاف أن بيع للحديقة.

طفرت الدموع من عينى من السعادة عقب اكتشافى أنه حى ثم اقشعر بدنى للوضع المزرى الذى آل إليها هذا العلامة. أصاب الخدر الموجع مشاعرى تدريجيا عندما أدركت أن سلوكه متطابق مع الرجال الآخرين. ما استطعت تكذيب الدليل الماثل أمام ناظرى بالرغم من أن هذا السلوك بعيد الاحتمال. كان يقف مع المجموعة الهادئة التى لم تشارك فى المشاجرات إنما مدت أياديها عبر القضبان ويلوون وجوههم فى استعطاف. راقبته وهو يتصرف على هذا النحو ولم يشى سلوكه بشيء يعكس طبيعته الحقيقية. أعطاه قرد صغير ثمرة فاكهة. أخذها العالم وقعد ضاما ساقيه وبدأ يلتهمها فى نهم وهو ينظر لولى نعمته بعين متلهفة وكأنه يأمل فى نفحة كرم أخرى. انتحبت من جديد على هذا المشهد. أخبرت زيرا بصوت خفيض بسبب سقوط دموعى. وددت لو اقتربت منه وتحدثت معه لكنها نصحتنى فى قوة بالعدول عن هذه الفكرة. لم أقدر على فعل شيئا من أجله فى هذه اللحظة وعند الالتقاء ثانية ستجدد عواطفنا، سنجازف بفضح أنفسنا مما سيهدد مصالحنا المشتركة ومن المحتمل جدا أن يفسد خططى.

قالت لى "بعد المؤتمر، عندما يجرى التعرف عليك وقبولك كشخص عاقل، حينئذ سنتدبر أمره".

كانت محقة وتركت نفسى انقاد وأنا نادم. فى طريق الرجوع للسيارة، أخبرتها بكل ما يتعلق بالبروفيسور وسمعته فى الأوساط العلمية على كوكب الأرض. تأملت كلامى مليا ووعدتنى أن تبذل أقصى ما فى وسعها لإخراجه من حديقة الحيوانات. نتيجة لذلك، صرت مبتهجا إلى حد ما لدى عودتى للمعهد لكننى رفضت الطعام الذى أتى لى به ثنائى الغوريلا فى هذه الليلة.

(٢٤)

خلال الأسبوع السابق على المؤتمر، زارني زايوس عدة مرات، مضاعفا الاختبارات السخيفة بينما ملأت سكرتيرته عدة دفاتر بملاحظات ونتائج خاصة بي. وبذلت قصارى جهدي للتظاهر بأنني أقل ذكاء كما يهوى.

حان الموعد الذي طال انتظاره لكنهم أتوا ليأخذوني في اليوم الثالث من المؤتمر حيث خصص اليومين الأول والثاني للمناقشات النظرية. كانت زيرا تطلعني على أعمال المؤتمر أولا بأول. قرأ زايوس على الحضور تقريرا مطولا عارضا إياي على أني رجل أتمتع بغرائز متوهجة ولكن خال بالمرة من ملكة التفكير. وسأله كورنيليوس بضعة أسئلة محورية للوقوف على كيفية تفسيره، في مثل الحالة، لأبعاد محددة في سلوكي. وأحيت هذه الأسئلة خلافات قديمة وكانت المناقشة الأخيرة عاصفة. وانقسم العلماء إلى مجموعتين: أولئك الذين رفضوا الاعتراف بأن الحيوان له روح من أي نوع، وآخرون رأوا أنه يوجد فقط فارق في الدرجة بين عقلية الوحوش وبين عقلية القردة. لم يشك أحد بالطبع في حقيقة الأمر سوى كورنيليوس وزيرا. ومع هذا، فإن تقرير زايوس قدم وصفا دقيقا لصفات مدهشة، لم ينتبه إلى حقيقتها هذا الأبله، خلّفت أثرا عميقا في بعض المراقبين غير المتحيزين، إن لم يكن داخل العلماء الحاصلين على الأوسمة. وسرت شائعة في البلدة بأنه جرى اكتشاف رجل خارق للعادة.

همست زيرا في أذني وهي تخرجني من القفص قائلة "سيكون هناك جمع غفير والصحافة بكاملها. إنهم جميعا على أحر من الجمر ويعرفون أنهم على وشك أن يشهدوا شيئا غير عادي. إن الفرصة سانحة تماما بالنسبة لك. تشجع!"

كنت بحاجة ماسة لمساندتها المعنوية. أحسست بأننى متوتر للغاية. ظللت أتدرب طوال الليل على الخطبة وقد حفظتها عن ظهر قلب وهى من المؤكد أنها ستقنع أكثر العقول محدودية لكن الخوف كان يسكننى من أنه قد لا يسمح لى بالتحدث.

قادنى ثنائى الغوريلا إلى الخارج وأركبانى شاحنة ذات قفص ووجدت نفسى مع العديد من البشر محل دراسة، اعتبروا مثلى جدير بتقديمهم لمؤتمر أصحاب الثقافة بسبب خصوصية ما. وصلنا أمام مبنى بالغ الضخامة تعلوه قبة صغيرة. اقتادنا حراسناْ إلى حجرة مجهزة بأقفاص ملحقة بقاعة المؤتمر. وانتظرنا هناك وفق هوى العلماء. وبين الحين والآخر، يدفع غوريلا مهيب الطلعة يرتدى زيا أسود الباب ويصيح معلنا رقما، ثم يضع الحراس حبلا حول رقبة أحد الرجال ويجرونه. كان قلبى يهدر كلما ظهر الحاجب. واستطعت من خلال الباب الموارب أن اسمع جلبة فى القاعة، وصيحات دهشة كل حين وكذلك نوبات من التصفيق. وبما أن المنادى عليهم يقتادون للخارج فور تقديمهم، فقد وجدت نفسى وحيدا فى نهاية المطاف مع الحراس فى الحجرة، أراجع فقرات الخطبة بصورة محمومة. لقد ادخرونى للنهاية مثل نجم الاستعراض. ظهر الغوريلا المتشح بالسواد للمرة الأخيرة ونادى على رقمى. قمت بسرعة وأخذت من يدىّ قرد مذهول الطوق الذى أوشك على أن يضعه حول رقبتى، وضبطته بنفسى. ودخلت قاعة المؤتمر يحيط بى الحارسان، فى خطوة راسخة. وبمجرد ما تخطيت عتبة القاعة حتى توقفت وأنا منبهر ووجل.

رأيت أكم من مشهد غريب منذ وصولى إلى سورور وظننت أننى اعتدت على القردة وتصرفاتهم للدرجة التى جعلتنى لم أعد اندهش منهم. ومع هذا، فعندما واجهنى تفرد وضخامة حجم المشهد الماثل أمامى، سيطر على دوار وسائلت نفسى ما إذا كنت أحلم.

وقفت فى مدرج مهول (ذكّرنى على نحو غريب بجحيم دانتى مخروطى الشكل) يعج كل صف فيه سواء أمامى أو فوقى بالقردة. بلغ عددهم عدة آلاف. لم يسبق لى أن رأيت هذه الحشود من القردة من قبل؛ تجاوزت غزارتهم أكثر أحلامى جموحا فى مخيلتى الأرضية المتواضعة؛ غمرتنى أعدادهم.

تعثرت وحاولت أن أتماسك عن طريق البحث عن ضوء استرشد به وسط هذه الجموع. دفعنى الحراس نحو مركز دائرة تشبه حلبة السيرك، حيث أقيمت منصة. ألقيت نظرة خاطفة على كل ما حولى. ارتفعت الصفوف المدرجة بالقردة حتى وصلت إلى السقف، وهو ارتفاع بدا لا يصدق. شغل المقاعد، الأقرب إلىّ، أعضاء المؤتمر وجميعهم تقريبا من العلماء الجهابذة يرتدون بنطلونات مقلمة ومعاطف الفراك السوداء، جميعهم يضعون الأوسمة، جميعهم تقريبا ينتمون إلى عمر الوقار وجميعهم تقريبا من إنسان الغاب. واستطعت أن أحدد بينهم، على أية حال، حفنة من الغوريلا والشمبانزى. بحثت عن كورنيليوس وسطهم فلم أجده.

وراء الجهابذة وخلف سور خصصت عدة صفوف لصغار العلماء. كما خصصت شرفة عند هذا الارتفاع للصحفيين والمصورين. وأخيرا، وعلى ارتفاع أعلى من ذلك وخلف حاجز آخر كان جمهور القردة العادى يموج، والذى بان من همهماتهم الصاخبة التى استقبلتنى، أنهم فى حالة من الاستثارة العظيمة.

حاولت أن أرى زيرا، التى من المفترض أنها تجلس بين المساعدين. أحسست أننى بحاجة إلى مساندة منها فى شكل نظرة توجهها إلىّ. وأصبت مرة أخرى بخيبة الأمل ولم أستطع أن أتبين وجها واحدا مألوفا بين جمهرة القردة الجحيمية المحيطة بى.

حولّت نظرى إلى الأساطين، كل منهم جلس على كرسى ذى ذراعين مكسى بالقماش الأحمر بينما سمح للآخرين بأن يجلسوا إما على كرسى بلا ذراعين ولا ظهر أوعلى دكاك. وذكرنى مظهرهم بزايوس بقوة، برءوسهم الغاطسة إلى مستوى

أكتافهم، ووضعوا ذراعا طويلة للغاية ومطوية نصف طية أمامهم وبجانبها ورقة نشّاف، ليخطّوا ملاحظة كل حين أو ربما رسوما طفولية. وبدا هؤلاء فاترى الهمة مقارنة بحالة الجيشان السائدة فى الدكاك العلوية. ساورنى شعور بأن دخولى والإعلان عن قدومى من مكبر للصوت يكاد يتناسب وإثارة اهتمامهم، الذى فتر ، من جديد. فى واقع الأمر، أتذكر بوضوح رؤية ثلاثة من إنسان الغاب جفلوا وهزوا رؤسهم فجأة، كأنهمْ أفاقوا من سبات عميق.

ومع هذا فإنهم جميعا صاروا الآن فى قمة اليقظة. لاشك فى أن تقديمى كان ذروة أنشطة هذا التجمع، وأحسست أننى بؤرة تركيز الآلاف من عيون القردة التى تحمل مختلف التعبيرات وتراوحت بين اللامبالاة والحماسة.

جعلنى الحارسان اعتلى المنصة حيث يجلس غوريلا مهيب الطلعة. أخبرتنى زيرا بأن المؤتمر لا يرأسه عالم، كما كان الحال فيما مضى - ففى تلك الأيام اعتاد قردة العلم، الذين كانوا يتركون وشأنهم، أن ينسوا أنفسهم فى مناقشات لا نهاية لها دون أن يتوصلوا إلى نتيجة - إنما يترأسه منظم. جلست على يسار هذه الشخصية المهمة، سكرتيرته، من الشمبانزى، التى تولت تسجيل وقائع المؤتمر حرفيا وعلى يمينها، وضع مقعد خصص بالتناوب لكل عالم يقرأ ورقة أويقدم شخصا محلا للدراسة. وتبوأ زايوس هذا المقعد وسط تصفيق فاتر. بفضل نظام من مكبرات الصوت المصحوبة بأجهزة عرض قوية، لا يفقد شيء يحدث على المنصة حتى بالنسبة للمستويات العليا فى القاعة.

دق الرئيس الجرس فخيم الصمت وأعلن أنه سيعطى لزايوس المبجل الإذن بالتحدث بغرض تقديم رجل سبق أن تحدث عنه أمام هذا التجمع. وقف إنسان الغاب وبدأ أطروحته. وفى غضون ذلك بذلت أقصى ما أستطيع لأبدو ذكيا فى تصرفاتى قدر الإمكان. وعندما تحدث عنى انحنيت واضعا يدى على صدرى الذى أثار بعض الضحك فى بادئ الأمر إلا أن رنين الجرس أخرسه على الفور.

وأدركت فى التو أننى لا أخدم قضيتى بالانغماس فى هذه الحيل، التى يمكن أن تفسر على أنها مجرد حصيلة تدريب جيد. بقيت ساكنا حتى فرغ من خطابه.

لخّص نتائج تقريره ووصف الحيل التى سيجعلنى أؤديها. ووضعت الأجهزة التسيجرى بها اختبارته اللعينة على المنصة. واختتم كلامه بأن أعلن أننى، مثل طيور معينة، قادر أيضا على ترديد بضع كلمات وأنه يأمل فى أن يجعلنى أنطق بها أمام المؤتمر. ثم التفت إلىّ والتقط الصندوق متعدد أنظمة الإغلاق وسلّمه لى. لكن بدلا من فك مغاليقه، شرعت فى تدريب من نوع آخر.

حانت ساعتى، رفعت يدى ثم هززت الحبل الذى أمسك به الحارس فى رفق واقتربت من الميكروفون ووجهت حديثى إلى الرئيس.

قلت بأفضل ما مكنتنى منه لغتى القردية "أيها الرئيس المبجل، إنه لمن دواعى سرورى التام أن أفتح هذا الصندوق؛ كما أنه بإرادتى المحضة أننى سأؤدى كافة الحيل المدرجة فى البرنامج. قبل الشروع فى هذه المهمة أستميحك عذرا فى أن ألقى كلمة أقسم أنها ستدهش هذا المؤتمر العلمى".

تحدثت بوضوح كامل وأصابت كل كلمة نطقت بها مرماها. وجاءت النتيجة مثلما توقعت. ظل جميع القردة متسمّرين فى مقاعدهم مصعوقين وحابسين أنفاسهم. ونسى الصحفيون أن يدونوا ملاحظاتهم ولم تسعف أى من المصورين بديهته لتسجيل هذه اللحظة التاريخية. فغر الرئيس فاه أمامى. أما زايوس، فقد بدا فى قمة غضبه.

وصاح "سيدى الرئيس، إننى احتج. . . ".

لكنه توقف فى وسط كلامه بعد أن غمره سخف الدخول فى مناقشة مع رجل. وانتهزت هذه الفرصة لأمضى فى خطبتى.

"سيدى الرئيس، إننى مصر مع وافر الاحترام، وفى نفس الوقت مع العزم

التام، على منحى هذه الحظوة. وأقسم بشرفى أنه بمجرد أن أشرح حقيقة وضعى سأنحنى ملبيا طلبات زايوس المبجل جدا". وانقضت دقيقة من الصمت وبعدها هز إعصار المؤتمر. اجتاحت عاصفة عارمة صفوف المقاعد حوّلت جميع القردة إلى كتلة من الهيستريا تداخلت فيها صيحات التعجب ونوبات الضحك والنشيج والهتافات، كل هذا وسط وميض الكاميرات المتواصل، حيث استعاد المصورون أخيرا القدرة على استخدام أطرافهم. استمرت الجلبة لمدة خمس دقائق كاملة، استعاد الرئيس خلالها بعضا من اتزانه، لكنه لم يرفع عينيه عنى. وفى نهاية الأمر، اتخذ قرارا ودق الجرس.

قال فى تلعثم "أنا . . . أنا لا أدرى كيف أخاطبك".

قلت "نادنى فقط بكلمة مسيو".

"نعم، حسنا، هه . . . يا مسيو، أحسب أنه فى ضوء الطبيعة الاستثنائية للحالة، سيخوّل لك المؤتمر العلمى، الذى أشرف بأن أترأسه، الاستماع إلى كلمتك".

قابلت هذا القرار نوبة تصفيق جديدة. لم أطلب أكثر من هذا. انتصبت قامتى فى وسط المنصة، وعدّلت الميكروفون ليناسب طولى وتلوت الخطبة التالية.

(٢٥)

"الرئيس المبجل،

"الغوريلا النبلاء،

"إنسان الغاب الجهابذة،

"الشمبانزى الحكماء،

"أيها القردة!

"أنا، رجل ألتمس الإذن بمخاطبتكم.

"أعلم أن مظهرى بشع، وهيئتى منفرة، وملامحى وحشية، ورائحتى مثيرة للغثيان، ولون جلدى مثير للاشمئزاز. أعلم أن منظر جسدى المضحك هذا يجرحكم، لكنى أعلم أيضا أننى أخاطب أكثر القردة حكمة وعلما قاطبة، أولئك الذين تسمو ألبابهم فوق الانطباعات الحسية المجردة وتدرك جوهر كائن بعيدا عن مظهره الخارجى البائس. .

اقترحت زيرا وكورنيليوس هذه الافتتاحية الطنانة الخانعة التى يعلمان أنها من المرجح ستمس إنسان الغاب. واصلت خطابى خلال صمت كامل:

استمعوا إلىّ أيها القردة! لأننى، أؤكد لكم، قادر على التكلم ولست لعبة ميكانيكية أو ببغاء. أنا أستطيع أن أفكر، وأتحدث، وأفهم ما تقولون وبنفس الدرجة ما أقوله أنا نفسى. إذا ما تفضل سيادتكم الآن ووجه لى سؤالا، سأعتبر الرد على أسئلتكم، قدر استطاعتى، شرفا".

"لكن أولا علىّ إماطة اللثام عن هذه الحقيقة الصاعقة بالنسبة إليكم: إننى لست مخلوقا عاقلا فحسب، ولا أن لدى عقلا يسكن، وياللمفارقة، جسدا بشريا، لكننى أتيت من كوكب بعيد، من الأرض، على هذه الأرض، نتيجة لنزوة من الطبيعة لم يجرى تفسيرها حتى الآن، يعد البشر هم مستودع الحكمة والعقل. ألتمس الإذن أن أشير إلى موطنى، ليس من أجل الدكاترة المبجلين الذين أراهم يحيطون بى من كل جانب فحسب، إنما من أجل الحضور الذين ليسوا على معرفة وثيقة بأنظمة النجوم المختلفة."

توجهت إلى السبورة وبواسطة بضعة رسوم بيانية، وصفت بأفضل ما أتاحت لى قدراتى، النظام الشمسى وأوضحت مكانه فى المجرة. استمع الحضور إلى محاضرتى فى صمت عميق. ولكن عندما فرغت من رسوماتى التخطيطية، صفقت بيدىّ لأتخلص من غبار الطباشير العالق بها، وأثارت هذه الحركة البسيطة همهمة متحمسة بين الجماهير الجالسين فى الصفوف العليا. ومضيت أقول، مواجها جمهورى:

«وبالتالى فإن العقل على الأرض متجسد فى الجنس البشرى. هذه حقيقة لا أملك حيالها أى شىء، وفى الوقت الذى ظل فيه القردة - ومنذ اكتشاف عالمكم وأنا منزعج بشدة من ذلك - ظلوا فى حالة من الوحشية، البشر هم الذين تطوروا. لقد تطور وازدهر العقل الموجود فى جمجمة الإنسان. إنه الإنسان الذى اخترع اللغة، اكتشف النار، وصنع الأدوات. فى واقع الأمر، إن الإنسان هو الذى استوطن كوكبى وغيّر وجهه، وهو الذى أقام حضارة رفيعة فى مناخ كثيرة، أيها القردة، إنها تشبه حضارتكم".

وعند هذه النقطة، اقتبست أمثلة عدة عن أفضل إنجازاتنا. وصفت لهم مدننا، صناعاتنا، وسائل اتصالنا، حكوماتنا، قوانينا، وسائل الترفيه لدينا. ثم وجهت خطابى بشكل محدد إلى العلماء الجهابذة وحاولت أن أعطيهم نبذة عن فتوحاتنا

فى مجال العلوم والفنون. أصبح صوتى أكثر رسوخا مع طول مدة تحدثى. بدأت أحس بنوع من السكر، مثل مالك أصابته النشوة عندما عدّد مقتنياته.

وطفقت أسرد فيما بعد وقائع مغامراتى. وصفت الوسائل التى وصلت بها إلى منكب الجوزاء وهبطت على كوكب سورور ، وكيف أسرت وحبست فى قفص، وكيف حاولت الاتصال بزايوس، وكيف أن كافة جهودى راحت هباء بالتأكيد لافتقادى للبراعة والحذق. وأخيرا، ذكرت فطنة وبصيرة زيرا ومساعدتها القيمة وكذلك مساعدة دكتور كورنيليوس. واختتمت بالكلمات التالية:

"هذا ما أريد أن أقوله لكم، أيها القردة! إن الأمر متروك لكم الآن لتقرروا ما إذا كنت سأعامل كحيوان وأقضى باقى عمرى فى قفص بعد هذه المغامرات المثيرة. يبقى أن أقول أننى ارتحلت إلى هنا بدون أن أحمل أى نية عدائية، يحدونى فقط روح الاكتشاف. ومنذ أن تعرفت عليكم، وجدتكم متقاربين منا فى الميول والمشارب على نحو مذهل وإننى معجب بكم من صميم فؤادى. واقترح الخطة التالية على العقول العظيمة فى هذا الكوكب. من المؤكد أننى سأكون مفيدا لكم بفضل معرفتى التى اكتسبتها من الأرض؛ ومن جانبى فقد تعلمت خلال أشهر أسرى أكثر بكثير مما تعلمته فى مجمل حياتى السابقة. فلنوّحد جهودنا! دعونا نقيم اتصالات بالأرض! لنزحف قدما أيادينا متشابكة، قردة وبشر سويا، ولن تستعصى علينا قوة ولا سر فى الكون!".

توقفت عن الكلام من الإنهاك ولم أنبس ببنت شفه. التفت تلقائيا إلى مائدة الرئيس والتقطت كوبا من الماء، تجرعته دفعة واحدة. وخلّفت هذه الحركة البسيطة، مثل التصفيق بيدىّ، أثرا مدهشا وصارت إشارة لحالة من الهياج والاضطراب الشديدين. أطلقت القاعة بأكملها العنان لجيشان عاطفى هائل لا يمكن لقلم أن يصفه. عرفت أننى قد كسبت الحضور إلى صفى لكن لم يخطر لى ببال أنه من الممكن أن ينخرط أى مؤتمر فى العالم فى مثل هذه الفوضى العارمة.

صمت أذناى منه وبالكاد استعدت القليل من توازنى كى ألحظ سبب هذا الضجيج الذى يفوق الخيال: القردة بطبيعتها مخلوقات تفور حماسا وحيوية، فهى تصفق بأياديها الأربع عندما تبتهج. ولذا فقد أحطت بكتلة تغلى من المخلوقات المسعورة تتوازن على أردافها وتلوح بأطرافها الأربعة فى نوبة جنون تتخللها صيحات جامحة هيمن عليها أصوات الغوريلا الجهيرة. وتعد هذه واحدة من اللمحات الأخيرة التى بقيت فى ذاكرتى من هذه الجلسة التى لا تنسى. أحسست بأن قدمىّ عاجزتان عن حملى. نظرت حولى وأنا مهموم. كان زايوس قد هب واقفا من كرسيه فى غضب وأخذ يذرع المنصة جيئة وذهابا وطوح يداه وراء ظهره، مثلما كان يفعل أمام قفصى. رأيت، وكأننى فى حلم، الكرسى الخالى وتهالكت عليه. واستقبلت هذه الحركة موجة جديدة من التصفيق بالكاد سمعتها قبل أن يغشى علىّ.

(٢٥)

استغرقت وقتا طويلا قبل أن أستعيد وعى، فلكم كانت هذه الجلسة مضنية عصبيا. وجدت نفسى مستلقيا على سرير فى حجرة وزيرا وكورنيليوس يرعيانى بينما يصد بعض الغوريلا الذين يرتدون زيا جمهرة من الصحفيين والمتفرجين الفضوليين الذين حاولوا الاقتراب منى.

همست زيرا فى أذنى "رائع! لقد انتصرت".

قال كورنيليوس "يا أوليس سنصنع سويا أشياء عظيمة".

أخبرنى بأن المجلس الأعلى لسورور عقدا اجتماعا طارئا وقرر إطلاق سراحى فورا.

وأضاف "أن البعض اعترضوا لكن الرأى العام طالب بهذا القرار فاضطروا للإذعان".

وطلب بنفسه السماح له بأن يتخذنى معاونا له وحصل على الإذن وبدا كأنه قد شمر عن ساعديه تهيئة لفكرة العون الذى سأقدمه له فى بحثه.

«هذا هو المكان الذى ستعيش فيه. آمل أن تروق لك هذه الشقة. إنها قريبة من شقتى، فى جناح بالمعهد مخصص لكبار المسئولين".

نظرت حولى فى حيرة، أحسب أننى أحلم. كانت الحجرة مهيئة بكافة سبل الراحة، بداية عهد جديد فى حياتى. وفجأة داهمنى شعور غريب بالحنين للماضى بعد أن ظللت طويلا أهفو لهذه اللحظة. والتقت عيناى بعينىّ زيرا المشعتين

بالذكاء وفهمت أن أنثى القردة قرأت أفكارى. وارتسمت على وجهها ابتسامة غامضة.

قالت "هنا بالطبع لن تكون معك نوفا".

احمر وجهى خجلا وهززت كتفىّ وجلست منتصبا. استعدت قواى وتلهفت على خوض حياتى الجديدة.

سألتنى زيرا "هل تشعر بأنك قادر على أن تحضر حفلا صغيرا ؟ قد دعونا بعض الأصدقاء كلهم من الشمبانزى للاحتفال بهذا اليوم العظيم".

رددت بأنه لا يوجد شىء سيمنحنى سعادة أكبر من هذا. لكننى غير مستعد أن أظهر وأنا عار تماما. ولاحظت بعد ذلك أننى ارتدى بيجاما أعارنى كورنيليوس إياها. وبالرغم من أننى أستطيع أن أضيّق على نفسى وارتدى بيجاما خاصة بشمبانزى إلا أن هيئتى ستكون بشعة إذا ما لبست بزة تخص أحدهم.

"سندبر لك ما تحتاجه من ملابس غدا وسترتدى الليلة بزة لائقة. ها هو الخياط".

دخل شمبانزى صغير وحيانى فى أدب جم. اكتشفت أننى وأنا غائب عن الوعى، تنافس أمهر الخياطين على حياكة ملابسى. ويعد هذا الخياط أكثرهم شهرة ومعظم الغوريلا البارزين من عملائه.

أعجبت بسرعته ومهارته وفى أقل من ساعتين تمكن من صنع بزة مرضية لى. بدا الأمر غريبا على أن أضع ملابس على جسدى ونظرت إلىّ زيرا وكأنها لم ترنى من قبل. بينما كان الخياط أجرى آخر التعديلات أدخل كورنيليوس الصحفيين الذين يطرقون الباب بعنف شديد. خضعت أثناءها لاستجواب لمدة تزيد على الساعة غربلت خلالها بالأسئلة وأطلق المصورون على نيرانهم وطلب منى أن أمد الصحفيين بأدق التفاصيل عن الأرض والحياة التى يعيشها البشر على ذلك

الكوكب. وتركت نفسى طواعية تحت تصرف هذه المناسبة. وأدركت بوصفى صحفيا الخبطة الصحفية التى أمثلها لهؤلاء الزملاء وعرفت حجم الدعم القوى الذى يمكن للصحافة أن تقدمه.

صار الوقت متأخرا عند مغادرتهم المكان. وأوشكنا على الرحيل للانضمام إلى أصدقاء كورنيليوس عندما أوقفنا مجىء زانام الذى أصبح من الواضح أنه على دراية بالتطورات الأخيرة لأنه انحنى لى انحناءة تزلف. جاء ليخبر زيرا أن الأمور ليست على مايرام فى قسمها. فقد أحدثت نوفا، بسبب غيابى الطويل عنها، جلبة كبيرة. وانتقلت حالتها المزاجية كالعدوى إلى بقية الأسرى جميعا، الذين لم يفلح أى قدر من الوخزات بالشوكة الحديدية فى تهدئتهم.

قالت زيرا "سأذهب لأستطلع الأمر انتظرنى هنا".

ناشدتها بنظرة، ترددت ثم هزت كتفيها.

قالت "تعال معى إذا أحببت فبالرغم من كل شىء أنت حر وربما ستكون أقدر منى على تهدئهم".

دخلنا حجرة الأقفاص سويا. هدأ الأسرى بمجرد أن رأونى وأعقب الهياج الصاخب صمت غريب. لقد تعرفوا علىّ بالرغم من ملابسى وبدوا أنهم يشهدون شيئا خارقا.

مشيت وأنا، ارتعش من العاطفة، إلى قفص نوفا، قفصى. توجهت إليها على الفور وابتسمت لها وتحدثت معها. ساد لدى انطباع للحظة أنها تتابع تسلسل أفكارى وعلى وشك أن تجيبنى. كان هذا مستحيلا، لكن مجرد حضورى هدأها مثل الأخرين. وتقبلت منى قطعة السكر التى أعطيتها وأكلتها وأنا أغادر الحجرة وقلبى مكدر.

وبالنسبة إلى الحفل الذى أقيم فى ملهى ليلى أنيق - حيث قرر كورنيليوس توا

تقديمى إلى مجتمع القردة، بما أننى الآن على أى حال مكتوب على أن أقضى بقية حياتى فيه - فإن ذكراه مشوشة ومزعجة.

يرجع سبب التشوش إلى كميات الكحول التى أسرفت فى تجرعها بمجرد وصولى ولم يعد جهازى معتادا عليها. أما الإزعاج فيعود إلى إحساس غريب صار ينتابنى فى مناسبات عديدة تالية. ويمكننى فقط أن أصف الحفل بإن الشخصيات المشاركة فيه أصبحت تدريجيا أقل شبها بالقرود بينما هيمنت وظيفتهم أوموقعهم فى المجتمع على ذهنى. على سبيل المثال فإن كبير السقاة فى الذى تزلف إلينا وهويرشدنا إلى مائدتنا، لم أعد أراه إلا ككبير السقاة وتوارت حقيقة أنه غوريلا. وبالمثل فإن أنثى القردة العجوز التى غطت وجهها المساحيق بصورة مبالغ فيها استبدلها عقلى بصورة عجوز غناجة، وعندما رقصت مع زيرا نسيت هيئتها بالكامل وأحاط ذراعى بشكل مجرد بخصر من تراقصنى. ولم تكن أوركسترا الشمبانزى أكثر من أوركسترا، واعتبرت تبادل القردة التعليقات اللاذعة من حولى ببساطة رجال يستمتعون بحياة الليل فى البلدة.

لن أعلق كثيرا عما سبّبه وجودى من ضجة بينهم. أصبحت بؤرة كل العيون. اضطررت أن أوقع على أوتوجرافات لا حصر لها. وأثقل كاهل اثنين من الغوريلا أتى بهما كورنيليوس الفطن، لحمايتى من حشد إناث القردة، اللائى انتمين لكل الأعمار وتنافسن على شرف تناول مشروب معى أو مراقصتى.

صار الوقت جد متأخر وبدأت أترنح بالفعل من السكر عندما جال بخاطرى البرفيسور أنتل. أحسست بأننى هويت فى أغوار ندم مرير. كدت أذرف دمعة أو اثنتين على خستى وأنا أتأمل نفسى هاهنا أتمتع وأمرح وأتجرع الخمر مع العديد من القردة بينما يرتجف رفيقى مفترشا القش فى قفص.

سألتنى زيرا لما أبدو حزينا للغاية وأخبرتها ثم أبلغنى كورنيليوس حينئذ أنه استفسر عن البروفيسور وعلم أنه بصحة جيدة، ولن تحدث معارضة بشأن إطلاق

سراحه. أكدت لهما أننى لا أستطيع انتظار لحظة واحدة على أن أزف إليه هذا النبأ السعيد.

وافقنى بعد أن فكر كورنيليوس فى الأمر قائلا "بالرغم من كل شىء لا يستطيع المرء أن يرفض إجابة أى مطلب لك فى يوم كهذا. لنذهب إلى هناك، فأنا أعرف مدير الحديقة".

غادر ثلاثتنا الملهى الليلى وقدنا السيارة إلى الحديقة. وتنشط المدير عندما أيقظوه. كان على علم بكل شىء عنى. أخبره كورنيليوس بالهوية الحقيقية لأحد الرجال المحبوسين عنده فى قفص. لم يستطع أن يصدق أذنيه، لكنه تلهف على أن يفعل أى شىء من أجلى. وتعيّن علينا بالطبع أن ننتظر حتى اليوم التالى ونمر بجميع الإجراءات الرسمية المتنوعة قبل أن يطلق سراح البروفيسور ولكن فى غضون ذلك لم يكن هناك ما يمنع من أن نتحدث معه على الفور. وعرض علينا أن يصحبنا.

كان الصبح قد بدأ يطلع عند وصولنا إلى القفص الذى يعيش فيه العالم سىء الحظ كحيوان وسط خمسين رجلا وامرأة. كانوا مازالوا نائمين مكومين فى ثنائيات أو مجموعات من أربع أوخمس. فتحوا أعينهم حالما أضاء المدير الأنوار.

لم استغرق وقتا طويلا كى أعثر على رفيقى. كان ممدا على الأرض مثل الآخرين محتضنا فتاة بدت أصغر منه بكثير. سرت فى جسدى قشعريرة عندما رأيته فى هذه الحالة، وفى الوقت نفسه، تأثرت من المهانة التى أخضعت لها على مدى أربعة أشهر.

بلغ الكدر منى مبلغا عجزت معه عن التحدث. لم يبد البشر، الآن وقد استيقظوا، أى علامة اندهاش. كانوا مروّضين ومدربين؛ وبدأوا فى استعراض حيلهم المعتادة على أمل نيل نوع من المكافأة. ألقى لهم المدير بعض قطع الكعك.

وعلى الفور تفجرت المشاجرات والخناقات، مثلما يحدث أثناء النهار، بينما اتخذ أكثرهم هدوءا وضعهم الأثير حيث يجلسون القرفصاء أمام القضبان ويمدون أياديهم فى استعطاف.

حذا البروفيسور حذوهم واقترب ما أمكنه الاقتراب من المدير واستجداه ليعطيه لقمة سائغة. أشعرنى هذا السلوك بالغثيان وسرعان ما تحول إلى كمد لا يحتمل. كان على بعد ثلاث خطوات؛ وينظر إلىّ وبدا أنه لا يعرفنى. فى واقع الأمر، فقدت عيناه، التى طالما تألقت نباهة، كل أثر للألمعية وعكست نفس الخواء الروحى المطابق لبقية الأسرى. أصابنى الهلع حين رأيت فيهما نفس المشاعر التى تهيج فى نفوس الأسرى الآخرين عند رؤية رجل يرتدى ملابس. بذلت جهدا وفى النهاية تمكنت من التحدث كى أضع حدا لهذا الكابوس. قلت "أيها البروفيسور، ياسيدى القائد، إنه أنا أوليس ميرو. لقد أنقذنا. جئت إلى هنا لأخبرك . . . ".

توقفت وأنا كلى دهشة، فقد تصرف عند سماع صوتى بنفس طريقة البشر على كوكب سورور. طأطأ رأسه فجأة وانزوى بعيدا.

توسلت إليه قائلا "أيها البروفيسور، أيها البروفيسور أنتل، أنا أوليس ميرو، رفيق رحلتك. أنا حر وفى غضون ساعات ستصبح أنت كذلك. هؤلاء القردة الذين تراهم هنا هم أصدقاء لنا. إنهم يعرفون من نحن ويرحبون بنا كأخوة".

لم تكن هناك استجابة. لم يبد أدنى إشارة على الفهم إنما صدر عنه إيماءة حيوان مذعور وتكوّر مبتعدا أكثر.

أصبحت يائسا وبدا القردة متحيرين للغاية. قطّب كورنيليوس حاجبيه، مثلما يفعل حينما يستغرقه البحث عن حل لمشكلة ما. جال بخاطرى أن البروفيسور ربما يكون مذعورا من وجودهم فتظاهر بأنه غبيا. طلبت منهم أن يبتعدوا ويدعونى

بمفردى معه، وهوما فعلوه فى التو. وحينما اختفوا، مشيت بمحاذاة القفص لأصل إلى الركن الذى احتمى به العالم وأخذت أحدثه من جديد:

قلت له متضرعا "أيها السيد، إننى متفهم لحذرك. وأقدر حجم الخطر الذى يواجهه أبناء الأرض على هذا الكوكب. لكننا بمفردنا الآن أقسم لك بشرفى أن محنتنا انتهت. لابد أن تصدقنى، أنا رفيقك وتلميذك وصديقك، أوليس ميرو".

انزوى أكثر وأخذ يختلس نظرات اتجاهى ثم فتح فاه نصف فتحة وأنا واقف ارتجف لا أدرى ماذا أقول:

هل وفقت فى النهاية فى إقناعه ؟ راقبته وكلى رجاء وسط يأس مقيم. لكنى عقدت لسانى رعبا من الأسلوب الذى عبر به عن مشاعره. ذكرت أنه فتح فاه نصف فتحة ولكن لم يكن هذا رد الفعل التلقائى لمخلوق يستعد للتكلم. انبعث منه صوت غرغرة أشبه بالأصوات الغريبة الصادرة عن البشر على هذا الكوكب للتعبير عن الإشباع أوالخوف. هاهنا أمامى، وقد تجمد قلبى رعبا أصدر البروفيسور أنتل، بدون أن يحرك شفتيه، عواء طويلا.

الجزء الثالث

(٢٧)

استيقظت مبكرا بعد ليلة مؤرقة. تقلبت فى السرير ثلاث أو أربع مرات ودعكت عينىّ قبل أن أصير فى كامل يقظتى، مازلت غير معتادا على الحياةِ المتحضرة التى أحياها منذ شهر، أحس بقلق كل صباح عندما لا أسمع صرير القش ولا أحس بالدفء المنبعث من جسد نوفا.

فى نهاية المطاف، استعدت صوابى. كنت أعيش فى واحدة من أكثر الشقق رفاهية فى المعهد. وأثبت القردة أنهم شديدو السخاء فلقد وفروا لى حجرة للنوم، وحماما وملابس وكتبا وجهاز تلفزيون. قرأت كافة الصحف، فأنا حر، بمقدورى أن أخرج وأسير فى الشوارع وانخرط فى أى نوع من اللهو. وظل وجودى فى مكان عام يثير اهتماما كبيرا ولكن العاطفة والحماسة التى فجرتها فى الأيام الأولى أخذت تذوى.

أصبح كورنيليوس الآن رئيس المعهد. وطرد زايوس - منحوه منصبا أخر على أية حال وقلّدوه وساما جديدا - ونصّبوا خطيب زيرا مكانه. وأدى هذا إلى إعادة تنظيم العاملين حيث جرت ترقية عنصر الشمبانزى بوجه عام وتجدد النشاط فى كل الأقسام. وصارت زيرا مساعدة المدير الجديد.

وبالنسبة لى، شاركت العالم فى عمله البحثى، ليس كفأر تجارب، إنما كمعاون. على أية حال، أسدى المجلس الأعلى كورنيليوس هذا الجميل بعد جهد جهيد وتردد كبير. وبدا أن السلطات مازالت راغبة عن الاعتراف بطبيعتى وأصلى.

ارتديت على عجل وتركت حجرتى وتمشيت لجناح كنت فيه يوما سجينا: القسم ظل تحت رئاسة زيرا بالإضافة إلى مهامها الجديدة. وشرعت، إثر حصولى على إذن من كورنيليوس، فى إجراء دراسة منظمة للبشر هناك.

هاأنا ذا فى حجرة الأقفاص، أسير فى الردهة أمام القضبان مثل واحد من سادة هذا الكوكب. هل يتعين على أن اعترف بأننى آتى إلى هنا بشكل متكرر بشكل يفوق متطلبات مهمتى؟ وفى أحيان أحس بأنى مثقل من محيط القرود. وأجد هنا نوعا من الملاذ.

صارت بينى وبين الأسرى معرفة وثيقة الآن وهم مدركين لسلطتى. هل يا ترى رأوا أى اختلاف بينى وبين زيرا والحارسين اللذين يأتينهما بالطعام ؟ أود أن يكون الأمر كذلك، لكنى أشك فى ذلك فلقد أخفقت أنا أيضا بالرغم من الجهد المبذول والصبر، على مدى شهر كامل، فى الوصول إلى مستوى أعلى من الأداء يتجاوز مستوى الحيوانات المدربة. وبالرغم من هذا الفشل فإن حدسى أخبرنى سرا بأن قدراتهم الكامنة هائلة.

أود تعليمهم أن يتكلموا، هذا هوطموحى الأكبر. اعترف بأننى فشلت. وتجدر الإشارة إلى أنه بصعوبة بالغة تمكن البعض من ترديد صوت أحادى المقطع أوصوتين، وهوما يستطيع بعض الشمبانزى من إنجازه على الأرض. ليس هذا بالشيء الكثير ولكنى أثابر. ما يشجعنى على المواصلة هو تصميم جديد أخذت عيونهم تحاول أن تلاقى عينّى به، عيون أخذ التعبير فيها يتغير تدريجيا منذ فترة. أوهم نفسى بأننى استطعت أن ألمح فيها بريق الفضول الذى يصحب العقليات الرفيعة، ويتجاوز انعدام العقل لدى الحيوان.

أتحرك ببطء فى أرجاء الحجرة وأتوقف أمام كل أسير. أتحدث إليهم فى رفق وصبر. واعتادوا الآن على هذا السلوك غير المألوف من جانبى. ويبدوا عليهم أنهم

يستمعون. أظل أتحدث لعدة دقائق ثم أتوقف عن النطق بجمل كاملة وأتهجى بضع كلمات بسيطة، مكررا إياها المرة تلو المرة، وأنا آمل فى سماع الصدى. يتمكن أحدهم من نطق مقطع على نحو أخرق لكن هذا هوأقصى ما يستطيع عمله هذا اليوم بكامله. وسرعان ما يحس الشخص محل الدراسة بالتعب ويقلع عن أداء هذه المهمة التى تفوق طاقة البشر ويفترش الأرض وكأنه بذل جهدا جبارا. أتنهد وأنتقل إلى الشخص التالى. وفى النهاية أصل إلى القفص الذى تعيش فيه نوفا حاليا حياة خاملة فى حزن انفرادى. حزن - هذا على الأقل هو ما يصوره لى غرورى كرجل من الأرض. وأحاول جاهدا أن استشعره من ملامحها الجميلة ولكن غير المعبرة. لم تخصص لها زيرا رفيق آخر، لذا فأنا ممتن لها.

كثيرا ما أفكر فى نوفا؛ لا أستطيع نسيان الساعات التى قضيتها فى معيتها. لكننى لم أدخل قفصها احتراما لذاتى الإنسانية. أليست هى حيوانا ؟ إننى أحيا الآن فى أرقى الدوائر العلمية؛ كيف أدع نفسى انغمس فى علاقة من هذا النوع؟ احمر خجلا كلما تذكرت جميميتنا السابقة. ومنذ انتقالى إلى المعسكر الآخر حرّمت على نفسى حتى أن أظهر لها عاطفة أكبر من تلك التى أظهرها لزملائها.

وبالرغم من كل ما تقدم لا أستطيع إلا أن ألاحظ أنها استثناء وأنا سعيد بذلك. فقد تمكنت من الحصول منها على نتائج أفضل من الآخرين. كلما رأتنى تمسك بالقضبان وتلوّى عضلات فمها فيما يمكن اعتباره ابتسامة. وحتى قبل أن أفتح فمى تحاول نطق المقاطع الثلاثة أو الأربعة التى تعلمتها. كان دأبها واضحا. هل هى موهوبة بحكم الطبيعة بشكل أكبر من الآخرين ؟ أم أن اتصالها بى صقلها وهيأ لها إمكانية أكبر للإستفادة من دروسى ؟ أميل إلى الظن، وبداخلى جزء من الزهو، بأن هذه هى حقيقة الأمر.

أنطق اسمها ثم اسمى وأشير إليها ثم إلى نفسى بالتناوب. تقلّد هذه الإيماءة لكنى أرى أن التعبير على وجهها يتغير فجأة وتكشر عن أنيابها بينما أسمع

ضحكة خافتة ورائى..

إنها زيرا التى أخذت تضحك ليس فى غير رفق من جهودى؛ دائما ما يثير حضورها غضب الفتاة. ورافق كورنيليوس زيرا، وأبدى اهتماما بجهودى وكثيرا ما يأتى ليتفقد النتائج بنفسه. أما اليوم فقد أتى ليرانى لسبب آخر. بدت عليه علامات التشوق للإثارة.

"هل ترغب يا أوليس فى الذهاب معى فى رحلة قصيرة ؟"

"رحلة ؟"

"رحلة إلى مكان بعيد؛ تقريبا عند الجهة المقابلة لنا من الكوكب. اكتشف بعض علماء الآثار أطلالا غريبة للغاية إذا ما صدقنا ما تواتر إلينا من أنباء ويقود إنسان الغاب عمليات التنقيب هناك ويتعذر الاعتماد عليه فى تفسير هذه الآثار على نحو صحيح. ويغلفها غموض يجذبنى ويمكنها أن تقدم مادة حاسمة للبحث الذى أجريه. وقد أوفدتنى الأكاديمية فى مهمة رسمية وأحسب أن حضورى سيكون مفيدا لأقصى حد".

لم أدر على أى وجه سأقدم له يد المساعدة. لكنى رحبت بهذه الفرصة لأتعرف على المزيد من كوكب سورور. أخذنى لمكتبه لإطلاعى على المزيد من التفاصيل.

ابتهجت بهذا التغيير الذى أعفانى من استكمال دورة مرورى؛ لأنه تبقى سجين واحد يجب أن أراه وهو البروفيسور أنتل. كان مايزال فى نفس الحالة مما جعل عملية إطلاق سراحه مستحيلة. ومع هذا فالفضل يرجع لى فى أنه أصبح الآن بمفرده، معزولا داخل زنزانة مريحة إلى حد كبير. وتعد زيارته مهمة ثقيلة علىّ، فهو لا يستجيب البتة لطلباتى الحثيثة ولا يزال يتصرف كحيوان نموذجى.

(٢٨)

رحلنا فى الأسبوع التالى وجاءت معنا زيرا على أنها ستعود بعد انقضاء أيام قليلة لتشرف على المعهد فى غياب كورنيليوس الذى اعتزم البقاء فترة أطول فى موقع التنقيب، إذا ما اتضح أن الأمر مثير كما يتوقع.

ووضعت تحت تصرفنا طائرة خاصة، وهى طائرة نفّاثة تشبه نماذجنا الأولية من هذا النوع، لكنها مريحة تماما ومزودة بغرفة صغيرة كاتمة للصوت يمكن التحدث داخلها فى يسر. جلسنا فيها أنا وزيرا بعد قليل من إقلاعنا. تطلعت لهذه الرحلة. وعند هذه المرحلة اعتدت تماما على العالم القردى، لذا لم اندهش ولم أفزع من رؤية قرد يقود هذه الطائرة الضخمة. وانحصر فكرى فى التمتع بالمناظر العامة ومشهد بزوغ منكب الجوزاء. وارتفعت بنا الطائرة على علو يقرب من ثلاثين ألف قدم. كان الهواء صافيا بصورة عجيبة، ويمكن رؤية النجم العملاق فى الأفق مثل شمسنا حين تراقب عبر تليسكوب. وخلب المشهد لب زيرا.

سألتنى "هل يطلع عليكم فجر بديع مثل هذا على الأرض ؟ هل شمسكم رائعة مثل شمسنا ؟"

أخبرتها بأنها ليست بنفس الضخامة ولا الاحمرار لكنها تكفينا. وعلى الجانب الآخر، يكبر جرمنا السماوى الليلى ويفيض ضوءا أكثر كثافة من الجرم الخاص بسورور. شعرنا بسعادة تماثل سعادة تلاميذ المدارس حينما يكونون فى أجازة وضحكت وأطلقت النكات معها كأنى مع صديق مقرّب. عندما أتى كورنيليوس وانضم إلينا بعد لحظة استأت من اقتحامه حديثنا على انفراد. كان مشغول البال.

وعلاوة على ذلك، بدا منذ فترة عصبيا. كان يسرف فى بذل الجهد فى بحثه الذى يستغرقه للدرجة التى يصبح معها فى بعض الأحيان شارد الذهن. ولايزال يخفى موضوع بحثه عنى ويتعامل على أنه سر وأظن أن زيرا تعرف القليل عنه مثلى. لا أعرف عنه سوى أنه يتعلق بأصل القردة وأن الشمبانزى العلامة يميل أكثر فأكثر إلى رفض النظريات الكلاسيكية المطروحة فى هذا السياق. كشف هذا الصباح للمرة الأولى عن أبعادا معينة عنه لى، ولم ينقض علىّ وقت طويل لأدرك كيف أن وجودى كرجل متحضر بالنسبة له على هذا الجانب من الأهمية. استهل حديثه بالعودة لموضوع قتلناه مناقشة آلاف المرات.

"ألم تذكر يا أوليس أنه على أرضكم يعد القردة مجرد حيوانات ؟ وأن الإنسان وصل إلى درجة من التحضر تماثل درجتنا، بل فى بعض المجالات . . . ؟ لا تخشى من أنك ستثير غضبى فالروح العملية تتجاهل الاعتداد بالنفس بالمرة".

"بل هى فى بعض المجالات تفوقكم – نعم هذا مما لاشك فيه. ويعد أحد البراهين الدامغة وجودى هنا. يبدو لى أنكم فقط وصلتم إلى مرحلة . . . ".

قاطعنى فى إنهاك "أعرف، أعرف، قد تناقشنا من قبل فى هذا الأمر من جميع جوانبه. نحن الآن نهتك الأسرار التى اكتشفتموها منذ قرون مضت. وليس مقولاتك فقط تزعجنى" وواصل حديثه فى عصبية وهو يذرع الكابينة جيئة وذهابا. "منذ زمن طويل ويطاردنى إحساس – إحساس تؤيده مؤشرات مادية – أن مفتاح كل هذه الأسرار، حتى هنا على كوكبنا، قبع داخل عقول أخرى فى الماضى البعيد".

أوشكت على الرد بأن هذا الانطباع الخاص بإعادة الاكتشاف تأثرت به عقول معينة على الأرض. ربما أنه سائد كونيا ويمكن أن يكون قد شكّل أساسا لإيماننا بالرب. لكنى احترزت من مقاطعته. كان يتبع حبلا من الأفكار لايزال مشوشا، وعبر عنه بأسلوب متحفظ للغاية.

وقال مكررا كلامه وهو مهموم "عقول أخرى يحتمل أنها لم تكن . . . ". توقف فجأة وبدا تعسا كأنما يعذبه إدراكه لحقيقة عقله يرفض الاعتراف بها.

"قلت أن القردة يمتلكون حسا عاليا للمحاكاة، ألم تقل ذلك ؟"

"إنهم يحاكوننا فى كل ما نفعل، أعنى كل فعل لا يستلزم إعمال العقل بالتفكير، إلى الحد الذى يترادف معه الفعل المشتق من كلمة قرد وفعل أن يقلد".

همس كورنيليوس وكأنه محبط "يا زيرا أليس حس التقليد هذا هو الذى يميزنا أيضا ؟"

وبدون أن يعطى لزيرا الفرصة للاعتراض، انهمك فى كلامه وهو مستثار "إن الأمر يبدأ فى الطفولة. كل تعليمنا قائم على التقليد".

"أن الأمر يرجع إلى إنسان الغاب . . . ".

"وجدتها. إنهم ذوو أهمية هائلة، بما أنهم هم الذين يشكّلون شبابنا بكتبهم. ويجبرون كل قرد على تكرار نفس أخطاء أسلافه. ويفسر هذا بطء مسيرة تقدمنا. فعلى مدار الألفى عام الماضية ظللنا كما نحن".

ويستحق التطور البطىء بين القردة بعض التعليق فلقد صدمنى عندما قرأته وأنا أقرأ تاريخهم، ملاحظا بضعة فروق مهمة بينهم وبين العقل الإنسانى المحلّق. صحيح أننا عرفنا فترة ما يشبه الركود. نحن أيضا كان لدينا إنسان الغاب، تعليمنا المحرّف ومناهجنا السخيفة غطّت هذه الفترة مساحة طويلة من الزمن. ليست طويلة جدا مقارنة بالقردة وقبل كل شىء ليس بنفس مرحلة التطور. فلقد دامت عصور الظلام التى يأسف عليها الشمبانزى نحو عشرة آلاف عام. وخلال هذه الفترة، لم يحرز القردة تقدما ملحوظا ربما باستثناء الربع قرن الأخير. لكن ما عجبت منه أشد العجب هو أن أساطيرهم البدائية، حولياتهم البدائية وذكرياتهم البدائية تحمل شواهد تدل على أنه كانت هناك حضارة قائمة بالفعل ومتقدمة جدا

وفى حقيقة الأمر لا تقل ولا تزيد عن الحضارة الموجودة اليوم. وقدمت هذه الوثائق، التى يبلغ عمرها عشرة آلاف عام، أدلة على مهارات وإنجازات عامة تضاهى المهارات والإنجازات الحالية؛ قبل هذا، فترة خالية من كل شيء؛ لا توجد تقاليد سواء شفهية أو مكتوبة ولا حتى مفتاح واحد لحل هذا اللغز. وتبدو الحضارة القردية فى جوهرها وكأنها ظهرت من العدم بشكل خارق قبل عشرة آلاف عام وظلت منذ ذلك الحين كما هى لم يجر عليها تعديل. واعتاد القرد العادى أن يرى هذا أمرا طبيعيا ولم يتخيل أبدا حالة مختلفة من النمو العقلى إنما عقل فطن مثل عقل كورنيليوس أحس بوجود لغز شديد الغموض هناك وعذّبه.

واعترضت زيرا قائلة "يوجد قردة قادرون على التفكير الخلّاق".

وافقها كورنيليوس "هذا صحيح بالقطع خاصة فى الأعوام الأخيرة. وعلى المدى الطويل سيبرهن العقل على وجوده بالإيماءات. هذا أمر يتعين حدوثه، حقيقة هذا هوالمسار الطبيعى للتطور . . . لكن ما أسعى إليه حثيثا يا زيرا وما أحاول أن اكتشف كنهه، هو كيف بدأ كل هذا . . . فى الوقت الحالى لفت انتباهى استحالة حدوثها عن طريق التقليد البسيط فى بداية عصرنا".

"تقليد ماذا وتقليد من ؟"

عاد إلى تحفظه من جديد وأرخى عينيه لإسفل وكأنه ندم على أنه قال أكثر من اللازم.

وفى النهاية قال "لا أستطيع الإجابة على هذا السؤال بعد. احتاج إلى أدلة معينة. ربما سنعثر عليها فى أطلال المدينة المطمورة. فوفقا للتقارير الواردة، فإن عمرها أقدم من عشرة آلاف عام فى فترة لا نعرف عنها شيئا".

(٢٩)

لم يزد كورنيليوس شيئا عما قاله لى وأحس بأنه راغب عن الإفصاح عنه، لكن ما استشعرته بالفعل عن نظرياته يعطينى شعورا غريبا بالتيه.

كشف خبراء الآثار عن مدينة كاملة طمرتها رمال الصحراء، مدينة لم يتبق منها، يالأسف، شىء سوى الأطلال. إننى مقتنع بأن هذه الأطلال تحمل سرا هائلا أقسمت على حله. وسيتأتى هذا لأى شخص يمكن أن يلاحظ ويستنتج وهو ما يتعذر على إنسان الغاب الذى يدير عمليات التنقيب أن يفعله. ورحب المدير بكورنيليس وقدم له الاحترام الواجب عليه لمنصبه لكن شابه حسد لم يستطع أن يخفيه على صغر سنه والأفكار الأصيلة التى عبر عنها أحيانا.

ولم يكن الحفر بين الأحجار التى تنهار مع كل حركة ولا الرمال التى تغوص مع كل خطوة بالعمل اليسير. انقضى شهر كامل الآن ونحن على هذا الحال. تركتنا زيرا منذ زمن لكن كورنيليوس يصر على إطالة بقائه. ويحدوه الحماس مثلى وبداخله اقتناع بأنه هنا فقط وبين هذه العاديات يوجد حل المعضلات الكبرى التى تعذبه.

ويمتلك كورنيليوس، والحق يقال، مساحات من المعرفة المذهلة. بادىء ذى بدء، أصر على التحقق شخصيا من قدم المدينة. ومن أجل تحقيق هذه الغاية يتبع القردة أسلوبا مماثلا لأسلوبنا وينطوى على الاستفادة من مبادىء عميقة الجذور فى علوم الكيمياء والطبيعة والجيولوجيا. واتفق الشمبانزى فى هذه النقطة مع العلماء الرسميين فى أن المدينة قديمة، بالفعل جد قديمة. يعود تاريخها إلى ما

يزيد على عشرة آلاف عام وبالتالى تشكل سجلا فريدا ينحو إلى الكشف عن أن الحضارة القردية لم تنبثق فجأة من العدم.

كان يوجد شيء ما قبل العصر الحالى. لكن ماذا ؟ بعد هذا الشهر المحموم من التحرى أصبنا بخيبة أمل لأن هذه المدينة التى تعود إلى ماقبل التاريخ لا تختلف كثيرا عن المدن المعاصرة. اكتشفنا بقايا منازل ومصانع، آثار تدل على أن الأسلاف لديهم سيارت بمحركات وطائرات مثلما يملك قردة اليوم. وتشير البقايا إلى أن أصول العقل يحتمل أن ترجع إلى ماض سحيق. أحس بأن هذا أقل مما يتوقعه كورنيليوس وهو فى نفس الوقت أقل مما آمل فيه.

سبقنى كورنيليوس هذا الصباح إلى الموقع الذى أزاح فيه العمال الرمال عن منزل ذى جدران سميكة مصنوعة من نوع من الخرسانة المسلحة التى تبدو أنها فى حالة محفوظة عن غيرها. وامتلأ المنزل بالرمال والأنقاض التى تولوا تمحيصها. حتى أمس لم يعثروا على شيء يزيد عما عثروا عليه فى القطاعات الأخرى بقايا مواسير وأجهزة منزلية وأدوات مطبخ. مازلت أضيع الوقت خارج الخيمة التى أشارك العالم فيها. ومن موقعى أستطيع رؤية إنسان الغاب وهو يعطى التوجيهات لرئيس العمال وهو شمبانزى يحمل نظرة ماكرة. لم أستطع أن أرى كورنيليوس، إنه فى حفرة مع العمال فهو يشاركهم الحفر خشية أن يفسدوا شيئا وبالتالى يفقد أثرا مهما.

ها هو يخرج من الحفرة ولم يدم وقت طويل حتى أدركت أنه اكتشف كشفا نادرا. أمسك فى يده شيئا صغيرا لم أستطع تبينه. دفع إنسان الغاب بعيدا عندما حاول أخذه منه ووضعه على الأرض فى عناية فائقة. نظر اتجاهى وأومأ إلىّ بالمجيء. ودهشت عند اقترابى منه تغير التعبير على وجهه.

"أوليس، أوليس!"

لم أره من قبل فى مثل هذه الحالة. بالكاد استطاع التكلم. وتحلّق العمال، الذين خرجوا من الحفرة، حول الكشف وأعاقونى من رؤيته. أخذ كل منهم يشير إليه ويحادثون بعضهم البعض عنه لكن بدا عليهم الابتهاج. قهقه بعضهم وكان معظمهم من الغوريلا ضخام الجثة. أمرهم كورنيليوس بالابتعاد. "أوليس!"

"ما الذى ينطوى عليه الكشف ؟"

أبصرت الكشف راقدا على الرمال فى نفس اللحظة التى تمتم فيها بصوت متحشرج: "دمية يا أوليس، دمية!"

كانت دمية، دمية عادية من الخزف. وكأن معجزة حفظتها، فهى تقريبا كما هى، وكشفت بقايا شعر وعينين عن رقاقات ملونة. بما أن هذا المشهد كان مألوفا بالنسبة لى، لم أدرك فى البداية سبب انفعال كورنيليوس. واستغرق منى الأمر بضع ثوان لأدرك . . . ثم التقطت المعنى! وبدت غرابة الأمر تنجلى حتى شملنى على الفور. إنها دمية آدمية تجسد طفلة صغيرة، طفلة صغيرة مثل التى على الأرض. لكنى رفضت أن أخدع، فقبل أن أعلن أنها معجزة، تعين علىّ فحص كل إمكانية لتفسير الأمر بصورة اعتيادية. لابد أن كورنيليوس بوصفه عالما فعل الشىء ذاته. لنرى: إن دمى أطفال القردة تتضمن قلة – قلة قليلة جدا ومع هذا تتضمنها – تتخذ هيئة حيوانية أو حتى آدمية. وبالتالى فإن مجرد وجود واحدة من الدمى لا يؤثر فى الشمبانزى الواقف أمامى بهذه الدرجة من العمق . . . دعونا نتقدم خطوة أخرى: إن لعب أطفال القردة التى تجسد حيوانات لا تصنع من الخزف؛ وفوق كل هذا ليس من المعتاد أن تكون مكسوة بالملابس؛ وليست على أية حال، مكسوة مثل المخلوقات العاقلة. أقول لكم إن هذه الدمية مكسوة مثل الدمى عندنا ـ حيث أمكن بوضوح رؤية بقايا فستان، بلوزة، تنورة ولباس داخلى ـ وهى ترتدى هذه الملابس وفقا لذوق طفلة صغيرة على الأرض ترغب فى تزيين دميتها المفضلة، بنفس العناية التى ستبذلها طفلة من القردة وهى تكسو دميتها

القردية الهيئة على سورور، عناية يستحيل، يستحيل أن تظهرها وهى تكسو شكلا حيوانيا كشكل البشر. أدركت الآن، ومازال إدراكى يتبلور، سبب انفعال الشمبانزى الألمعى.

ليس هذا كل ما فى الأمر: فاللعبة قدمت شيئا آخر شاذا، شيئا غير مألوف جعل كل العمال يضحكون بل ورسمت ابتسامة على الوجه الصارم لإنسان الغاب الذى يدير عملية التنقيب. إن الدمية تتكلم. تتكلم مثل الدمى عندنا. فقد ضغط كورنيليوس وهو يضعها على الأرض بالمصادفة على آلية بها، ظلت كما هى، فتكلمت. آه ولم يكن حديثها بالحديث الطويل! نطقت بكلمة واحدة من مقطعين: با-با. ظلت الدمية تردد كلمة "بابا" بينما يدوّرها كورنيليوس مرة بعد مرة فى خفة يد. وتتطابق هذه الكلمة فى الفرنسية واللغة القردية ومما لاشك فيه فى لغات عدة فى هذا الكون الغامض، وتحمل نفس المعنى. ظلت الدمية الآدمية الصغيرة تردد كلمة "بابا"وهذا فوق كل اعتبار ما جعل خطم رفيقى العلامة يحمّر؛ هذا هوما أثر فىّ بعمق للدرجة التى دفعتنى إلى أن أبذل جهدا لأهتف بصوت عال بينما هو يأخذنى بعيدا، حاملا معه كشفه الثمين.

غمغم بعد صمت طويل قائلا "هذا الأبله البشع!"

عرفت من يعنيه بكلامه وشاركته حنقه. لم ير إنسان الغاب العجوز بكل أوسمته شيئا فى الدمية يتعدى كونها لعبة طفل من القردة زوّدها صانعها فى ماض بعيد بالكلام. كان من العبث طرح تفسير آخر عليه. ولم يبذل كورنيليوس حتى محاولة فى هذا الصدد. ويبدو أن التفسير الذى طرأ على عقله بشكل طبيعى يعد، على أية حال، مزعجا للدرجة التى جعلته يحتفظ به لنفسه. لم يتفوه بكلمة عنه حتى معى لكنه علم أننى خمنته.

ظل مهموم الفكر وصامتا بقية اليوم. ساورنى انطباع أنه الآن خائف من الاستمرار فى البحث ويندم على كشوفه غير الكاملة. الآن وبعد أن تراجع حماسه، فقد أسف على أننى شهدت هذا الاكتشاف.

وفى اليوم التالى مباشرة حصلت على الدليل على ندمه على إتيانه بى إلى هنا. أبلغنى وهو يتفادى النظر فى عينى أنه قرر بعد تأمل فى الليلة الماضية إرسالى إلى المعهد حيث سأكون قادرا على أن أباشر عملا أهم من الموجود فى هذه الأطلال. وحجز لى مقعدا فى الطائرة على أن أغادر الموقع خلال أربع وعشرين ساعة.

(٣٠)

لنفترض أن البشر كانوا يحكمون يوما هذا الكوكب كسادة. لنفترض أن حضارة إنسانية مماثلة لحضارتنا ازدهرت منذ أكثر من عشرة آلاف عام مضت..

ليس هذا افتراض لا معنى له - إنما هو على النقيض من ذلك. وبمجرد ما تمكنت من صياغة تصور فى هذا الصدد حتى أحسست بنشوى مبعثها نجاحى فى التقاط الرائحة الصحيحة بين الكثير من الروائح المزيّفة. وعلمت أن هذا هو الطريق الموصل لحل لغز القردة الموّتر. أدركت أن عقلى الباطن دائما ما كان يحلم بتفسير من هذا النوع.

أقلتنى الطائرة التى ستعيدنى إلى العاصمة برفقة سكرتير كورنيليوس، وهو شمبانزى ثرثار. لم أكن أرغب فى تجاذب أطراف الحديث معه. أميل دائما إلى التأمل عندما أكون راكبا فى طائرة. وما كنت لأحصل على فرصة أفضل من هذه الرحلة لأرتب أفكارى.

لنفترض إذن وجود حضارة فى الماضى البعيد على كوكب سورور، حضارة مماثلة لحضارتنا. هل يمكن لمخلوقات خالية من الذكاء أن تبقى على هذه الحضارة بمجرد عملية تقليد بسيطة ؟ تبدو الإجابة على هذا السؤال محفوفة بالمخاطر لكن بعد التفكير فى الأمر مليا خطرت لى جملة حجج عملت تدريجيا على تخفيف حدة عدم معقوليتها. أتذكر تصورا شاع على الأرض أن الآلات فائقة الإتقان يمكن يوما ما أن تخلفنا فى حكم الأرض. ولم يشع هذا التصور بين الشعراء والرومانسيين فحسب إنما ذاع بين كافة طبقات المجتمع. ربما لأنه قدر

لها أن تكون واسعة الانتشار لهذا الحد، فهى تولد تلقائيا فى المخيلة الشعبية مما أزعج العقليات العلمية. ربما لهذا السبب فى حد ذاته أنها تحتوى على ذرة من الحقيقة. ذرة فقط فالآلات ستظل دوما آلات؛ فالروبوت فائق الإتقان سيظل دائما روبوتا. لكن ماذا عن المخلوقات الحية التى تملك قدرا ولو ضئيلا من الذكاء، مثل القردة؟ القردة بالتحديد ممنوحة حسا عاليا للتقليد. . .

أغمض عينىّ وأدع أزيز محركات الطائرة يهدهدنى. أحس بأننى فى حاجة إلى مناجاة نفسى لتبرير موقفى.

ما هو الشىء الذى يميز الحضارة ؟ هل هو العبقرية الفذة ؟ كلا إنها فى الحياة اليومية . . . همم! دعونا نوف الذكاء حقه. لنسلّم بأنه بالأساس الفنون وفى المقدمة الأدب. هل الكلمة السابقة بعيدة حقا كل البعد عن متناول القردة العليا، إذا سلمنا بأنها قادرة على صف الكلمات بعضها بجانب بعض ؟ مما يتكون أدبنا؟ الروائع؟ كلا، مرة أخرى لكن حينما يصدر كتاب أصيل - هذا لا يحدث إلا مرة أو اثنتين كل قرن - يعكف رجال الأدب على تقليده أو بمعنى آخر يستنسخونه بحيث تصدر مئات الآلاف من الكتب التى تتناول نفس فكرته الرئيسية مع اختلافات طفيفة فى العناوين وأسلوب الصياغة. هذا يمكن أن يحققه القردة لأنهم فى جوهرهم مقلّدون بشرط قدرتهم على استخدام اللغة.

فى حقيقة الأمر، تشكل اللغة الاعتراض الوحيد الصحيح. لكن لننتظر لحظة! ليس من الحيوىّ أن يفهم القردة ما ينقلون كى ينتجوا مائة ألف مجلد من مجلد واحد أصيل. من الواضح أن الأمر ليس ضروريا بالنسبة إليهم مثلما الحال بالنسبة لنا. إنهم مثلنا يحتاجون إلى مجرد تكرار الجمل بعد أن سمعوها. وتعد بقية العملية الأدبية كلها بعد ذلك عملية آلية محضة. ويكتسب عند هذه النقطة رأى بعض علماء الأحياء قيمته الحقة حيث أكدوا أنه لا يوجد فى القرد من الناحية التشريحية ما يحول دون التخاطب - لا شىء باستثناء الضرورة الملحة. ليس من

المتعذر تصور أن هذه الضرورة الملحة طرأت عليه نتيجة لتعرضه لطفرة مفاجئة.

لذا فإن تواصل الإنتاج الأدبى، مثلما هو حاصل عندنا، عن طريق القردة المتكلمين لا يتناقض مع المنطق العام من أى ناحية. وبالتالى، فإنه ربما رفع قردة الأدب أنفسهم درجة أو اثنتين على السلم الفكرى. وكما قال صديقى المثقف كورنيليوس العقل يبرهن على وجوده بالإيماءات – وفى هذه الحالة، على آلية التخاطب – وبضع أفكار قليلة أصيلة هى التى ظهرت فى العالم القردى الجديد بمعدل فكرة واحدة كل قرن – مثلما الحال عندنا.

وسرعان ما نجحت، وأنا أواصل هذا النهج مبتهجا، فى إقناع نفسى بأن الحيوانات المدربة قادرة على إنتاج لوحات وأعمال نحتية كالتى أعجبت بها فى متاحف العاصمة والتى أصبحت بوجه عام خبيرة فى كافة الفنون الإنسانية، بما فيها فن التصوير السينمائى.

أصبح من اليسير جدا أن أسحب افتراضى على بقية المجالات بعد أن وضعت تصورا فى البدء لأبرز تجليات الذكاء. وأذعنت الصناعة على الفور لهذا التحليل. بدا من الواضح جدا أن الصناعة لا تتطلب وجود كائن عاقل لتواصل مهمتها. فالصناعة تتكون بالأساس من عمال يدويين دائما يؤدون المهمات عينها ويمكن استبدالهم فى يسر بالقردة؛ ويسرى الأمر ذاته على مستوى أعلى بالنسبة للتنفيذيين الذين تنحصر مهامهم فى صياغة تقارير معينة ويعلنون كلمات محددة فى مناسبات بعينها. وينبنى هذا كله على الانفعالات الشرطية. ويبدو أنه علينا التسليم بأنه على مستويات الإدارة العليا سيكون الأمر خاضعا لتميز القردة فى التقليد. ولكى نكمل نظامنا سينحصر دور الغوريلا فى تقليد سلوكيات معينة وإلقاء خطبا حماسية، مبنية كلها على نفس النموذج.

ونتيجة لذلك بدأت أنظر لأكثر الأنشطة تنوعا على أرضنا بعين جديدة وتخيلها تؤدى من قبل القردة. وانغمست فى تلذذ فى ممارسة هذه اللعبة، التى لم تتطلب

منى أى مجهود ذهنى. استدعى عقلى عددا من الاجتماعات السياسية التى حضرتها بوصفى صحفيا. تذكرت التعليقات المبتذلة التى تصدر عن بعض الشخصيات التى اضطررت إلى أن أحاورها. واسترجعت محاكمة شهيرة تابعتها منذ عدة سنوات.

كان ممثل الدفاع واحدا من الأساتذة فى المهنة. لماذا عنّ لى الآن على هيئة غوريلا معتد بذاته مثلما بدا لى ممثل الادعاء وهو الآخر شخصية شهيرة ؟ لماذا قارنت بين إيماءاتهم وتصرفاتهم بالانفعالات الشرطية الناتجة عن التدريب المكثف؟ لماذا ذكّرنى رئيس المحكمة بإنسان الغاب الرصين وهو يتلو أحكاما يحفظها عن ظهر قلب، وينطق بها بشكل أتوماتيكى وبالمثل تلهمه عبارة أدلى بها أحد الشهود أو تهامس بها بعض الجمهور ؟

وأمضيت الجزء الأخير من رحلتى وقد سيطرت علىّ المقارنات التى بدت لى ذات دلالة. وعندما وصلت إلى عالم المال والأعمال، جاءت الصورة الذهنية النهائية فى شكل رؤية قردية كاملة، فى استرجاع لمشهد أخير لكوكب سورور. حدث ذلك خلال زيارة لبورصة الأسهم حيث أصر صديقى كورنيليوس على أن أصحبه إلى هناك لأنها تعتبر من عجائب العاصمة. هذا هو ما رأيت - صورة مفعمة بالحيوية غير العادية استرجعتها فى اللحظات الأخيرة من رحلتى الجوية.

كان مبنى بورصة الأسهم مبنى ضخما يجيش خارجه بجو غريب من طنين مبهم من الأصوات التى أخذت تتصاعد باطراد مع اقترابنا حتى وصلت إلى زئير يصم الآذان. دخلنا المبنى وفى التو غمرنا صخب مهول. ثبّت جسمى على عامود. اعتدت على رؤية قردة وهم فرادى ولكننى دائما انذهل عندما أحاط بحشد مركز مثلما هو حاصل الآن. وألفيت مشهدا أشد تنافرا عن مشهد تجمع الأكاديميين خلال المؤتمر الشهير. تخيل قاعة مهولة الأبعاد تضج بقردة يصرخون ويشيرون ويجرون هنا وهناك فى أسلوب فوضوى بالمرة، قردة فى حالة هيستيريا، قردة لا

يندفعون ويصطدمون ببعضهم البعض على الأرضية فحسب إنما يشكلون كتلة محتشدة لأعلى حتى السقف الذى يبلغ ارتفاعا يجلب الدوار وأنت واقف على الأرض. زوّد المكان بسلالم وأراجيح وحبال استخدموها طوال الوقت للانتقال من نقطة إلى أخرى. وبالتالى فإنهم ملأوا مساحة المبنى الداخلية بأكمله والتى اتخذت هيئة قفص مصمم خصيصا لاستعراض شاذ لمخلوقات ذات أياد أربع.

كان القردة يطيرون حرفيا إقبالا وإدبارا عبر هذه المساحة، وعلى الدوام يتعلقون ببعض الأدوات فى اللحظة التى أحسب أنهم يوشكون على الوقوع: كل هذا يجرى وسط ضوضاء من صيحات التعجب والصراخ والصياح الجحيمية بل وأصوات لا تمت لأى لغة متحضرة بصلة. وظل بعض القرود ينبحون - نعم، ينبحون بلا سبب واضح - وهم يؤرجحون أنفسهم بين أقصى طرفى القاعة ويتدّلون من حبال طويلة. سألنى صديقى كورنيليوس فى فخر "هل رأيت فى حياتك شيئا مثل هذا ؟"

على الفور اعترفت بأن شيئا من هذا لم يحدث لى قط. احتجت إلى استرجاع كل معرفتى السابقة بالقردة لإقناعى بأن هذه كائنات عاقلة. لا يمكن لشخص فى كامل قواه العقلية شاهد هذا السيرك أن يتفادى الاستنتاج بأنه يشهد لهو رجال مجانين أو حيوانات منطلقة فى حالة جموح. لم تظهر لمعة الذكاء فى أعينهم وبدوا جميعا متشابهين. لم أستطع التمييز بينهم فجميعهم ارتدوا ملابسهم بنفس الطريقة ووضعوا ذات القناع وهو قناع الجنون.

أما أكثر الأجزاء إزعاجا فى الصورة الذهنية فى عقلى فهو، خلافا للظاهرة التى تعرض لها منذ وقت قليل وجعلتنى أحيل شكل الغوريلا أوإنسان الغاب إلى أشخاص فى مشهد على الأرض، أننى أرى الآن أفراد هذا الحشد المجنون فى هيئة آدميين. وبناء على ذلك بدأت أرى رجالا يصرخون وينبحون ويتأرجحون بالحبال ليصلوا لمقصدهم بأقصى سرعة ممكنة. وأخذت استرجع فى استمتاع

أبعادا أخـرى من هذا المشـهـد. تذكـرت أننى بعـد أن نـظرت لفـتـرة بدأت ألاحظ تفاصيل معينة تشير فى إبهام إلى أن هذه الجلبة تشكل بالرغم من كل شىء جزءا من النظام المتـحـضـر. وبين الحـين والآخـر يـمكن سـمـا ع كلمـة واضـحـة وسط الصيحات الهمجية. وعلى ارتفا ع شاهق يجلب الإحساس بالدوار، قبع غوريلا على سقالة، وبدون أن يوقف الإيماءات الهيستيرية ليديه، يلتقط قطعة طباشير بقدمه ويكتب رقـمـا مـا من المرجح أن له دلالة على سـبـورة. وأحلت لـهذا الغوريلا ملامح بشرية أيضا.

تمكنت من أن أخلّص نفـسـى من هذه الهلوسـة فـقـط عن طريق العـودة إلى الخطوط الرئيسـيـة المرتجلة لنظريتى بشـأن الحضـارة القـردية والتى عـثـرت على حججا جديدة تؤيدها إثر تذكرى لعالم المال.

هبطت الطائرة. عدت إلى العاصمة. أتت زيرا للقائى فى المطار. رأيتـها تقف بعيدا وقد غطى لفا ع أذنيها، وملأنى حضورها بالبـهجة. عندما لحقت بها عقب انتـهـاء إجراءات الجمارك الرسمـيـة اضطررت إلى أن أكبح نفـسـى عن تطويقـها بذراعىّ.

(٣١)

قضيت الشهر الذى تلى عودتى فى الفراش، أعانى من عدوى من المحتمل أن أكون قد أصبت بها فى الموقع وتمثلت فى نوبات شديدة من الحمى تشبه الملاريا. لم أتألم لكن عقلى كان على جمر وعجزت عن الفكاك من إمعان التفكير فى عناصر الحقيقة المفزعة التى لمحتها. لم يساور عقلى أدنى شك فى أن حقبة بشرية سبقت الحقبة القردية على كوكب سورور وجعلنى هذا الاعتقاد أحس بنوع من النشوة.

ومع ذلك فعندما أعدت التفكير لم أكن متأكدا إذا ما كان علىّ أن أحس بالفخر من هذا الاكتشاف أو بالمهانة العميقة بسببه. لاحظت وقد زهوت باحترامى لنفسى أن القردة لم يخترعوا شيئا وأنهم مجرد مقلّدين. ونبع إحساسى بالمهانة من حقيقة أن حضارة إنسانية يمكن تمثلها بهذا اليسر من جانب القردة.

كيف يمكن لهذا أن يحدث ؟ أثناء هذيانى عجزت عن إبعاد عقلى عن هذه المعضلة. صحيح، أننا كنا نعلم بأن حضاراتنا فانية لكن أن يحدث اختفاء تام لها هذا ما يجعل العقول تتهاوى. هل وقعت كارثة؟ هل نزلت نازلة ؟ أم هل تواكب مع الأفول البطىء لإحدى السلالتين ارتقاء مطرّد للآخر ؟ أميل إلى الافتراض السابق وأجد مؤشرات شديدة الدلالة على هذا التطور فى وضع القردة الحالى واهتماماتهم.

إننى على دراية تامة بجذور الأهمية التى يعلّقونها على الأبحاث الأحيائية على سبيل المثال. ففى سابق الأيام لابد أن القردة استخدموا كموضوعات لإجراء

التجارب عليهم من جانب البشر مثلما هو الحال فى معاملنا. ويعد هؤلاء هم الذين رفعوا العلم وهم الرواد الذين قادوا الثورة. ومن الطبيعى أنهم بدأوا بتقليد الإيماءات والسلوكيات التى لاحظوها فى سادتهم وهم الباحثين وعلماء الأحياء الجهابذة والأطباء والممرضات والحراس. ومن هنا ترك هذا الأثر غير المألوف بصمته على معظم مشاريعهم ولايزال باقيا حتى اليوم.

لكن ماذا عن البشر طوال هذه الفترة ؟ - كفانا تخمينات عن القردة! انقضى شهران منذ زيارتى الأخيرة لرفاقى الأسر السابقين، إخوتى فى الإنسانية. أشعر اليوم بتحسن. لم أعد أحس بأننى محموم. قلت لزيرا بالأمس - زيرا اعتنت بى كأخت أثناء مرضى - قلت لها أننى اعتزم استئناف عملى فى قسمها. لم تبد سعيدة بما قلت ولكنها لم تعارض. حان وقت زيارتى.

ها أنا قد عدت إلى حجرة الأقفاص. ساورنى شعور غريب جعلنى أتوقف على العتبة. بدأت أرى هذه المخلوقات بمنظور جديد. تساءلت والألم يعتصرنى، قبل أن أحزم أمرى بالدخول، هل سيتعرفون علىّ بعد غيابى الطويل. حسنا، لقد تعرفوا علىّ وثبتوا عيونهم جميعا علىّ، كما اعتادوا دائما على فعل ذلك بل وشاب نظرتهم بعض التبجيل. هل أحلم أم أستطيع حقا أن أميز نظرة جديدة فى أعينهم، نظرة مدخرة لى وحدى وتختلف عن النظرات التى يسددونها لحارسيهم من القردة ؟ رأيت لمعة يستحيل وصفها لكنى أتوهم أنها تحمل فضولا استيقظ من سباته، شعورا غير عادى، ظلال لذكريات الأسلاف تحاول أن تنبثق من بين الهمجية وربما . . . بريق غير مؤكد من الأمل.

أظن أننى غذيت هذا الأمل بدون وعى منذ زمن. أو ليس هذا هو السبب وراء الحماس المحموم الذى اجتاحنى ؟ ألم أكن أنا، أنا أوليس ميرو، الرجل الذى دفعه القدر إلى هذا الكوكب ليكون وسيلة لبث روح جديدة فى هؤلاء البشر ؟

هنا بدت لى أخيرا بوضوح الفكرة المهزوزة التى ظلت تراودنى لمدة شهر. إن

الرب لا يلق بزهر النرد كما قال أحد علماء الطبيعة ذات مرة. لا شيء يقع في هذا الكون محض صدفة. لقد قدرت رحلتي إلى منكب الجوزاء قوة عليا عليمة. ويرجع الأمر لي في إثبات جدارتي بهذا الاختيار وأصبح المنقذ الجديد لهذا الجنس البشري الذي يشهد أفولا.

كما قلت من قبل أمر ببطء على الأقفاص. أجبر نفسي على ألا اندفع اتجاه قفص نوفا في الحال. هل مبعوث الأقدار يحق له أن يظهر محاباة ؟ أتحدث لكل فرد في المجموعة محل الدراسة. لم تأت اللحظة التي يتكلمون فيها. أنا لا أبالي فلدي حياتي بالكامل لأنجز مهمتي.

اقترب من قفصي السابق بتجاهل متعمد. ونظرت بطرف خفي لكني لم أر ذراعيّ نوفا ممتدتين عبر القضبان، لم أسمع صيحات الابتهاج التي دائما تحييني بها. انتابني شعور غريب بوقوع مكروه. عجزت عن التحكم في نفسي، اندفعت للأمام لأجد القفص خاليا.

استدعيت أحد الحارسين بصوت آمر جعل الأسرى يرتجفون. ظهر زنام الذي لا يحب أن يتلقى أوامر مني ولكن زيرا أعطته تعليمات بأن يضع نفسه تحت تصرفي.

"أين نوفا ؟"

أجابني بأسلوب فظ بأنه لا يدري. لقد أخذوها يوما ما بدون إبداء أسباب. كررت سؤالي ولكن عبثا. ولحسن الحظ، ظهرت زيرا في هذه اللحظة لتؤدي دورتها التفقدية. رأتني أمام القفص الخالي وأدركت سبب ضيقي. بدت مرتبكة وفي الحال أخذت تتحدث في موضوع آخر.

"عاد كورنيليوس في التو ويريد أن يراك".

ما كنت أعبأ في هذه اللحظة بكورنيليوس أوالشمبانزي أوالغوريلا أو أي

مخلوق آخر فى السماء أوفى الجحيم. أشرت بإصبعى إلى الزنزانة.

"أين نوفا ؟"

قالت زيرا "إنها مريضة ونقلت إلى جناح خاص".

أومأت إلىّ وانتحت بى جانبا بعيدا عن سمع الحارس.

"إن المدير جعلنى أعده أن احتفظ بالأمر كسر لكنى أشعر بأنك يجب أن تعرف".

"هل هى مريضة ؟"

"ليس بالشىء الخطير لكنه كاف لأن يجعل السلطات تقف على أطراف أصابعها. نوفا تنتظر حادثا سعيدا".

"إنها . . .".

أعلنت أنثى القردة وهى تتأملنى وعلى وجهها تعبير فضولى "أعنى أنها حبلى".

(٣٢)

أصبت بذهول حال فعليا دون إدراكى ما الذى تنطوى عليه هذه الأنباء. وفى البداية انهالت علىّ جملة تفاصيل تافهة وفوق كل ذلك عذبنى سؤال مؤرق: لماذا لم يعلمونى بهذا ؟ لم تعطنى زيرا الفرصة كى احتج.

"لاحظت هذا الأمـر منذ شـهـرين لدى عـودتى من الرحلة. لم يلحظ ثنائى الغوريلا شيئا البتة. اتصلت بكورنيليوس الذى تحادث محادثة مطولة مع المدير. واتفقا على أنه من الصالح جعل الأمر سرا. لا يعلم به سواى وهما. إنها فى قفص معزول وأنا أرعاها بشكل شخصى".

اعتبرت هذا الإخفاء نوعا من الخديعة من جانب كورنيليوس واستطعت أن أرى زيرا وقد خالجها الإحراج. بدا لى الأمر على أنه نوع من المؤامرة تحاك فى الخلفية.

"لاتبال أنها تعامل بشكل جيد ولا تحتاج إلى شيء. إننى أوفر لها كل ما يسعنى. لم يحدث أن تلقت أنثى من البشر هذا النوع من الرعاية على الإطلاق".

وفى ظل تحديقها الساخر أرخيت عينىّ مثل تلميذ مدان بارتكاب ذنب. حاولت أن تتخذ نبرة تهكمية ولكنى لاحظت أنها مضطربة. صحيح، إننى أدرك أن حميمتى الجسدية مع نوفا أغاظتها منذ أن وقفت على طبيعتى الأصلية، لكن كان هناك تعبير يتجاوز الغيظ. إن عاطفتها إزائى هى التى جعلتها متوترة. ولا تبشر النقاط المبهمة المتعلقة بنوفا. أتصور أنها لم تخبرنى بالحقيقة الكاملة: إن المجلس الأعلى على علم تام بالموقف وأنه جرت مناقشات على مستو عال جدا بخصوص

هذه المسألة.

"إلى متى ستستمر عملية عزلها".

"ما بين ثلاثة وأربعة أشهر".

وفجأة اجتاحني الجانب المأساوي والكوميدي لهذا الموقف في ذات الوقت. من المرتقب أن أصبح أبا في نظام منكب الجوزاء. سيولد لي طفل في كوكب سورور من امرأة أشعر نحوها بانجذاب جسدي هائل وفي بعض الأحيان أشعر نحوها بالشفقة لكنها تحمل عقل حيوان. لم يجد كائن آخر نفسه في هذا الكون متورطا في مغامرة كهذه. أحس بأنني أكاد أبكي وأضحك في نفس الوقت.

"يا زيرا أريد أن أراها!"

مطت شفتيها في إشارة لاستيائها.

"توقعت أنك ستطلب مني ذلك. وقد تناقشت مع كورنيليوس وأظن أنه سيوافق. هو ينتظرك في مكتبه".

"إن كورنيليوس خائن!"

"ليس من حقك أن تقول هذا أنه موزع بين حبه للعلم وواجبه كقرد. ومن الطبيعي أن يساوره وجل من هذا الولادة المرتقبة".

كان حجم اللوعة يزداد داخلي وأنا أتبعها في الخروج من ردهات المعهد. أستطيع تخيل سلوك القردة المثقفين وخشيتهم من أن يروا جنسا جديدا يظهر بين ظهرانيهم - يا إله السماوات! الآن أستطيع أن أرى سبيل تحقيق المهمة التي كلفت بها.

حيّاني كورنيليوس في أسلوب ودود ولكن بعد أن انزرع بيننا نوع من الحرج والحيرة. وفي بعض الأوقات ينظر إليّ وكأن ذعر انتابه. أبذل جهدا كي أتحاشى

التطرق إلى الموضوع المسيطر على ذهنى على الفور. أسأله عن رحلته وحصاد وجوده بين الأطلال.

"مذهل. لدى جملة من الأدلة التى لا يرقى إليها شك".

تلمع عيناه الصغيرتان. لا يقدر على منع نفسه من الابتهاج بشدة بسبب نجاحه. كانت زيرا على حق؛إنه ممزق بين عشقه للعلم وواجبه كقرد. وفى هذه اللحظة، تكلم العالم، العالم المتحمس الذى لا يعنيه سوى نجاح نظرياته فحسب.

قال "اكتشفنا هياكل عظمية، ليس واحدا إنما مجموعة كاملة فى ترتيب وظروف يجعل من الواضح بصورة لا مراء فيها أنا عثرنا على مقبرة. ويعد هذا دليلا كافيا لأكثر العقول تبلدا. ويصر إنسان الغاب بالطبع على أن الأمر لا يعدو كونه مصادفة".

"ماذا عن هذه الهياكل العظمية ؟"

"ليست للقردة".

"فهمت".

نظر كازنا للأخر فى عينه مباشرة. وبعد أن انحسر حماسه إلى حد ما، استمر فى كلامه ببطء قائلا "لا أقدر على التوارى منك؛ فإنك خمنت المسألة بالفعل. إنها هياكل عظمية لبشر ".

كانت زيرا على علم لأنها لم تبد دهشة. تفحصنى كلاهما عن كثب. وفى النهاية حزم كورنيليوس أمره على أن يناقش معى المسألة فى صراحة.

اعترف قائلا "إننى على يقين الآن من أنه عاش على كوكبنا جنس بشرى أنعم عليه بعقل مماثل لعقلك ولعقول البشر الذين يسكنون على الأرض، وهو جنس تدهور به الحال وارتد إلى حالة بهيمية. . . وعلاوة على ذلك، فبعد عودتى إلى هنا حصلت على أدلة إضافية تعضد من هذا الافتراض".

"أدلة إضافية ؟"

"نعم اكتشفها مدير قسم المخ وهو شمبانزى ينتظره مستقبل باهر. ويحتمل أن يكون عبقريا. . . . قد تخطىء حين تتصور" وواصل حديثه فى سخرية مريرة "أن القردة كانوا دائما مقلّدين. إننا نجحنا فى تقديم ابتكارات رائعة فى ميادين معينة فى العلم، وبخاصة فى مجال التجارب التى تجرى على المخ. سأطلعك يوما ما على النتائج إذا تمكنت من ذلك. إننى متأكد من أنك ستذهل منها".

بدا متلهفا لإقناع نفسه وعبر عن نفسه فى شراسة غير معتادة. لم أهاجمه البتة فى هذه النقطة فهو الذى ذكر لأول مرة افتقار القردة لملكة الخلق والابتكار منذ شهرين. واستمر فى نبرة تباه:

"صدقنى سيأتى اليوم الذى سنفوق البشر فى كل المجالات. ليست مسألة نجاحنا فى أننا خلفناهم محض صدفة كما تتصور. تعد هذه نتيجة مقدرة ومكتوبة بالنسبة إلى المسار العادى للتطور. فبعد أن نال الإنسان حظه، كان يتعين على كائن آخر أعلى أن يخلفه ليحفظ النتائج الأساسية لفتوحاته ويتمثلها خلال فترة من الركود الظاهرى قبل أن يحلق على ارتفاعات أكبر".

تعتبر هذه الطريقة طريقة جديدة فى وضع تصور للمحصلة. كان بإمكانى الرد بأن الكثير من البشر يخالجهم شعور بأن كائنا أعلى سيخلفهم يوما ما ولكن لا يوجد عالم ولا فيلسوف ولا شاعر شطح خياله فتصور أن هذا الكائن سيكون على شاكلة قرد. لكنى شعرت بأننى لست ميالا لمواصلة النقاش. ويكمن الجوهر فى أن العقل لابد أن يجسد نفسه فى شكل كائن عضوى. ولا يمثل شكل هذا الكائن أهمية تذكر. كانت لدى عدة مسائل أكثر إلحاحا. وجعلت مسار المناقشة يدور ليصل إلى موضوع نوفا وظرفها. لم يعلق وحاول مواساتى.

"لا تشغل بالك. ستكون فى أحسن حال، هذا ما أتمناه. من المحتمل أن تلد

طفلا لا يختلف عن أى طفل بشرى آخر يولد على سورور".

"بالقطع أنا لا أتمنى ذلك على الإطلاق. إننى مقتنع من أنه سيتكلم!"عجزت عن أمنع نفسى من الاحتجاج فى استنكار. عبست زيرا بوجهها كى أصمت.

قال كورنيليوس "لا تعوّل الكثير من الآمال لمصلحتك ولمصلحتها".

وأضاف فى نبرة ودودة "إذا تكلم الطفل، لا أدرى ما إذا كنت سأستطيع أن أوفر لكما الحماية مثلما أفعل الآن. أولست تدرك أن المجلس الأعلى منتظر على أحر من الجمر وصدرت لى تعليمات مشددة للغاية بالاحتفاظ بأمر الولادة كسر ؟ إذا ما اكتشفت السلطات أنك تعلم، سأطرد وكذلك زيرا لتجد نفسك وحيدا بين...".

""بين الأعداء ؟"

أشاح بوجهه. هذا بالضبط ما فكّرت فيه: أننى أشكل خطرا على الجنس القردى. ومع هذا، فإننى سعيد بأنى وجدت حليفا فى كورنيليوس إن لم يكن صديق. لابد أن زيرا دافعت عن قضيتى فى حماسة أكبر مما أفهمتنى، وهو لن يجرؤ على فعل شىء يغضبها. أعطانى الأذن لرؤية نوفا - بشكل سرى بالطبع.

قادتنى زيرا إلى منزل صغير تحمل هى وحدها مفتاحه. وأدخلتنى إلى حجرة ليست بالكبيرة جدا. واحتوت على ثلاثة أقفاص، اثنان منها فارغان. وشغلت نوفا الثالث. سمعت خطو أقدامنا وأوحت لها غريزتها بحضورى، فقد هبّت واقفة على قدميها ومدّت يديها عبر القضبان حتى قبل أن ترانى. أشد على يديها وأمسح بوجهى على وجهها. وهزت زيرا كتفها فى ازدراء لكنها سلّمتنى مفتاح القفص وخرجت لتراقب المكان خارج الردهة. كم تحمل أنثى القرد هذه روحا رائعة! أى امرأة ستقدر على إظهار هذا القدر من الرهافة والحساسية ؟ لابد أنها تعرف أن لدينا الكثير لنقوله لبعضنا البعض، لذا فقد تركتنا وشأننا.

لدينا الكثير لنقوله ؟ واحسرتاه! مرة أخرى نسيت وضع نوفا البائس. اندفعت إلى داخل القفص وطوّقتها بذراعيّ. تحدثت معها كأنما هى قادرة على الفهم- كأننى أحدث زيرا مثلا.

ألا تفهم ؟ أليس لديها حدس غامض بشأن المهمة الموكلة إلى كلينا من الآن فصاعدا، تتساوى هى معى فى هذا؟ استلقى على القش بجانبها. أربت على ثمرة عاطفتنا العجيبة. يبدو لى، مع هذا، أن وضعها الحالى أسبغ عليها شخصية ومنزلة لم تتوفر لها من قبل. ارتعشت وأنا أمرر يدى على بطنها. واكتسبت عيناها بالقطع حدة جديدة. وفجأة وبعد بذل مجهود عظيم تلعثمت وهى تنطق مقاطع اسمى، التى علّمتها لها من قبل. إنها لم تنس دروسها. غمرتنى السعادة. لكن عينيها تبلدت مرة أخرى وانتحت جانبا كى تلتهم الثمرة التى أتيت بها لها. عادت زيرا؛ حانت لحظة الوداع. تركتها وأنا مشحون ومهموم بها. وأحست زيرا بإحساسى بالفقد فصحبتنى لشقتى حيث انخرطت فى البكاء كطفل.

"آه يا زيرا، يا زيرا!"

بينما هى تهدهدنى كأم بين ذراعيها، أخذت أحادثها فى عاطفة دون توقف، وأطلقت العنان أخيرا لجمّاع مشاعرى وأفكارى التى عجزت نوفا عن إدراكها.

(٣٣)

يا لها من أنثى قرد ممتازة! تمكنت بفضلها من رؤية نوفا كثيرا خلال هذه الفترة، بدون معرفة السلطات. قضيت ساعات طوالا أترقب لمعان عينيها بلا توقف، ومضت الأسابيع فى نفاد صبر على الولادة.

قرر كورنيليوس ذات يوم أن يأخذنى إلى قسم المخ، الذى حدّثنى عما يحدث به من عجائب. وعرّفنى برئيس القسم، وهو شمبانزى شاب اسمه هليوس، وقد أثنى على عبقريته حتى عنان السماء، واعتذر عن عدم مصاحبته لى بسبب عمل طارىء.

قال "سأعود خلال ساعة لأعرض عليك درة هذه التجارب بنفسى، اتلى تقدم الدليل الذى حدثتك عنه. وفى غضون ذلك، إنى متأكد من أن الحالات التقليدية ستثير اهتمامك".

رافقنى هليوس إلى حجرة مشابهة للموجودة فى المعهد، مزودة بصفين من الأقفاص. وصدمت أنفى عند دخولى رائحة مستحضر طبى ذكّرتنى بالكلوروفورم. كان بالفعل عقارا مخدرا. أبلغنى دليلى أن كل العمليات الجراحية تجرى حاليا على عناصر جرى تخديرها. وأكد هذه النقطة، كأنما يستعرض الدرجة العالية التى أحرزتها الحضارة القردية، التى تبذل قصارى جهدها لتجنب المعاناة التى لا داعى لها حتى بالنسبة للبشر. يمكننى أن أطمأن لذلك.

كنت شبه مطمئن إلى أن اختتم كلامه بذكر استثناء لهذه القاعدة وهوالتجارب الهادفة إلى دراسة الألم وتحديد موقع المراكز العصبية التى ينبع منها. لكنه لن يجعلنى أرى أيا من هذه اليوم.

لم تكن هذه الخطوة محسوبة لتهدئة إحساسى الإنسانى. تذكرت أن زيرا حاولت لإثنائى عن زيارة هذا القسم، الذى لا تزروه إلا حين تدعوالضرورة. أحسست بأننى يجب أن أعود من أتيت لكن هليوس لم يمهلنى.

"إذا كنت ترغب فى أن تشهد عملية جراحية، فتتأكد بنفسك من أن المريض لن يعانى ألما على الإطلاق. كلا ؟ حسنا لنذهب لمشاهدة النتائج إذن".

مررنا بالزنزانة التى انبعثت منها الرائحة المذكورة وقادنى نحوالأقفاص. رأيت فى أولها شابا وسيما فى غاية النحول ويستند إلى حمّالة وأمامه، تقريبا تحت أنفه، وضع إناء يحتوى على مسحوق من الحبوب المحلاة، التى لا يختلف على حبها كل البشر. طفق يحدق به فى دهشة دون أن تصدر عنه أى إيماءة.

قال رئيس القسم "أترى هذا الفتى يتضور جوعا، إنه لم يقرب الطعام منذ أربع وعشرين ساعة. ومع هذا فإنه لا يصدر عنه رد فعل بالمرة عندما يرى طبقه المفضل. ويرجع هذا إلى أنه جرت له عملية منذ عدة أشهر استؤصل خلالها جزء من الفص الأمامى للمخ. ومنذ تلك الفترة وهو على هذه الحال ويتعين إطعامه بالقوة. يمكنك أن تلحظ كم هو نحيل".

أشار إلى ممرضة فدخلت إلى القفص وغمرت وجه الفتى فى الإناء وعندئذ أخذ يلعق المسحوق.

"إنها حالة شائعة. وتوجد هنا حالات أكثر إثارة؛ أجرينا على كل حالة عملية تؤثر على مناطق مختلفة من نسيج المخ".

مررنا بسلسلة من الأقفاص شغلها رجال ونساء من جميع الأعمار. ووضعت لوحة على باب كل قفص تحدد نوع العملية التى أجريت له ووفرة من التفاصيل الفنية.

"ترتبط بعض هذه المناطق بردود فعل تلقائية والبعض الآخر بردود فعل

مكتسبة. وتعد هذه على سبيل المثال -"

استؤصلت لهذه الحالة، وفقا لتاريخها المدون، منطقة كاملة من مؤخرة الجمجمة. لا يستطيع صاحب الحالة التمييز بين مسافة وشكل الأشياء، وهى إعاقة أظهرها بسلسلة من الإيماءات المشوشة عندما تقترب منه المرضة. عجز عن تفادى عصا موضوعة فى مساره. وعلى الجانب الآخر، أصابته ثمرة فاكهة قدمت له بالفزع وتراجع فى ذعر. كما عجز عن الإمساك بقضبان قفصه وحاول محاولات خرقاء لأن يفعل ذلك أسفرت عن أن يقبض أصابعه على الهواء.

وغمز الرئيس لى وهو يقول "كان صاحب هذه الحالة هنا عنصرا مدهشا. نجحنا فى تدريبه حتى بلغ درجة مذهلة. كان يرد عند مناداة اسمه ويطيع إلى حد ما التعليمات البسيطة. وحل مسائل حسابية جد معقدة وتعلم كيفية استخدام أدوات بدائية. واليوم نسى كل ما تعلمه فهو لا يعرف اسمه ويعجز عن تأدية أهون الحيل. صار أغبى البشر جميعا - نتيجة لعملية صعبة على نحو خاص وهى استئصال فصوص صدغية صغيرة ".

أخذ بطنى يجيش من توالى البشاعات المصحوبة بتعليقات من شمبانزى يكشر عن أنيابه سرورا، رأيت رجالا مشلولين جزئيا أوكليا وآخرين حرموا من البصر بتدخل جراحى. رأيت أما شابة كانت تتمتع بغريزة أمومة متطورة جدا، حسبما أكد لى هليوس، اختفت منها تماما بعد التدخل الجراحى فى منطقة غلاف الرحم. ظلت تبعد عنها وليدها كلما حاول الاقتراب منها. أصبحت المسألة فوق الاحتمال بالنسبة لى. فكّرت فى نوفا، وفى أمومتها المرتقبة وكورت قبضتىّ من الحنق. ولحسن الحظ، أخذنى هليوس إلى حجرة أخرى مما أمهلنى فرصة لاستعادة رباطة جأشى.

قال بطريقة يلفها الغموض "ننخرط هنا فى أبحاث أكثر دقة لانسخر فيها المشرط إنما نستخدم وسيطا يقتضى استخدامه براعة أكبر بكثير - وهواستثارة

مناطق معينة في المخ باستخدام الموجات الكهربائية. ونجحنا في استخلاص نتائج مدهشة في هذا المضمار. هل تستخدمون هذه الطريقة على الأرض ؟".

رددت في حنق "نعم على القردة!".

احتفظ الشمبانزي بهدوئه وابتسم.

"بالطبع. على أية حال، لا أظن أنكم تمكنتم على الإطلاق من التوصل للنتائج الفائقة التي توصلنا إليها، ويمكن مقارنتها بتلك التي يريد دكتور كورنيليوس أن يعرضها عليك بنفسه. وفي غضون ذلك، لنستمر في جولتنا حول الحالات الشائعة".

قادني مرة أخرى إلى بضعة أقفاص انشغلت ممرضات بإجراء بعض التجهيزات. تمددت العناصر محل الدراسة هنا على طاولة. وأظهر قطع في الجمجمة منطقة معينة عارية في المخ. أخذ أحد القردة يضع أقطابا كهربائية ويولي الأخر عنايته للمخدر.

"ستلاحظ هنا أيضا أننا جعلنا عناصر محل الدراسة نائمة تحت تأثير مخدر متوسط وإلا لن يعتد بنتائج هذه الأبحاث لكنهم لا يشعرون بالألم".

صدرت عن العنصر محل الدراسة حركات متنوعة، عادة من جانب واحد من جسمه، بناء على النقطة التي توضع فيها الأقطاب. طفق رجل يهز ساقه مع كل شحنة كهربائية ثم يمدّها مرة أخرى حالما يتوقف سريان التّيار الكهربائي وكرر آخر نفس الحركة لكن بذراعه. أما الحالة التالية فكان الكتف بالكامل ينتفض في شكل تشنجات بسبب تأثير التيار. ذهبنا إلى ما هو أبعد، وهو فتى صغير تركزت التجربة في المنطقة المتحكمة في عضلات الفك. وأخذ الفتى البائس يعض، يعض إلى مالا نهاية وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة مروعة بينما ظل جسده المراهق ساكنا بلا حراك.

قال هليوس: «والآن انظر ما الذى يحدث عند إطالة أمد التعرض للتيار الكهربائى. ها هى نتيجة تجربة واصلناها إلى حدها الأقصى".

كان المخلوق الذى أكره على هذا المعالجة، فتاة جميلة ذكرتنى بنوفا من نواح معينة. وأخذ عدة ممرضين ذكورا وإناثا يرتدون ثيابا فضفاضة بيضاء يئزون حول جسدها العارى. بدأت الفتاة على الفور فى تحريك أصابع يدها اليسرى. تركت أنثى القردة التيار ساريا بدلا من أن تقطعه بعد مضى بضع ثوان مثلما حدث مع الحالات السابقة. توترت حركات الأصابع وأخذ المعصم ينتفض تدريجيا وبعد لحظة انتقلت الارتعاشة إلى الساعد ثم الجزء الأعلى من الذراع والكتف. وانتشرت الارتعاشة حاليا من اليد إلى الردف فالفخذ فالساق حتى أصابع القدم ثم عضلات الوجه. وبعد انقضاء عشر دقائق أصبح الجانب الأيسر من جسد الفتاة البائسة يرتج فى تشنجات عصبية عنيفة فى منظر بشع، تتنامى سرعته أكثر فأكثر ويصير أكثر عنفا.

لاحظ هليوس فى هدوء "هذا ما يسمى بظاهرة الامتداد. وهى ظاهرة معروفة جيدا وتصل بالتشنجات إلى ذروتها لتجسد كافة أعراض الصرع - وهو صرع غريب للغاية وعلاوة على ذلك، فهويؤثر على جانب واحد فقط من الجسم".

"توقفوا!"

عجزت عن كتمان صرخة خرجت من شفتىّ. جفل القردة جميعا والتفتوا نحوى ورمقونى بنظرة تأنيب. ربت كورنيليوس، الذى وصل فى التو، على كتفى ربتة ودودة.

"اعترف بأن هذه التجارب تقشعر لها الأبدان عندما لا تكون معتادا عليها. لكن يجب أن تضع فى حسبانك أنه بفضلها أحرز الطب والجراحة تقدما هائلا فى الربع الأخير من القرن الحالى".

لم تقنعنى هذه الحجة بالمرة، مثلها مثل تجربة شهدتها وتعرض خلالها الشمبانزى لذات المعاملة فى معمل على الأرض. هز كورنيليوس كتفيه وسحبنى بعيدا نحو ممر ضيق يفضى إلى حجرة أصغر.

قال لى فى نبرة وقورة "سترى هنا إنجازا هائلا، جديدا كل الجدة. لا يدخل هذه الحجرة سوى ثلاثة منا – هليوس بوصفه المسئول شخصيا عن هذه التجربة والذى صنع نجاحها وأنا ومساعد اختير بعناية فائقة. إنه غوريلا أصم وهو مخلص لى كل الإخلاص، بالإضافة إلى أنه همجى تماما. إذن أنت تقدر الأهمية التى أوليها لهذا العمل. إننى على استعداد أن أريك إياها لأننى أعلم أنك شخص كتوم. هذا لمصلحتك".

(٣٤)

دخلت الحجرة وفى البداية لم أر ما يبرر هذا الجو من الغموض. تطابقت الأجهزة مع تلك الموجودة فى الحجرة الأخرى؛ مولّدات، محوّلات وأقطاب كهربائية. كان يوجد عنصران فقط محل الدراسة، رجل وامرأة يرقدان وهما مربوطان على أريكتين متوازيتين. وبمجرد وصولنا أخذا يحدقان بنا فى حدة غريبة.

رحب المساعد الغوريلا بنا بغمغمة غير واضحة. تبادل هليوس معه بضع كلمات باستخدام لغة الصم والبكم. كانت تجربة غير مألوفة رؤية غوريلا وشمبانزى يحركان أصابعهما على هذا النحو. لا أدرى سببا لهذا ولكن الأمر بدا لى قمة السخف وكدت انفجر ضاحكا.

"كل شىء على ما يرام. إنهما هادئان. يمكننا بدء الاختبار على الفور".

قلت فى توسل "أى نوع من الاختبارات ؟"

ابتسم كورنيليوس حتى بدت أسنانه "أفضل أن اجعل الأمر مفاجأة لك".

خدّر الغوريلا المريضين وراحا فى النوم وعندئذ بدأ تشغيل آلات متنوعة. وتوجه هليوس إلى الرجل وفك الضمادة التى تغطى جمجمته وصوب على منطقة معينة وثبّت عليها الأقطاب. وظل الرجل ساكنا تماما. أخذت أسأل كورنيليوس بعينىّ عندما حدثت المعجزة.

شرع الرجل فى التحدث. أصدر صوته صدى فى أنحاء الحجرة بحيث علا على طنين المولّد بشكل فجائى مما جعلنى أجفل. لم تكن هلوسة من جانبى.

استخدم اللغة القردية فى التعبير عن نفسه بصوت رجل من الأرض أوصوت قرد على هذا الكوكب.

عبّر وجها العالمين خير تعبير عن زهو الانتصار. نظرا إلىّ وفى عينيهما لمعة شقاوة وخبث وتلذذ من انذهالى. أوشكت على التفوه بصيحة تعجب لكنهما أشارا لى بأن ألزم الصمت وانصت. كانت كلمات الرجل غير متسقة وخالية من الأصالة. لابد أنه بقى أسيرا لفترة طويلة فى المعهد وظل يكرر مقاطع من جمل سمعها تتردد من المرضات أوالعلماء. وأوقف كورنيليوس التجربة.

"لن نستخلص شيئا أكثر من هذا الفتى. لكن تبقى النقطة الأساسية وهى أنه يتكلم".

قلت متلعثما "إنه مذهل".

قال هليوس "إنك لم تر شيئا بعد فهو يتكلم مثل الببغاء أو كجراموفون. لكنى تجاوزت معها هذه النقطة بكثير". أشار إلى السيدة التى تنام فى هدوء.

"بكثير ؟"

قال كورنيليوس وهو يظهر نفس الإثارة مثلما فعل زميله "أفضل بمائة مرة، انصت فقط. ستتكلم هذه المرأة أيضا، كما ستشهد بنفسك حالا، إلا أنها لن تكرر مجرد كلمات سمعتها فى الأسر، فكلامها يكتسب مغزى استثنائيا. قد تمكن هذا العبقرى هليوس، بواسطة المزج بين عمليات جسمانية كيميائية سأعفيك من تفاصيلها، تمكن من إيقاظ ليس ذاكرتها الفردية فحسب إنما ذاكرة الجنس بأكمله. وبواسطة الشحنات الكهربائية تعود ذاكرتها إلى سلالة بعيدة للغاية من الأسلاف: ذكريات موغلة فى القدم تحيى ماض يبلغ عمره عدة آلاف من السنين. هل تدرك ما يعنيه هذا يا أوليس ؟"

انتابتنى حالة من الذهول بسبب هذا الادعاء بالغ المغالاة حتى أننى للحظة

اعتقدت بالفعل أن كورنيليوس المثقف قد جن؛ فالجنون موجود بين القردة وخاصة المثقفين منهم. في الوقت نفسه أمسك الشمبانزى الآخر بالأقطاب ليثبّتها على عقل المرأة. وظلت خاملة فترة من الوقت مثل الرجل ثم تنهدت تنهيدة عميقة وشرعت فى الكلام. وعبرت عن نفسها بالمثل باللغة القردية فى صوت خفيض لكنه واضح تماما يتغير من وقت لآخر، كأنه ينتمى إلى عدد من الأشخاص.كل كلمة تفوهت بها انحفرت فى ذاكرتى.

قال الصوت فى نبرة منزعجة قليلا "منذ فترة أخذ هؤلاء القردة يتكاثرون بشكل لا يتوقف بالرغم من أن جنسهم اعتبر أنه فى طريقه إلى الزوال بحلول فترة معينة. إذا استمر الوضع على هذا النحو فسيفوقونا عددا . . . ولن يقتصر الأمر على ذلك. فقد أصبحوا يتصرفون فى استعلاء. صاروا ينظرون فى أعيننا مباشرة فى وقاحة. أخطأنا عندما روّضناهم ومنحنا من نستعملهم كخدم قدرا من الحرية. إنهم الأكثر وقاحة على الإطلاق. ذات يوم دفعنى شمبانزى فى الشارع، وبينما هممت برفع يدى لأصفعه نظر إلىّ نظرة فيها تهديد فلم أجرؤ على ضربه.

"أخبرتنى آنا التى تعمل فى معمل أنه حدثت تغيرات هائلة هناك أيضا. ونتيجة لذلك لا تجرؤ على دخول الأقفاص بمفردها على الإطلاق. وتقول أنها تسمع فى الليل نوعا من الهمس وضحك خفى. يسخر أحد الغوريلا من المدير من وراء ظهره ويقلّد تشنجاته اللاإرادية".

توقفت المرأة، وتنهدت عدة تنهدات موجعة ثم مضت قائلة:

"لقد حدثت! نجح أحدهم فى التكلم؛ قرأت عن هذا الأمر فى صحيفة 'وومانز جورنال'. ورافقت الخبر صورة له أيضا. إنه شمبانزى".

هتف كورنيليوس معلنا "الأول هو شمبانزى! كما ظننت".

"يوجد آخرون عديدون. ظلت الصحف تذكر يوميا حالات جديدة. يعتبر بعض

علماء الأحياء هذا إنجازا علميا هائلا. ألا يدركون إلى أين سيؤدى كل هذا ؟ يبدو أن أحد الشمبانزى تفوه ببعض التهديدات البغيضة. إن أول شيء يفعلونه عندما يتكلمون هوالاعتراض على أى أمر يعطى لهم".

صمتت المرأة مرة أخرى واستأنفت الحديث بصوت مختلف، صوت رجل متحذلق إلى حد ما:

"إن ما يحدث كان يمكن تحسبه. لقد تملكتنا حالة من الكسل الذهنى. لا توجد كتب جديدة؛ حتى الروايات البوليسية أصبحت الآن عملية تتطلب جهدا فكريا عظيما للغاية. لا توجد ألعاب جديدة؛ فى معظم الحالات لعبة أو لعبتى ورق. حتى أفلام الأطفال لم تعد تغرينا بالمرة. فى غضون ذلك، يتأمل القردة فى صمت. تتطور عقولهم خلال التأمل الانفرادى . . . وهم يتكلمون. آه! ليس كثيرا أما معنا فبالكاد يتكلمون، باستثناء حفنة كلمات تفيد الرفض فى تهكم لمن يزال يجرؤ من الرجال البواسل على إعطاء أوامر لهم. لكن مع هبوط الليل، عندما تغيب يتبادلون الانطباعات ويوجّهون بعضهم البعض".

وعقب صمت طويل، يعود صوت امرأة للتحدث فى مرارة:

"ارتعبت للغاية. لا أستطيع مواصلة العيش على هذا النحو. فضّلت أن أسلم المكان إلى خادمى الغوريلا. تركت منزلى.

"كان يخدمنى فى ولاء منذ سنوات. بدأ يخرج فى المساء لحضور اجتماعات. تعلم التكلم. رفض أداء أى عمل. أمرنى فى الشهر الماضى أن أطهو وأغسل. بدأ يستخدم أطباقى وسكاكينى وشوكاتى. وفى الأسبوع الماضى طاردنى كى أخرج من غرفة نومى. اضطررت للنوم على كرسى ذى ذراعين فى غرفة الجلوس. حاولت ان استرضيه، لأننى لم أجرؤ على أن أوبخه أو أعاقبه. ضحك فى وجهى وزادت طلباته. كنت تعسة للغاية. تنحيت.

"لجأت إلى معسكر مع نساء أخريات تعرضن لنفس المحنة. كان يوجد رجال أيضا؛ لم يملك أغلبهم شجاعة أكبر منا. إنها حياة بائسة التى نحياها خارج البلدة. نشعر بالخزى والعار ونادرا ما نتحدث مع بعضنا البعض. أثناء الأيام الأولى القليلة لعبت لعبا تتطلب التحلى بالصبر. لم يعد عندى طاقة بعد".
توقفت المرأة ثانية وتولى رجل التحدث:

" أظن أننى وجدت علاجا للسرطان. أردت اختباره، مثل كل اكتشافاتى السابقة. تعاملت بحرص لكن لم أكن حريصا بما يكفى. امتنع القردة منذ وقت ليس بالقصير أن يسلّموا أنفسهم كى تجرى عليهم هذه التجارب. قبل أن أتوجه إلى جورج، قفص الشمبانزى، أمسك به اثنان من مساعدىّ. استعددت لأحقنه - الحقنة المسرطنة. تعين علىّ إعطاؤها له كى أتمكن من معالجته. بدت عينا جورج فى حالة إذعان. لم يتحرك لكنى لمحت عينيه الماكرتين تنظر من فوق كتفى. أدركت ما يحدث متأخرا جدا. لقد فرّ الغوريلا الست الذين احتجزتهم على سبيل الاحتياط من العدوى. إنها مؤامرة. سيطروا علينا. أدار جورج العملية. كرر تصرفاتى بدقة متناهية. أمرهم أن يقيدوننا على الطاولة وأطاعه الغوريلا على الفور، ثم أمسك بالحقنة وحقن بها ثلاثتنا جميعا بالسائل المميت. وأصبحت حاليا مصابا بالسرطان. هذا من المؤكد لأنه بالرغم من وجود بعض الشكوك بشأن فعالية العلاج إلا أن المصل الفتّاك جرّب منذ زمن طويل وثبتت فاعليته.

"بعد إفراغ محتوى الحقنة ربت جورج على خدى ربتة ودودة مثلما اعتدت أن أفعل مع قرودى. عاملتهم دائما معاملة جيدة. وتلقوا منى قبلات أكثر من اللطمات. وبعد مضى أيام قليلة، لاحظت ظهور الأعراض الأولى للمرض وأنا فى القفص الذى حبسونى فيه. وكذلك أصيب جورج الذى سمعته يخبر الآخرين بأنه سيجرب العلاج علىّ. وفزعت ثانية. ماذا لو أودى بحياتى أسرع من المرض! أعرف أنى مقضى علىّ، لكن تعوزنى الثقة الآن فى هذا العلاج الجديد. أفلحت أثناء الليل

فى توسيع قضبان قفصى وأفلت. لجأت إلى معسكر خارج البلدة. أمامى شهران فقط لأعيشهما. أقضيهما فى الصبر والنعاس".

أعقب هذا صوت أنثوى:

"كنت أعمل مروّضة حيوانات. اعتدت أن أؤدى استعراضا مع دستة من إنسان الغاب، هى حيوانات رائعة. اليوم أقف أنا داخل القفص بدلا منهم، ومعى فنانون آخرون يعملون بالسيرك.

"كى أعطيهم حقهم، يعاملنا القردة بشكل جيد ويقدمون لنا الكثير من الطعام. ويغيّرون القش الذى يوضع أسفل فراشنا عندما يصبح متسخا جدا. إنهم ليسوا قساة؛ هم لا يعاقبون منا سوى الذين يمانعون ويرفضون تأدية الحيل التى اعتزموا تعليمها لنا. إنها حركات بالغة الرقى! أمشى على أربع واتشقلب. يعاملوننى معاملة حسنة جدا. لست غير سعيدة. ليس لدى هموم أومسئوليات. تأقلم معظمنا مع هذا النظام".

سكتت المرأة هذه المرة لفترة طويلة حدّق خلالها فيّها كورنيليوس بإصرار يدعو للحرج. أستطعت قراءة أفكاره قراءة فاحصة. ألم يئن الأوان لمثل هذا الجنس البشرى الذى أصابه الوهن واستسلم بهذه السهولة أن يتنحى ليفسح المجال لسلالة أخرى أكثر رقيا ؟ تضرج وجهى بالدماء وأشحت بناظرىّ. استمرت المرأة بصوت موجع أكثر فأكثر.

"إنهم الآن يسيطرون على البلدة كلها. لا يوجد منا سوى مئات فقط نتجمع فى هذا المعقل وتحف بنا المخاطر. نشكل آخر نواة من البشر بالقرب من المدينة، لكن القردة لن يتحملوا بقاءنا طليقى السراح وملاصقين لهم إلى هذه الدرجة. فرّ البشر فى المعسكرات الأخرى إلى أكثر المناطق بعدا، إلى الغابة بينما استسلم آخرون كى يحصلوا على ما يسدون به جوعهم. أما نحن فبقينا مكاننا بسبب الكسل بشكل أساسى. ننام؛ نحن عاجزين عن تنظيم أنفسنا للمقاومة...

"هذا ما خشيته. اسمع ضجيجا همجيا يشبه محاكاة ساخرة لفرقة الموسيقى العسكرية. . . . النجدة! إنهم هم، إنهم القردة! إنهم يحيطون بنا. يقودهم غوريلات ضخمة. لقد استولوا على أبواقنا وطبولنا وأزيائنا العسكرية وأسلحتنا أيضا، بالطبع. . . . كلا ليس معهم أية أسلحة. آه، يالها من مهانة مريرة، إنها الإهانة العظمى! يوشك الجيش أن يطبق علينا وكل ما يحملونه هوالسياط!".

(٣٥)

تسربت بعض النتائج التى حصل عليها هليوس إلى الرأى العام. من المرجح أن هذا الشمبانزى نفسه هو الذى لم يستطع أن يمسك لسانه من فرط حماسه بالنجاح. ويتداول فى المدينة نبأ نجاح عالم فى جعل البشر يتكلمون. وعلاوة على ذلك، نوقشت اكتشافات المدينة المدفونة فى الصحف، وبالرغم من أن دلالتها شوهت، إلا أن صحفيا أواثنين أوشكا على أن يفطنا إلى الحقيقة. نتيجة لذلك، ساد جو من الترقب فى الخارج، تمثل فى تعامل السلطات بشأنى فى حذر متنام، وهو اتجاه مزعجا على نحو متصاعد.

يوجد أعداء كثيرون لكورنيليوس. لم يجسر على الجهر باكتشافه بوضوح، وحتى ولو فكّر فى ذلك فسينقلب عليه رؤساؤه؛ ففصيلة إنسان الغاب بقيادة زايوس تقف صفا واحدا فى مواجهته. ويتحدثون عن مؤامرة ضد الجنس القردى ويشيرون إلىّ بدرجة أو بأخرى بشكل علنى على أننى أحد المنشقين. لم يتبنى الغوريلا حتى الآن موقفا رسميا إلا أنهم دائما يتصدون لأى شىء يميل إلى تكدير القانون والنظام.

اليوم خضت تجربة الشعور العميق. فقد وقع الحدث الذى طال انتظاره. فى البداية غمرتنى السعادة ولكن بعد أن أعدت التفكير ارتجفت من الخطر الجديد الذى يمثله. لقد ولدت نوفا طفلا ذكرا.

أصبح لى ولد، صار لى ابن على كوكب سورور. رأيته لكن بعد شق الأنفس. فقد تصاعد تشديد الاجراءات الأمنية ولم أتمكن من زيارة نوفا إلا بعد مضى

أسبوع على الولادة. أعلمتنى زيرا بالنبأ. ستظل هى على الأقل صديقة مخلصة أيا كان ما سيحدث. ألفتنى مضطربا للغاية فقطعت على نفسها عهدا أن تتولى مهمة ترتيب لقاء بينى وبين أسرتى الجديدة. جاءت لتأخذنى بعد انقضاء أيام قليلة على الحدث لأراهما فى وقت متأخر من الليل لأن الرضيع يخضع لمراقبة مشددة بالنهار.

رأيته. كان طفلا رائعا؛ يجلس على القش مثل مسيح جديد، يمسح أنفه فى صدر أمه. يشبهنى وإن لم يخل من حسن نوفا التى زمجرت مهددة عندما دفعت الباب حين دخلت. هى الأخرى تحس بالترقب. انتصبت واقفة ونشبت أظفارها مثل المخالب لكنها سكنت حين عرفت أنه أنا. إننى على يقين من أن هذه الولادة ارتقت بها بضع درجات على سلم الإنسانية. تحول اللمعان سريع الزوال فى عينيها إلى توهج دائم. أقبّل ابنى فى عاطفة، دون أن أسمح لنفسى التفكير فى الغيوم المتجمعة فوق رؤسنا.

سيصبح رجلا، رجلا بمعنى الكلمة، إننى متأكد. يشع الذكاء فى جميع ملامحه وفى عينيه. استطعت إحياء الشعلة المقدسة. يرجع الفضل إلىّ فى ظهور جنس بشرى جديد وسيزدهر على سطح هذاالكوكب. حينما يكبر سيكون الأول فى فرع ثم

– حينما يكبر! ارتجف عند التفكير فى ظروف طفولته وجميع المعوّقات التى ستقف فى مساره. ليكن! نحن ثلاثتنا سننتصر، أنا على يقين من هذا. أقول ثلاثتنا لأن نوفا أصبحت الآن واحدة منا. يحتاج المرء فقط إلى أن يبصرها وهى تنظر إلى وليدها. بالرغم من أنها لا تزال تلعقه بنفس أسلوب الأمهات على هذا الكوكب العجيب إلا أن عينيها تشع بالحب.

أضعه ثانية على القش. اطمأننت من طبيعته. إنه لم يتكلم بعد لكن – أكاد يجن جنونى من الفرحة، وهو لم يبلغ سوى ثلاثة أيام من العمر! – سيتكلم يوما

ما. وبدأ الآن يبكى، يبكى مثل أطفال البشر ولا يئن. لاحظت نوفا، حين سمعته، الفارق مما جعلها تراقبه فى انبهار ومتعة طاغية.

لم تفت زيرا هذه الملاحظة أيضا. اقتربت وارهفت السمع بأذنيها المكسوتين بالفراء، وراقبت الرضيع لفترة طويلة، فى صمت، وعلى وجهها تعبير الخشوع. ثم أشارت لى بأن موعد انصرافنا قد حان. سيحيق بنا جميعا خطر داهم إذا عثروا علىّ هنا. وعدتنى أن ترعى الصبى وأعلم أنها ستفى بوعدها. كما أننى على وعى بأنه يشتبه فى ارتباطها بى ويرعبنى احتمال طردها نتيجة لذلك. لابد ألا أجازف بهذه المخاطرة.

احتضن أسرتى فى دفء وأغادر المكان. رأيت أنثى القردة تنحنى بالمثل على هذا الجسد البشرى وتضع خطمها على حاجبه قبل أن تغلق القفص. ولم تعترض نوفا على ذلك! سمحت بهذه القبلة التى لابد وأنها أصبحت عادة يومية. حينما تذكرت العداء الذى طالما أظهرته لزيرا، أعجز عن تصور ما يحدث الآن سوى على أنه معجزة.

غادرنا المبنى وأنا ارتجف من قمة رأسى حتى أخمص قدمىّ ولاحظت أن زيرا أيضا متأثرة مثلى.

صاحت وهى تمسح دمعتها "أشعر يا أوليس أحيانا بأن هذا الطفل، طفلى أنا الأخرى!"

(٣٦)

صارت زياراتى الدورية للبروفيسور أنتل واجبا موجعا أكثر فأكثر. مايزال فى المعهد لكنهم اضطروا أن ينقلوه من الزنزانة المريحة التى عملت على أن يودعوه بها. أخذ عقله يذوى سريعا فى هذه الزنزانة كما أنه بين الحين والآخر ينطلق فى نوبات من الغضب جعلته خطيرا. وحاول عضّ حراسه. لذا فقد جرّب معه كورنيليوس أسلوبا آخر. وضعه فى قفص عادى مفروش بالقش وأعطاه رفيقة: الفتاة التى اعتاد النوم إلى جانبها فى حديقة الحيوان. رحّب البروفيسور بها بشكل صاخب وأظهر سعادته بصورة حيوانية وتغيّر سلوكه على الفور. انتهز فرصة وارتآها بمثابة منحه حياة جديدة.

وجدته الآن فى صحبتها. يبدو أنه سعيد للغاية. زاد وزنه وبدا أصغر سنا. بذلت أقصى ما بوسعى للاتصال به. حاولت اليوم مجددا لكن دونما جدوى. إنه يبدى اهتماما فقط بالكعك الذى أقدمه له. عندما تكون الحقيبة خالية يعود أدراجه ويستلقى على الأرض بجانب رفيقته التى طفقت تلعق وجهه.

تمتم ورائى شخص قائلا: "الآن أصبحت قادرا على أن الذكاء يمكن أن يتبخر مثلما يمكن اكتسابه".

كان كورنيليوس هو قائل العبارة وهو يبحث عنى لا ليحدثنى بشأن البروفيسور إنما لأمر جلل. تبعته لمكتبه حيث وجدت زيرا تنتظرنى. كانت عيناها محمرتين كأنها تبكى. بدا أنهما لديهما أخبار سيئة بالنسبة لى ولم يجسر أى منهما على مصارحتى بها.

"هل هو ابنى ؟"

قالت زيرا فجأة "إنه على مايرام".

تمتم كورنيليوس وهو عابس "على مايرام للغاية".

أعلم أنه طفل رائع لكننى رأيته منذ شهر. فقد شددوا الإجراءات الأمنية حوله أكثر من ذى قبل. ووضعت زيرا المشكوك فيها تحت مراقبة لصيقة.

كرر كورنيليوس كلامه "أكثر من على مايرام، فهو يبتسم ويبكى مثل طفل القردة . . . وبدأ يتكلم".

"وعمره ثلاثة أشهر!"

"كلمات أطفال لكن لا يوجد إلا ما يشير إلى أنه سيتكلم بصورة طبيعية فى وقت لاحق. فى واقع الأمر، إنه مبكر فى نموه على نحو خارق".

ابتهجت وغضبت زيرا من سلوكى الذى أظهرت فيه صورة الأب المولع بابنه.

"ألاتدرك أن هذه مصيبة ؟ لن يدعه الآخرون مطلق السراح".

قال كورنيليوس معلقا فى هدوء "علمت من مصادر موثوق بها أن قرارات مهمة سيتخذها المجلس الأعلى بشأنه عندما ينعقد بعد أسبوعين من الآن".

"قرارات مهمة ؟"

"فى منتهى الأهمية. ليس هناك شك فى أنهم لن يستغنوا عنه. . . ليس خلال الفترة القادمة على الأقل، سيؤخذ بعيدا عن أمه".

"ألن يسمحوا لى برؤيته ؟"

استطرد الشمبانزى موضحا "أنت بالذات قبل الكل . . . كلا لا تقاطعنى. نحن لم نأت إلى هنا كى نأسى لحالنا إنما أتينا لنضع خطة عمل. حسنا لدى معلومات محددة. سيوضع ابنك فى مكان أشبه بقلعة تحت مراقبة إنسان الغاب. نعم إن زايوس دبّر لهذا الأمر منذ زمن طويل وسيتغلب علينا".

عند هذه النقطة كوّر كورنيليوس قبضته فى غضب جامح وغمغم بسباب ذميم.

وواصل كلامه:

"غنى عن البيان أن نذكر أن المجلس يعلم تمام العلم إلى أى مدى يمكن الوثوق بالآراء العلمية لهذا الأحمق العجوز إنما يتظاهرون بتصديق أنه أكثر كفاءة منى فى دراسة هذا العنصر الفريد لأنه يعد تهديدا لجنسنا. وهم يعوّلون على زايوس فى تولى مهمة منع الطفل من تشكيل أى أذى".

أصابنى الذهول فمن المستحيل أن أترك ابنى فى يدىّ هذا المعتوه الخطر. لكن كورنيليوس لم ينته بعد من كلامه.

"لايقتصر التهديد على الطفل فقط". ظللت صامتا ونظرت إلى زيرا التى طأطأت رأسها.

"إنسان الغاب يكرهونك لأنك الدليل الحى على زيف ضلالاتهم العلمية والغوريلا يعتبرونك خطيرا بحيث لا يأمنوا جانبك طالما أنت طليق السراح. يسيطر عليهم الذعر من احتمال إنشائك لجنس جديد على هذا الكوكب. لكن بعيدا عن وقوع هذا الاحتمال فى المستقبل من عدمه، يرجع الفزع لديهم إلى أنك فى حد ذاتك كنموذج تثير القلاقل بين البشر. فقد تواترت أنباء عن هياج عصبى غير معتاد مع الذين تتعامل معهم".

هذا صحيح. فضمن زياتى الأخيرة إلى حجرة الأقفاص، لاحظت تغيرا بين البشر كأنما غريزة غامضة أخبرتهم بحدوث الولادة الخارقة. وحيّونى حين أطللت عليهم بعواء جماعى.

اختتم كورنيليوس قوله فجأة "الحق أقول لك، إن أخشى ما أخشاه هو أن يقرر المجلس تصفيتك خلال الأسبوعين القادمين . . . أو على الأقل يستأصل جزءا من مخك متذرعا بإجراء بعض التجارب. أما بالنسبة إلى نوفا، أظن أنهم سيقرروا إبعادها أيضا أيضا لأنها كانت على اتصال وثيق بك".

هذا مستحيل! أنا الذى اعتقدت أننى مكلّف بمهمة شبه إلهية! أحسست ثانية بأننى أكثر المخلوقات تعاسة واستسلمت إلى أبشع أنوا ع القنوط. وضعت زيرا

يدها على كتفى.

"إن كورنيليوس محق تماما فى عدم إخفاء كامل الحقيقة عنك. لكن ما لم يخبرك به هو أننا لن نتخلى عنك. فقد قررنا أن ننقذكم ثلاثتكم جميعا وسيعاوننا فى ذلك مجموعة من الشمبانزى الشجعان".

"ومالذى يمكن أن عمله وأنا فرد واحد من جنسى ؟"

"لابد أن ترحل من هنا. لابد أن تغادر هذا الكوكب الذى ما كان يجب عليك أن تأتى إليه على الإطلاق. لابد أن تذهب إلى حيث تنتمى. إن سلامة ابنك وسلامتك مبنية على ذلك".

خرج صوتها مخنوقا كأنها على وشك البكاء. إنها متعلقة بى أكثر مما كنت أظن. وأصابنى أنا أيضا الكدر العميق على حزنها وبدرجة لا تقل عنه بسبب احتمال ألا أراها ثانية أبدا. لكن ما السبيل إلى الهروب من هذا الكوكب؟ أعد كورنيليوس خطة.

قال "هذا صحيح أننى وعدت زيرا بمساعدتك على الهرب وسأفى بوعدى حتى ولو أدى ذلك إلى أن أفقد عملى. وسأشعر عندئذ أننى لم أتهرب من واجبى كقرد. إذا تهددنا خطر فسنتفاداه بعودتك إلى الأرض. . . . أظن أنك قلت ذات مرة أن السفينة الفضائية التى أتيت بها لم يمسها سوء ويمكنها إعادتك إلى وطنك ؟"

"بدون أدنى شك. فهى تحتوى على ما يكفى من الوقود والأكسجين ومؤن تكفى لأن نذهب إلى أطراف الكون. لكن كيف أصل إليها ؟"

"إنها لا تزال تدور فى مدار حول كوكبنا. وقد تتبعها صديق فلكى ويعلم كل دقيقة عن مسارها. أما عن وسيلة الوصول إليها؟ الآن اسمعنى. سنطلق خلال عشرة أيام بالضبط قمرا صناعيا يحمل بشرا بالطبع نريد اختبار تأثير أشعات معينة عليهم. . . . كلا لا تقاطعنى! يقتصر عدد البشر على ثلاثة أفراد: رجل وامرأة وطفل".

فهمت خطته فى لمح البصر وقدّرت براعته وحذقه - لكن ماذا عن العراقيل!

"بعض العلماء المسئولين عن عملية الإطلاق أصدقاء لى استملتهم لصالح قضيتك. سيوضع هذا القمر الصناعى فى مسار سفينتك وسيكون قابل للملاحة به فى حدود معينة. وقد تدّرب الثنائى البشرى على تنفيذ بعض الحركات باستخدام الانفعالات الشرطية. أحسب أنك ستكون أبرع منهم. . . وتأتى هنا خطتنا: ستصبحون أنتم الثلاثة بديلا عن الركاب الأصليين. وليس هذا بالعسير جدا. كما قلت لك، يوجد لدى الشركاء اللازمين: إن الشمبانزى ينظرون إلى الاغتيال باشمئزاز. لن يدرك الآخرون حتى الخدعة التى مورست عليهم".

يعد هذا الاحتمال الأكثر رجاحة لأنه بالنسبة لمعظم القردة: الرجل هو الرجل وكفى. ولا يشد انتباههم الاختلافات الموجودة بين الأفراد.

"سأجعلك تنخرط فى دورة تدريبية مكثفة خلال هذه الأيام العشرة. هل تظن أنه بمقدورك الصعود إلى سفينتك ؟"

من المفترض أنها عملية ممكنة. لكن ليست هذه هى الصعوبات والمشكلات التى أفكر فيها فى هذه اللحظة، فأنا لا أستطيع تجاوز الشعور بالسوداوية التى انتباتنى عندما طرأت علىّ فكرة الرحيل من كوكب سورور وترك زيرا ورفاقى، نعم رفاقى من البشر. أشعر إزائهم كأننى جندى هارب. ومع هذا فقبل كل شىء لابد أن أنقذ ابنى ونوفا. لكننى سأعود. نعم فيما بعد أقسم على رؤوس الأسرى الموجودين فى الأقفاص، سأعود وفى يدى عدة أوراق رابحة.

كنت ذاهلا إلى الدرجة التى جعلتنى أعبر عن أفكارى بصوت عال.

"سيحدث هذا خلال أربعة أو خمسة أعوام وفقا لزمنك، الزمن الذى ستقضيه خلال رحلتك لكن سيوازى ما يزيد على أكثر من ألف عام بالنسبة لنا أولئك الجالسين فى منازلهم. لا تنس أننا اكتشفنا قانون النسبية. وفى غضون ذلك، ناقشت مع أصدقائى من الشمبانزى حجم الخاطرة وقررنا المجازفة وتحملها".

تركنا بعضنا البعض بعد أن اتفقنا على اللقاء فى اليوم التالى. غادرت زيرا المكان أولا. وانتهزت فرصة بقائى مع كورنيليوس للحظة لأشكره من صميم

فؤادى. مازلت أتساءل فى داخلى لماذا يتحمل كل هذا من أجلى وقرأ هو أفكارى.

قال "إن زيرا هى من يجب شكره فأنت مدين لها بحياتك. أما بالنسبة لى فأنا لا أدرى ما إذا كنت سأتجشم كل هذا العناء أو أتحمل هذه المجازفات. لكنها لم تكن لتسامحنى إذا كنت شريكا فى جريمة قتل . . . وعلى أية حال . . . ".

توقف. كانت زيرا تنتظرنى فى الردهة فى الخارج. وقال لى بعد أن تأكد من استحالة أن تسمعه وهمس بسرعة:

"على أية حال سيكون أفضل لها ولى أنا أيضا اختفاءك من هذا الكوكب".

وأغلق الباب خلفى بمجرد مغادرتى للغرفة. وصرت أنا وحدى مع زيرا وخطونا بضع خطوات عبر الردهة.

"زيرا!"

توقفت وأخذتها بين ذراعىّ. إنها مكدرة مثلى. رأيت دمعة تنساب على خطمها بينما نحن واقفين نحتضن بعضنا البعض حضنا لصيقا. آه ما الذى يعنيه هذا الغطاء الخارجى المنفر! إننى أتواصل مع روحها فحسب. اغمض عينىّ كى لا أرى وجهها البشع، الذى صار أكثر قبحا من الانفعال. أحس بجسدها بلا هيئة يرتعش إزاء جسدى. أجبرت نفسى على أن أحك خدى بخدها. كنا على وشك التقبيل كعشاق عندما انتفضت بشكل غريزى ودفعتنى بعيدا فى عنف.

وبينما أنا واجم هناك، لا أدرى ما التصرف الذى يجب أن أسلكه، خبأت رأسها بكفيها الطويلين المكسوين بالشعر وانخرطت أنثى القرد المروعة هذه فى البكاء وأعلنت فى يأس:

"آه يا محبوبى، إنه مستحيل. ياللخجل، لكنى لا أستطيع، لا أستطيع. إنك بالفعل غير جذاب!".

(٣٧)

نجحنا في مهمتنا العسيرة. ومرة أخرى أسافر عبر الفضاء على متن سفينة كونية تندفع مثل مذنب في اتجاه النظام الشمسي في سرعة متنامية على الدوام.

لست بمفردي فمعي نوفا وسيريوس*، ثمرة عاطفتنا العابرة بين الكواكب، الذي يستطيع أن يقول "بابا" و"ماما" وكلمات أخرى كثيرة. ويوجد على متن السفينة أيضا دجاجتين وأرنبين، وثمار متنوعة وضعها العلماء في القمر الصناعي لدراسة تأثير الإشعاع على كائنات عضوية غاية في التنوع. كل هذا لن يضيع هباء.

نفذت خطة كورنيليوس بحذافيرها. اختير بدلاؤنا في يسر. حلت المرأة مكان نوفا في المعهد؛ وسلّم الطفل إلى زايوس. وسيظهر الطفل بجلاء عجزه عن التكلم وأنه ليس سوى حيوان. ربما لن يعتبروني حينئذ مصدر خطر، وبما أن الرجل الذي حل مكاني لن يستطيع التكلم فقد يبقون على حياته. من المستبعد على الإطلاق أنهم سيشكون في أمر الاستبدال. فكما قلت سابقا أن إنسان الغاب لا يميزون بين رجل وآخر. سينتصر زايوس. سيكون لدى كورنيليوس بعض الهموم ولكن كل هذا سرعان ما سيتبدد. . . ما الذي أعنيه! إنه نسي بالفعل فلقد مضت حقب هناك بينما انقضت شهور قليلة وأنا أقطع المفازات في الفضاء. وبالنسبة لي، أخذت ذكرياتي تنحسر سريعا مثل جسم العملاق المهول منكب الجوزاء مع ازدياد زمن الفضاء بيننا فقد تغير حجم هذا الوحش إلى بالونة صغيرة ثم صار في حجم برتقالة. والآن لم تعدو سوى نقطة دقيقة لامعة في المجرة. وكذلك أمسى حال ذكرياتي على سورور.

---

* Sirius هو الاسم الإغريقي لكوكب الشعري الذي عرفه العرب قديما وورد ذكره في القرآن الكريم

كان من غير المنطقى أن يساورنى القلق. نجحت فى إنقاذ أعز الناس إلى قلبى. من الذى أفتقده هناك ؟ زيرا ؟ نعم، زيرا. لكن المشاعرى التى دبت فيها الحياة بيننا ليس لها اسم على الأرض أو أى مكان فى الكون. يعتبر الانفصال أمرا ضروريا. لابد أنها استعادت راحة بالها وربّت أبناءها من الشمبانزى بعد زواجها من كورنيليوس. البروفيسور أنتل ؟ ليذهب البروفيسور إلى الجحيم! لم يعد هناك شىء أستطيع فعله له، ويبدو أنه وجد حلا مرضيا لمشكلة الوجود. تصيبنى رعدة أحيانا عندما أفكر فيما لو وضعت فى بيئته، بدون وجود زيرا، أنا نفسى يحتمل أننى كنت سأسقط وأتدنى مثله تماما.

صعدنا إلى سفينتنا بدون أى تعقيدات. كنت قد اقتربت أكثر فأكثر من السفينة عن طريق توجيه القمر الصناعى ودخلت المقصورة الرئيسية التى تركت أبوابها مفتوحة على مصراعيها تحسبا لعودتنا النهائية بقاربنا. ثم تولّت الروبوتات مهمة إغلاق كل المخارج. أصبحنا على متن السفينة. مازالت الأجهزة كما هى وأخذ العقل الالكترونى فى تنفيذ كافة العمليات اللازمة لرحيلنا. وتظاهر شركاؤنا على كوكب سورور بأن القمر الصناعى انفجر أثناء طيرانه بعد فشله فى أن يوضع فى مساره.

مضى علينا عام ونصف العام ونحن مسافرين وفقا لزمننا. كدنا نقترب من سرعة الضوء وقطعنا مسافة هائلة فى الفضاء فى وقت جد قصير، وشرعنا بالفعل فى مرحلة الإقلال من السرعة التى ستستغرق عاما آخر. مافتئت أعجب بأسرتى الجديدة فى كوننا الصغير.

أبلت نوفا حسن البلاء أثناء الرحلة. أصبحت شيئا فشيئا أكثر عقلانية. أعادت الأمومة تشكيلها. تقضى ساعات طوالا فى العناية بابنها الذى يثبت أنه كمعلم لها، أفضل من أبيه. بدأت تنطق الكلمات صحيحة مثلما يتفوه بها. إنها لم تتكلم معى بعد لكننا تواضعنا على مجموعة من الإيماءات التى تمكننا من التفاهم مع

بعضنا البعض. أشعر وكأننى عشت معها طول حياتى. بالنسبة إلى سيريوس، إنه بحق درة الكون. يبلغ من العمر الآن عاما ونصف العام. ويمشى بالرغم من الجاذبية الثقيلة ويصدر ضجيجا بلا توقف. لا أستطيع أن اصبر جتى أريه للبشر على الأرض.

ياله من إحساس مشحون ذلك الذى شعرت به هذا الصباح عندما لاحظت أن الشمس بدأت تشغل حيزا ملحوظا! بدت لنا الآن مثل كرة بلياردو مشوبة بالصفرة. نبهت نوفا وسيريوس إليها. شرحت لهما طبيعة هذا الجرم السماوى، الذى يعد جديدا بالنسبة لهما، وفهما. اليوم يتكلم سيريوس بطلاقة وكذلك نوفا.كانت تتعلم فى نفس الوقت مثله. إنها معجزة الأمومة، معجزة أنا وضعت لبناتها! عجزت عن الارتقاء بكل البشر على كوكب سورور من الحالة الحيوانية ولكن نجاحى فى حالة نوفا كان تاما.

صارت الشمس تكبر كل لحظة. أحاول أن أميز الكواكب عبر التليسكوب. تعرفت فى يسر على موضعى فى الفضاء. يمكننى رؤية عطارد وزحل والمريخ و. . . الأرض نعم هاهى الأرض!

اغرورقت عينىّ بالدموع. فقط الشخص الذى عاش عاما كاملا على كوكب القردة يستطيع أن يقدر مشاعرى. . . أعرف أنه بعد سبعمائة عام لن أعثر على والدىّ أو أصدقائى، ومع هذا فأنا على أحر من الجمر لأرى بشرا طبيعيين مرة أخرى.

الصقنا وجوهنا بالنوافذ الدائرية للسفينة، ونحن نراقب الأرض تقترب. لم أعد فى حاجة إلى تليسكوب لأميز القارات. أصبحنا فى المدار ندور حول كوكبى العجوز. أستطيع رؤية أستراليا وأمريكا ثم . . . نعم ها هى فرنسا. نحتضن بعضنا بعضا ونحن نصدر نشيجا.

اعتلينا القارب الثانى بالسفينة. قد أعدت كل الحسابات بهدف الهبوط فى باريس، أتمنى ذلك. دخلنا الغلاف الجوى. تبدأ الصواريخ الكابحة عملها. تنظر نوفا إلىّ وتبتسم. تعلمت كيف تبتسم وأيضا كيف تنتحب. يفتح ابنى ذراعيه لأقصى مدى فى دهشة. توجد أسفلنا باريس. وما يزال برج إيفل فى مكانه.

توليت زمام القيادة ووجهت القارب فى دقة بالغة. إنها معجزة فنية! وتمكنت بعد غياب دام سبعمائة عام من الهبوط فى أورلى - الذى لم يتغير كثيرا - فى نهاية مدرج بعيد جدا عن مبانى المطار. لابد وأنهم لاحظوا وجودى لذا فكل ما احتاجه هو الانتظار. يبدوأنه لا توجد حركة ملاحة جوية؛ هل يمكن أن يكون المطار قد أصبح مهجورا ؟ كلا ها هى طائرة تتحرك. إنها تتطابق مع الطائرات التى كانت تطير فى زمنى وعصرى!

تتحرك سيارة من المبنى. إنها شاحنة متجهة نحونا. أوقف عمل الصواريخ بعد أن وقعت فريسة لشوق محموم. يالها من قصة تلك التى سأرويها لرفاقى من البشر! ربما لن يصدقونى ولكن معى دليل؛ نوفا وابنى.

تقترب السيارة. إنها شاحنة ذات طراز قديم جدا: أى بأربع عجلات ومحرك احتراق. سجلت هذه التفاصيل بشكل آلى. ظننت أنهم أودعوا مثل هذه السيارات فى المتاحف منذ زمن بعيد.

توقعت أيضا أن يستقبلونى استقبالا رسميا إلى حد ما. جاء عدد قليل من الأشخاص لتحيتى. إنهما شخصان فقط حسبما أرى. لكن كم أننى غبى - بالطبع ما كانوا ليعرفوا. لكن عندما علموا !

نعم جاء اثنان. لا أستطيع تبين ملامحهما لأن الشمس تنعكس على واجهة السيارة الزجاجية وهى واجهة متسخة للغاية. سائق وراكب واحد. يلبس الراكب زيا عسكريا. إنه ضابط أستطيع رؤية لمعان شارات الرتب النحاسية. من المحتمل أن يكون قائد المطار وسيلحق به آخرون.

توقفت السيارة على بعد خمسين مترا منا. التقطت ابنى بين ذراعيّ وغادرت القارب. تبعتنى نوفا بعد تردد للحظة. تبدو مذعورة ولكنها سرعان ما ستعتاد الأمر.

يهبط السائق من السيارة. أعطانى ظهره. تغطى الحشائش الطويلة المسافة بينى وبينه فيبدو نصفه فقط.

يفتح الباب للراكب ليهبط. لم أكن مخطئا، كان ضابطا؛ ضابطا ذا رتبة كبيرة من شارات الرتب النحاسية. يقفز من السيارة. يخطو خطوات نحونا، يظهر من وراء الحشائش وفى النهاية يتضح لنا بكامل هيئته. تطلق نوفا صرخة وتنزع منى ابنى وتندفع نحو القارب بينما ظللت مغروسا فى مكانى، عاجزا عن أن أحرك عضلة واحدة أوانبس ببنت شفه.

كان غوريلا.

(٣٨)

رفعت فيليس وجن رأسيهما من المخطوطة التى انكبا عليها ونظر كل منهما إلى الآخر لفترة من الوقت دون أن يتفوها بكلمة.

قال جن فى النهاية محاولا أن يكره شفتيه على الابتسام قصة يحتمل حدوثها".

ظلت فيليس غارقة التفكير. تأثرت ببعض أجزاء من القصة وبدا أنها تحتوى على ذرة من الحقيقة. قالت هذا إلى رفيقها.

"إنها توضح أنه يوجد شعراء فى كل مكان، كل ركن من أركان الكون، كما يوجد أيضا من هم مغرمون بالمزاح".

تدبرت الأمر لكنها لم تكن لتقتنع بسهولة مثله. ومع هذا فهى وافقت على مضض.

"إنك على حق يا جن. هذا ما أظنه أيضا. . . . بشر عاقلون ؟ بشر موهوبون بنعمة العقل ؟ بشر ألهموا بالذكاء ؟ كلا هذا مستحيل؛ لقد تجاوز المؤلف الحد فى هذه النقطة. لكن يا للأسف!

قال جن "أوافقك الرأى والآن حانت عودتنا".

فرد الشراع معرّضا إياه لأشعة مجمّعة من ثلاث شموس. ثم بدأ فى إدارة روافع القيادة مستخدما أياديه الأربع الماهرة، بينما استبعدت فيليس آخر ظل من شك بهز أذنيها المخمليين هزة مليئة بالنشاط، ونظرا لأنها عائدة إلى الميناء، أخرجت علبة تجميل صغيرة ووضعت اللمسات الأخيرة على خطمها الصغير العزيز.

أحـــــدث إصـــــدارات روايـات الـهـــــلال

العدد	اسم الرواية	المؤلف	التاريخ	الثمن الجنيه
٦٧٣	غواية الإسكندر	محمد جبريل	يناير ٢٠٠٥	٦,٠٠
٦٧٤	عاشق الحى	يوسف أبو رية	فبراير ٢٠٠٥	٦,٠٠
٦٧٥	يا قلبى لا تحزن	منال القاضى	مارس ٢٠٠٥	٥,٠٠
٦٧٦	أبقى الباب مفتوحا	فؤاد قنديل	أبريل ٢٠٠٥	٦,٠٠
٦٧٧	لو لم يكن اسمها فاطمة	خيرى الذهبى	مايو ٢٠٠٥	٧,٠٠
٦٧٨	محمد يا صفرى	يشار كمال	يونيه ٢٠٠٥	٨,٠٠
٦٧٩	خريف الجنرال	حمدى البطران	يوليو ٢٠٠٥	٩,٠٠
٦٨٠	دراكيولا	برام ستوكر	أغسطس ٢٠٠٥	٦,٠٠
٦٨١	شرفة الهذيان	ابراهيم نصر الله	سبتمبر ٢٠٠٥	٦,٠٠
٦٨٢	دق الطبول	محمد البساطى	أكتوبر ٢٠٠٥	٥,٠٠
٦٨٣	العابرون	محمد إبراهيم طه	نوفمبر ٢٠٠٥	٦,٠٠
٦٨٤	دموع الچيوكنده	نادية شكرى	ديسمبر ٢٠٠٥	٦,٠٠

رقم الإيداع: ٨٦١٢/٢٠٠٤
I. S. B. N
977 - 07 - 1037 - 7

المؤلف



بيير بول

- ولد فى مدينة «أفينيون» الفرنسية عام ١٩١٢، وتخرج فى مدرسة الكهرباء العليا فى باريس.
- فى عام ١٩٣٨ انتقل إلى ماليزيا ليعمل ملاحظاً للعمال فى مزرعة لشجر المطاط.
- شارك فى الحرب العالمية الثانية ووقع فى أسر القوات اليابانية عام ١٩٤٣ لكنه تمكن من الهرب عام ١٩٤٤.
- حصل على وسام الجوقة الفرنسية من طبقة فارس.
- من أشهر مؤلفاته «جسر على نهر كواى» (١٩٥٢) و«كوكب القردة» (١٩٦٣) اللتين تحولتا إلى فيلمين صارا من كلاسيكيات السينما العالمية.
- توفى بيير بول عام ١٩٩٢ بعد أن ترك رصيدا أدبيا كبيرا من ٢٤ رواية وأربع مجموعات قصصية بخلاف عدة مؤلفات تناولت ذكريات الطفولة وفترة اعتقاله.

المترجم



هشام ممدوح طه

□ هشام ممدوح طه صحفى بالقسم الخارجى بالطبعة الدولية بالأهرام ترجم هذا العمل نقلا عن الطبعة الانجليزية التى قام بها الأديب الانجليزى «ألكسندر والاس فيلدنج» (١٩١٨ - ١٩٩١) الشهير باسم «زان فيلدنج» عن النص الفرنسى عام ١٩٦٥.

□□ ترجم كتاب «الحرب النفسية ضد دول المواجهة فى منطقة الجنوب الإفريقى (١٩٨٨).

□ كما ترجم رواية «عالم رائع جديد» للناشئين للأديب الانجليزى «الدوس هكسلى».

كوكب القردة



تعد رواية «كوكب القردة» من روائع أدب الخيال العلمى، حيث تطرح فى بساطة مذهلة مأساة الجنس البشرى من خلال استعراض أخطائه وخطاياه ولكن بمعالجة فنية تتناول ذلك الكوكب الذى يحكمه القردة، وعبيده من البشر، حيث يحمل العمل بذور رواية المغامرات والتشويق وتزخر بعدد من المفاجآت الصاعقة.

ويرى البعض أن الرواية تورية عن الجنود اليابانيين وأسرى دول الحلفاء من واقع تجربة المؤلف المريرة أثناء فترة اعتقاله عام ١٩٤٣ أثناء الحرب العالمية الثانية على يد الجنود اليابانيين.

وسواء أكان هذا التأويل صحيحا أم لا فالعمل يعد عملا فنيا رائعا حقق مكانة عالية تستحق القراءة.